

عبد العزيز البدری

الإسلام

بين

العلماء والحكام



منشورات المكتبة العالمية  
لصاحبها محمد بن سكاك  
المدينة المنورة



الاسلام بين العلماء والحكام



الإسلام

بين

العُلماء والحكام

عبد العزيز البدرى



منشورات المكتبة العالمية  
لصاحبها محمد نمشكاني  
المدينة المنورة



جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مَزِيدَةٌ وَمُنْقَحَةٌ



## الإهداء

الى العلماء العاملين ... موعظة للعلماء غير العاملين الذين رضوا لأنفسهم طريق الكسل والخمول والقعود .

والى الحكام الصالحين ... تذكرة للحكام غير الصالحين .

الذين انحرفوا عن حكم الاسلام وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا .

اهدي هذا الكتاب موعظة وذكرى ...

عبد العزيز البدرى







## المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه  
ومن دعا بدعوة الاسلام ، حق قيام الساعة .

.. حفلت الدولة الاسلامية ، في تاريخها الطويل ، بآثر جليلة سجلها  
العلماء في مواقفهم الخالدة والفذة مع الحكام ، تلك المواقف التي اتسمت  
بالصدق والجرأة ، والاخلاص لله ولدينه الحنيف ، فكانوا نجوماً وضياء  
يهتدي بهم الحكام والمحكومون في ظلمات الحياة ..

لقد أظهر العلماء في تلك العصور ، عزة الاسلام ، وأبانوا فيها حقيقة  
الشريعة الاسلامية الغراء ، صافية نقية مكينة ، في صلابة موقفها من الحكام  
المنحرفين عنها ولو قيد أنملة ، وفي معالجتها لجميع شؤون الدولة التي يرأسها  
الحكام ويخضع لسلطانها المحكومون ، كاشفين للعالم أجمع أثر صلابة الايمان  
بالشريعة الغراء في النوازل والخطوب ، متحملين بصبر وشجاعة ، ما ينتج  
عن الجهر بكلمة الحق عند سلطان جائر ، غير هيابين سلطان الحكام ، ولا  
قوة الدولة ولا صولة الجند ...



ولا غرابة في ذلك ، فهم أهل لهذه المواقف لأنهم حملة لواء الشريعة  
الاسلامية الحقيقيون .

إن الحكام الظالمين الذين تولوا أمر الاسلام حيناً من الدهور ، لم يستطيعوا  
البتة تسخير العلماء الأبرار لتنفيذ أهوائهم أو السير في ركابهم المعوج مع ما  
أوتوا من قوة بأس وشدة جبروت ، وتمكين في النسيئ .

وكيف لا يكون ذلك ، وقد نهى العلماء والمسلمون أجمع ، أن يركنوا  
إليهم لقوله تعالى :

( ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ) (١) .

لذلك نجد منهم المحاسبين للحكام ، المنكرين عليهم سوء أفعالهم ، وقبيح  
تصرفاتهم وفساد أفوالهم .

كما نجد منهم ، الناصحين لهم ، الرافضين منهم ، الصابرين على محنتهم .

ومنهم المعرضون عن مواجهتهم ، والساعون لهذه المواجهة بقصد إسماعهم  
مقالة الاسلام صريحة جريئة لا غموض فيها ولا كنايات !! ولا استعارات ولا  
ذبذبة !! حيث لا يخافون لومة لائم .

ثم نراهم الركن السجد في سجون الحكام . يلتمسون رحمة الله ، وطلب  
رضاه . يكتبون ويؤلفون ويهدون الناس الى الطيب من القول ، خدمة  
للالسلام ورعاية للمسلمين . وهذا ما ينفعهم في دنياهم واخرام .

مستحضرين قول رسولهم القدوة الحسنة ﷺ :

( اذا مات الانسان انقطع عمله إلا من ثلاث ... أو علم ينتفع به ...  
الحديث ) (٢) لأنهم شموع قضى وسرج تنير أينما حلوا .

---

(١) آية ١١٥ هود .

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة  
جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له ) رواه مسلم .



أما في الجهاد ومقاولة الاعداء، فهم في مقدمة الجند وعلى رأس النفيضة .

وهكذا أثبت العلماء من قبل ، أن وجودهم هو من اجل الاسلام وحده، وأنهم حقاً ( ورثة الأنبياء ) وسيرى القارىء الكريم ، صدق هذا القول جلياً في حوادثهم ومواقفهم مثبتاً بين طيات هذا الكتاب .

ذهبت الدولة الاسلامية : إذ استطاع الكافر المستعمر ان يقضي عليها - في غفلة من الأمة - بوسائله الاستعمارية الماكرة، وخيانة أبناء من أمتنا ، الذين انطبعوا بثقافته الاستعمارية الكافرة ، واستجابوا لإغرائه ، وصدقوا وعوده البراقة : « وما يعدم الشيطان إلا غروراً » (١) .

بعد ان كانت هذه الدولة : الدولة الأولى في العالم ، قرابة الف سنة او تزيد ، حيث انتزعت زمام القيادة من دواقي الفرس والرومان ومن شايعها ودار في فلكها . حتى وصلت الى درجة انها ان اشارت الى الشرق يطأطئ وان اشارت الى الغرب يوميء، وأضحت زهرة الدنيا حضارة ومدنية ورقياً، فاتجهت اليها الأنظار ، وارتحل اليها أبناء الأقطار، يرتشفون من معينها الذي لا ينضب ، ويستظلون بلوائها ، الى ان ترك المسلمون - حكاماً ومحكومين - حمل رسالتهم الخالدة ، وتقاعس العلماء عن اداء مهمتهم ، وتباطأوا عن حمل لواء شريعتهم بعد ان وقع اللواء... فانتقلوا من مركز القيادة الى درك التبعية وصار المسلمون - حكاماً ومحكومين - يرددون ما يقوله اعداؤهم الحاقدون الكافرون المستعمرون الملحدون من شرق وغرب ، عن اسلامهم ، دون أن يقف علماءهم الموقف المطلوب شرعاً من ذلك .

ان الاسلام اليوم : يريد من المسلمين - خصوصاً معشر العلماء - وهم على مفترق الطرق ، أن يبذلوا أقصى الجهد ومنتهاه ، في بيان أحكامه بصراحة

---

(١) آية ١٢٠ سورة النساء .



وجرأة وحمل الدعوة اليه ، جاعلين وجودهم قائماً على أساسه . فإذا هم لا ينصرون حقاً ولا يمنعون باطلاً ، ولا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ، ولا يحاسبون حكماً ولا ... فما فائدة وجودهم اذن ؟ .. وكان بطن الأرض خيراً لهم من ظهرها .

والعلماء الذين قصروا تجاه اسلامهم ، فهزموا في المعركة معركة الاسلام والكفر ، عليهم أن يقتفوا اثر السلف الصالح من العلماء العاملين ليجعلوا من الفشل الذي حاق بهم نصراً مبيناً ليعيدوا الى الاسلام سيرته الاولى باستئناف حياة اسلامية ، يعز بها الدين وعلماؤه واتباعه ، ويخذل بها الكفر وجنده وانصاره .

ولنعد جميعاً الى الله تعالى اولاً فعنده النصر المبين ان اخلصنا النية له ، واتبعنا شرعه ، ثم نقوم مستفرغين كل جهودنا لحمل راية الاسلام ، واقامة حكم القرآن ، موضحين في سبيل اعلاء كلمة الله ، ولو كره الظالمون والكافرون . ولنبتعد عن الكسل ، ونذهب عن نفوسنا الاستكانة وننزع عنها حب السلامة التي سيطرت على بعضنا . فليست تلك والله من شيم العلماء الابرار حملة الشريعة السمحاء ، واتباع سيدنا محمد بن عبد الله . عليه السلام .

وليكن علماؤنا اليوم حقاً ورثة الانبياء . يوزعون على المسلمين حكماً ومحكومين ميراث نبينهم الكريم بالقسطاس المستقيم . لا ظالم فيه ولا مظلوم .

ان الاسلام اليوم ، يريد من الحكام ، الذين تولوا امر المسلمين في بلادهم من اقصاها الى اقصاها ، ان يعودوا الى انفسهم فيحاسبوها على ما فرطت في جنب الاسلام ..

وليعلموا ان حكمهم مهما طال ، فانه قصير في عمر امتهم الطويل وايام العمر تمضي سراعاً ، وضمة القبر بفتنته وسؤاله آتية لا ريب فيها ، وحساب



الله عسير . وعليهم ان يرجعوا الى الاسلام الذي يدعون الايمان به والانتساب اليه فالايمان يعني التقيد بأوامره . وتحليل حلاله وتحريم حرامه ، وتطبيق احكامه في جميع شؤون حكمهم ، وحمل الدعوة اليه ، والقتال في سبيله ، والا كان ايماناً لا ينفع لا في دنيا ولا في اخرى .

وصدق فيهم قوله تعالى ( ومن الناس من يقولوا آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا انفسهم وما يشعرون ) (١) .

لقد اعتز العلماء والحكام بالاسلام ، حينما ادى كل منها واجبه نحوه .

ولكن حين ضيع الاسلام بالعود عن حمل الدعوة اليه ، والتضحية في سبيله . وبالأعراض عن تطبيقه ، والحكم بغيره ، صار حالنا ما نرى اليوم في جميع دنيا الاسلام ، من ذهاب عز ومجد ، وفقدان كرامة وسيادة ، حتى طمع فينا اراذل القوم ..

وبعد : فقد كانت (الاستراحة) الجبرية التي فرضت عليّ في داري والتي امتدت الاولى سنة بالتام والكمال (٢) من نعم الله تعالى عليّ ، فقد شغفت بالتفتيش في بطون كتب السير والتاريخ والتراجم والطبقات ، لمعرفة مواقف علماء السلف الصالح مع الحكماء . طيلة وجود الدولة الاسلامية ، منذ ان اقامها سيدنا الرسول الكريم ﷺ في مدينته المنورة الى ان استطاع الكافر المستعمر ان يقضي عليها سنة ١٣٤٣ هـ . فدفعني هذه المعرفة الى تسجيل تلك المواقف بجزئياتها وکلياتها وجمعها مما تيسر لي ووفقت اليه . ولما جاءت الاقامة

---

(١) آية ٨ و ٩ سورة البقرة .

(٢) كانت في عهد الطاغية عبد الكريم قاسم في يوم ٢ / ١٢ / ١٩٥٩ م ورفعت في ٢ / ١٢ / ١٩٦٠ م .



الجبرية الثانية <sup>(١)</sup> قمت مستعيناً بالله تعالى الى تنسيقها والاختيار منها والتعليق عليها وكتابة ما يدور في فلكها ولا يخرج عن نهجها . بكتاب فجاءت كما سرى القارىء الكريم .

ان تلك المواقف التي اقتطفتها من سير العلماء والحكام لم أقصد بها التاريخ اذ ليست من التاريخ ببعيد . بل هي منه في الصميم .

ولم أقصد بها ذكر تراجم العلماء والحكام . من الذين مضوا الى ربهم سبحانه .

وانما قصدت إلقاء أضواء على تلك المواقف التي اثبت فيها العلماء - كما قلت - انهم حقاً ورثة الانبياء ، فهي اذن صور لا سير . ليس فيها من التفاصيل بقدر ما فيها من ابراز مواطن العبر والاستبصار .

وليس الذين ذكرتهم هم جميع العلماء الذين كانوا قائمين بواجبهم الشرعي ، محافظين على ميراث النبي الكريم ﷺ وانما هناك علماء وعلماء . منهم من ذكرهم التاريخ ومنهم من نسيهم وطوتهم السنون ، ولن يخلو عصر من أمثالهم حتى تقوم الساعة ان شاء الله .

وأود هنا ان أذكر القارىء الكريم الى نقطة مهمة جدية بالالتفات اليها ، هي ان مواقف علماء السلف الصالح رحمهم الله جميعاً ، من حكامهم ، في غلظة الكلام ، وشدة الانكبار وعظيم المحاسبة - من الذين سنذكر حوادثهم - ومن وصف العلماء لبعض حكامهم بالظلم والجبروت والغرور وبشيء من الابتعاد عن شريعة الاسلام . التي امروا ان يحكموا بها حكمهم

---

(١) وذلك يوم ١٩٦١/٨/٧ ورفعت في اليوم المسمى بيوم العفو العام ١٩٦١/١٢/٤ الذي شمل جميع السياسيين بل السراق والمجرمين .



وسلطانهم ، وان كان قد وقع من بعضهم ذلك ، الا انه قد حصل بهم من الخير الكثير للمسلمين ما لم يحصل مثله بمن جاء بعدهم ، أي والله .

وهؤلاء الحكام الذين عاصروا علماء الأبرار ، ما كانوا يكرهون الاسلام ولا يستكبرون عن حكمه وتحكيمه ، بل كانوا يطبقونه . ويرعون شؤون المسلمين على اساسه ، وأعلنوا الحرب على أعدائه ، ودافعوا عن بيضة المسلمين وحماهم الاسلام . ولكن مع ذلك ، فقد نالت الدنيا من بعضهم ، بعض الشيء ، فحملهم على اتباع الهوى في بعض الأمور . حرصاً على الحكم والسلطان . وما اعظم فتنة الحكم والسلطان !! فلم يخلُ حكمهم من مظالم بارزة وسيئات ظاهرة جعلت العلماء يقفون في وجوههم منكرين عليهم تلك المظالم عاملين على رفع تلك السيئات بذلك . وقالوا عنهم ما قالوا .. لأن العلماء أرادوا منهم ان يكونوا على مثل ما كان عليه الخلفاء الراشدون - اذ هو المطلوب شرعاً من كل حاكم مسلم في كل حين - ووزنهم بمن كان قبلهم . فخفوا في الميزان ، فظهر التخلف وانكشف التنكب ، فلا يتوهم احداً ان الذين سنذكرهم من الحكام وموقف العلماء منهم ، انهم من أعداء الاسلام ، او من الكارهين له .

فكان ما كان مع أمر العلماء معهم .

وان كان أمر العلماء السلف الصالح مع هؤلاء الحكام وهم على ما ذكرنا فكيف يكون أمر علماء اليوم من حكامهم وهم على ما هم عليه ؟؟

ان تاريخ العلماء والحكام من سلف الأمة ، حافل بمواقف الاستبصار ومواطن الذكرى ومملوء بالدروس النافعة الرائعة ، فنحن معشر العلماء ، في جميع أنحاء البلاد الاسلامية ، أحوج ما نكون اليوم الى الاتعاظ بمواقف سلفنا من السادة العلماء رحمهم الله تعالى الذين تحلوا بصفة العلم والعمل ، والتقوى والزهد ، والجرأة في الحق ، والصلابة في التمسك بالعدل والمحافظة على حدود الشرع ، وحمل الدعوة الى الاسلام لإقامة شرعه في الارض وتحكيم أنظمتها في



الدنيا والوقوف في وجه الحكام الظالمين الذين اعرضوا عن الله فأعرض الله عنهم . وبشت عاقبة الظالمين ، لنعيد الى الاسلام سيرته الاولى ولنستأنف حياة اسلامية كريمة ، يعز بها الدين وعلماءه وأتباعه ويخذل بها الكفر وجنده وأنصاره ، ولتكون كلمة الاسلام هي العليا ، وكلمة الكفر هي السفلى ، والله بما تعملون خبير .

وما أحوج حكام اليوم في بلاد المسلمين الى الانعاط بن هلك من الحكام الظالمين والتأسي بن افضى الى ربه مرضياً بعد إسلام حكم به ، وعدل اقامه وخير نشره .

ان حكام اليوم بحاجة أكيدة الى من يذكرهم ، ويصارعهم بحالتهم ، ويدلهم على مواطن الداء ونافع الدواء بعد هذا الذي صرنا اليه - انه والله ما كان يطمع بمثله عدو لثيم وأثيم ، وكافر مستعمر عنيد . والمسلمون ايضاً ما احوجهم الى معرفة شيء عن غيرة اسلافهم على الدين وأحكامه ، ووقوفهم في وجه حكام زمانهم .

ان مسؤولية الاسلام تقع عليهم كذلك ، ولن ينجوا من الاثم ان قصرُوا في جنب الاسلام وأهملوا حملة الدعوة اليه . قال تعالى : « فلنسالن الذين ارسل اليهم ولنسالن المرسلين » (١) عسى ان تكون هذه المعرفة محفزاً لعزائمهم الفاترة التي كادت ان تموت ، وأخيراً وليس آخراً فان هذا الكتاب كما ذكرت كتب في فترة - الاستراحة - الجبرية لذا فهو يعبر عن انطباعات خاصة وإحساسات معينة يدركها القارئ اللبيب .

و « قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

عبد العزيز البدري

بغداد ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٨٥ هـ - ١/١٢/١٩٦٥ م

---

(١) آية ٦ سورة الاعراف .



## العلماء والحكام في العصر الإسلامي

لم ترفل الأمة الإسلامية بالسعادة الحقة والرفاهية والأمن ، ولم تشعر بالعزيزة والسيادة الكاملتين في الأرض إلا في ظل حكم الإسلام - ما في ذلك شك - ولم ترتج هذه الأمة من أحكام بمثل ما ارتاحت حين تولى أمرها أحكام مسلمون ، آمنوا بالله واليوم الآخر وحافظوا على كتاب الله وسنة رسوله ، ووقفوا عند حدودهما ، والتزموا بأحكامها . حضروا المساجد مع الرعاية ، وفتحوا لهم الأبواب ، يكرمون الزائر ، ويحترمون العالم ويحلون الفقيه ، يسمعون منها النصيح والارشاد ، ويتقبلون المحاسبة والانكار ، أما الجهاد في سبيل الله فقد كان رائداهم ، لم يتخلوا عنه في أحلك الظروف التي مرت بهم ، لأنهم آمنوا بقول الصديق الأعظم سيدنا أبي بكر رضوان الله عليه « ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا » ، لذلك كثرت الفتوحات الإسلامية في زمانهم ، وكانوا قادة الفتح الإسلامي العظيم ، تلك الفتوحات التي انقذت البلاد المفتوحة من جور الأديان وظلم الحكام وفساد المجتمع ، ولا زالت آثار تلك الفتوحات العظيمة قائمة في العالم ، وتلك حقائق ثابتة لا ينكرها إلا من خبث طويته وفسد عقله وكان ذليلاً لأعداء الإسلام يردد ما يقولون ويصدق ما يفترون . كل ذلك من أجل الاساءة إلى الإسلام والطعن بحكمه العادل الذي ارتضاه المولى الكريم سبحانه وتعالى لعباده المسلمين .



إن بعض المؤرخين من سلف هذه الامة ، ذكروا حوادث لمظالم افترقها بعض الحكام وإساءات ارتكبوها أثناء تطبيقهم لأنظمة الاسلام ، لذا قام العلماء بواجبهم الشرعي فأنكروا تلك المظالم وعملوا على إزالة تلك الإساءات ، ووقفوا المواقف الجريئة أمامهم في هذا السبيل ، لأن العلماء ، وهذا شأنهم في كل زمان ، يريدون من الحكام أن يكونوا مطبقين لأحكام الشرع محسنين في تنفيذ أحكام الاسلام ، فلا ظلم يقع ولا إساءة تحدث .

فإذا أحدث حاكم إساءة أو ارتكب مظلمة سواء أكانت عن سوء قصد أو عن نية حسنة ، فإن من واجب العلماء أن ينكروا عليهم ذلك وأن يحاسبوهم عليه ، حفظاً على بيضة الاسلام ، ورعاية لشؤون المسلمين ، بل يعتبرون ذلك نصرة لهم مصداقاً لقول الرسول الأعظم ﷺ « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً قلت يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ قال : تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه » (١) .

ولم ينج الحكام من محاسبة العلماء لهم وإنكارهم عليهم ، رغم ما كانوا عليه في أحوالهم بصورة عامة تجاه الإسلام ، من تطبيق أحكامه ورعاية المسلمين على أساسه ، والقيام بفريضة الجهاد ، ولم يشفع ذلك لهم .

إلا أن بعض الحكام كانت قضيتهم صدورهم لهذه الأفكار ، ولم يستسيغوا مواقف العلماء معهم ، حرصاً منهم على هيبة الحكم وحباً في السلطان ، أو لغفلة يندسون الله فيها . وسبحان من لا يغفل . ولا يخطيء .

لذا فإن الحكام الذين عاصروا علماءنا الأبرار من الذين ذكرت أخبارهم وسطرت حوادثهم ، وموقف العلماء منهم ، قد حصل بهم خير كثير للإسلام وفضل عظيم للمسلمين إذ كانوا يطبقون الاسلام عقيدة ونظاماً ، والدليل على ذلك :

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه .



ان الذي يطبق نظام الاسلام ويرعى عقيدته عملياً ، هما شخصان في الدولة ، الاول القاضي الذي يفصل الخصومات بين الناس ، وينخبو بالحكم على سبيل الالتزام ، والثاني الحاكم الذي يحكم الامة سواء سمي هذا الحاكم امير المؤمنين او الامام او السلطان .

أما القاضي فمن الثابت بشكل قطعي ان جميع القضاة الذين تولوا القضاء منذ عهد الرسول الاعظم ﷺ الى انتهاء الحكم الاسلامي في الدولة العثمانية ، كانوا يفصلون الخصومات المعروضة امامهم وفق احكام الاسلام ، سواء أكان ذلك في القضايا الجزائية أم الحقوقية أم في قضايا الزواج والميراث مما سمي بالأحوال الشخصية . أم في البيئات وسائر المعاملات ، وكانت محكمة القضاء واحدة تقضي في كل الأمور حسب أحكام الشرع ، ولم يرو أن محكمة قضائية في طول بلاد الاسلام وعرضها ، قضت بقضية واحدة على غير أحكام الشرع ، وأقرب دليل هو السجلات الخاصة بتلك المحاكم ، والتي ما زالت محفوظة في العراق ومصر والشام والقدس واستانبول . وبقي الحال كذلك الى أن فصلت المحاكم الى شرعية ومدنية ، وعند ذاك أخذت القضايا والخصومات المعروضة أمام المحاكم تقضي بغير أحكام الاسلام ، وذلك في سنة ١٣٢٦ هـ ١٩١٨ م حين سقطت آخر دولة اسلامية على يد الكافر المستعمر حتى ان القوانين التي بدأت تدخل بلاد المسلمين في سنة ١٨٥٧ م كقانون الجزاء وقانون التجارة وقانون الحقوق فانها لم توضع موضع التطبيق الا بعد ان نالت موافقة شيخ الاسلام - كبير العلماء - وأفق يجاوزها بأنها لا تخالف الاحكام الشرعية حتى ان العلماء لم يروا أي مبرر لإدخال القانون المدني الى البلاد الاسلامية ولذلك وضعت ( المجلة ) كمواد قانونية في المعاملات مستندة على الاحكام الشرعية حسب فهم واضعها ، كل ذلك يدل بوضوح على ان المحاكم القضائية وقضاة المحاكم كانوا يحسمون جميع القضايا على اساس أحكام الاسلام ، ولا زالت البلاد التي لم يدخلها الكافر المستعمر بجيوشه وان دخلها بنفوذه تقضي بحاكمها بأحكام الشرع .



اما الحاكم فقد كان يطبق انظمة الاسلام ويبرز هذا التطبيق في خمسة امور ، في الناحية الاجتماعية ، والناحية الاقتصادية ، والناحية التعليمية ، والناحية السياسية داخليا وخارجيا ، وناحية الحكم ، وهذه طبقت جميعها من قبل الحاكم في مختلف العصور الاسلامية ، أما الناحية الاجتماعية وهي علاقة الرجل بالمرأة بالزواج والطلاق والنفقة وجميع ما يتصل بهذه العلاقة وهي التي سميت ( الأحوال الشخصية ) فانها لا تزال قائمة وموجودة في جميع البلاد وان غير بعض الاحكام جزئيات فيها ، رغم ابتعاد الاحكام عن الاسلام كنظام وعدم تطبيق احكامه في نواحي الحياة .

أما الناحية الاقتصادية ، فانها تبرز في مسألتين ، الاولى كيفية اخذ الدولة للمال من الأمة والثانية كيفية انفاق هذا المال ، أما من حيث أخذه ، فكانت الدولة الاسلامية تأخذ الزكاة على الاموال والاراضي وعروض التجارة والمواشي والزروع والثمار ، باعتبار الزكاة عبادة ، لتقوم بتوزيعها على الذين لهم حق بها ، من الاصناف الثمانية المقررة شرعاً ، كما تأخذ الخراج والجزية وضرائب الكمارك بحكم اشرافها على التجارة في الصعيدين الداخلي والخارجي ، وكانت تقوم على ادارة ما هو داخل في الملكية العامة ، او ملكية الدولة ، كالمعادن والقنوات وغيرها من موارد بيت المال ، اما من حيث انفاق هذه الاموال فانها كانت توزعها حسب الاحكام الشرعية ، وقد طبقت احكام النفقة على العاجز وحجرت على السفية والمبذر ، وأوجدت اماكن لاحكام الفقراء والمعسرين ، ونفذت احكام العمل والعمال ، ومنعت الاحتكار والنفس والاستغلال وكل وسائل الكسب غير المشروع .

ومن الحق أن نقول ان بعض الاحكام كانوا يسيئون تطبيق احكام الشرع في هذه الناحية وكان البعض الآخر يحسن غاية الاحسان في رعاية هذه الناحية ، تبعاً لنفسية الحاكم ومدى التزامه بالاحكام الشرعية ، وموقف الأمة منه خصوصاً العلماء ، فاذا حصل لبعض الاحكام أن يقصر ويسيء فلا يعني هذا عدم التطبيق .

أما الناحية التعليمية فإن الأساس الذي كان قائماً على هذه الناحية هو الاسلام بتركيز العقيدة الاسلامية حين التعليم ونشر الاحكام الشرعية المتعلقة بشؤون الحياة . وتعليم الثقافة الاسلامية والعلوم الأخرى . حتى أصبحت البلاد الاسلامية الخاضعة لحكم الاسلام موثلاً للعلوم ومقرأ لدراسة المعارف . وكانت جامعاتها والمعاهد العلمية سواء اكانت في المساجد او في دور خاصة ، محط انظار العلماء واهل المعرفة ورواد العلوم وكان لتلك الجامعات والمعاهد الاثر العظيم في توجيه التعليم ونشر الثقافة في مختلف العلوم ، ومن هذه المعاهد والجامعات تخرج كبار العلماء والفلاسفة والمفكرين الذين لا زالت بحاثهم ودراساتهم ومؤلفاتهم ، موضع الاكبار ، ومن معينها يستقي المفكرون ويورد المربون اليوم ، وكل الذي حصل من تقصير في هذه الناحية هو ما كان قائماً في العصور المتأخرة من قلة المدارس ونضرب العلم والمعرفة .

أما السياسة الخارجية والداخلية ، ففي الناحية الداخلية كان يطبق نظام الاسلام على الأمة ، وهذا قائم ما دامت الدولة الاسلامية قائمة ، واذا حصلت اساءة في تطبيق بعض تفصيلات نظام الاسلام فلا يعني هذا عدم وجوده ، حيث ان المسلمين لم يرتضوا بغير الاسلام نظاماً لهم ، كما لم يستوردوا نظاماً ولم يسمحوا بدخول نظام اجنبي ، بل لم يترجموا اي نظام في الوقت الذي ترجموا الفلسفات الاجنبية والعلوم والمعارف ، وفي الناحية الخارجية كانت علاقة الدولة الاسلامية بغيرها من الدول قائمة على اساس الاسلام ، وكانت الدول في العالم تنظر الى الدولة القائمة في العالم الاسلامي ، دولة اسلامية فاحكام المعاهدات والجهاد وسائر الاعمال السياسية كانت تستنبط من ادلة الشرع وقد خلف العلماء ثروة هائلة من الافكار الاسلامية في هذه الناحية وغيرها .

أما نظام الحكم المطبق في العصور الاسلامية ، فقد كان نظام حكم اسلامي ، فكان جهازه اسلامياً حيث قام على سبعة اركان (١) الخليفة وهو



رئيس الدولة (٢) معاونون للرئيس في الحكم (٣) الولاية في الاقاليم (٤) القضاة (٥) الجيش (٦) الجهاز الاداري (٧) مجلس الشورى ، وهذا الجهاز كان قائماً . وتفصيل ذلك :

إن الأمة الاسلامية من لدن حياتهم في المدينة المنورة ، حتى سنة ١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م كان عليهم خليفة ، وان سمي في بعض العصور بالسلطان او الملك<sup>(١)</sup> والمعاونون وهم الهيئة التنفيذية فقد كانوا موجودين في جميع العصور وان وصفوا بلقب الوزراء في بعض العصور كالعصر العباسي أما الولاية والقضاة والجهاز الاداري فقد كانوا موجودين كذلك ولا زالت هذه المناصب موجودة في بعض الافطار في العالم الاسلامي .

اما الجيش فوجوده لا يحتاج الى دليل إذ هو صاحب الفتوحات الاسلامية العظيمة وهو القوة الجبارة التي كانت ترهب الكفار في العالم .

أما مجلس الشورى فإن من الأمانة في البحث ان نقول انه لم يكن به من قبل الحكام عناية حقة إلا في زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم . فقد كان غير هؤلاء يكتبون بأخذ المشورة من افراد معينين وثقوا بهم ، وهم الذين سموا بأهل الحل والعقد في بعض العصور ومنهم من اتخذ من معاونيه او من معاونيه الأقدم سبيلاً لتحقيق الشورى ، وان كان من الواجب ان يكون هذا المجلس قائماً لأنه من حق الأمة على الخليفة ، لذا فالذي حصل في العصور المتأخرة في مسألة الشورى تقصير ، ومع ذلك فان الحكم كان اسلامياً ، ولأن الشورى هي لأخذ الرأي بخلاف المجالس النيابية في النظام الديمقراطي فهي للحكم .

---

(١) الملك حسب واقعه الذي كان قائماً يختلف عن مفهوم نظام الملكية في النظم الديمقراطية في الوقت الحاضر . ولذلك لا تصح هذه التسمية على خليفة المسلمين بعد ان عرف وشاع مفهوم الملك في الوقت الحاضر .

وكل للذي يؤخذ على جمهرة الخلفاء هي مسألة البيعة الخليفة ومسألة استعمال القوة المادية في تولي الحكم . اما البيعة يومئذ فقد كانت تؤخذ لابن أو أخ أو من أسرة الخليفة القائم في حياته ، ثم تجدد لذلك الشخص بعد فقدان ذلك الخليفة وهذه إساءة لتطبيق حكم البيعة ، إذ البيعة شرعاً تعقد للرجل الذي ترضاه الأمة وتختاره بعد فقدان خليفته ، وإساءة تطبيق حكم البيعة هذه هي الشبهة التي حسمها البعض بأن نظام الحكم الاسلامي كان وراثياً في جل العصور الاسلامية وهو ما يعبر عنه بالنظام الملكي ، وهذا يتنافى مع احكام الاسلام في نظام الحكم . والحقيقة ان ولاية العهد او الحكم الوراثي لا صلة له بالاسلام ، وبالتالي لم يطبق في جميع العصور الاسلامية ، حيث ذكرنا آنفاً ان الذي حدث في تلك العصور هي ان الخليفة كان يقوم ببناء على بيعتين الاولى في حياة الخليفة القائم والثانية بعد وفاته ، ولم ينصب خليفة دون بيعة ، فكانت البيعة تؤخذ في تلك العصور من اهل الحل والعقد ، ثم أخذت من شيخ الاسلام - كبير العلماء - وهذا يتناقض مع مفهوم الوراثة او ولاية العهد ، لوجود البيعة الثانية وهي الاصل ، والاولى كانت على سبيل الترشيع الالزامي ، ولو اكتفى بالاولى لصح القول وكانت تلك الشبهة ، حقيقة قائمة لا شبهة ، والبيعتان هاتان لا يقرهما الاسلام ، وانما بيعة واحدة تعلن فيها الأمة عن تريده خليفة عليها بدون ضغط أو إكراه ، يبايعها هو على تطبيق الاسلام وتبايعه هي على السمع والطاعة .

اما استعمال القوة المادية في تولي الحكم ، وفرض شخص معين نفسه على الأمة ، وهي لا تريده ولا ترضاه حاكماً عليها ، فهذا لا يجوز شرعاً ولا يقره الاسلام ، ولو ان هذا الشخص اعلن انه يطبق الاسلام ويرعى الأمة على اساسه ، إذ الأمة هي صاحبة السلطان ، ولها الحق كل الحق ، ان تختار شخصاً معيناً ليكون نائباً عنها في الحكم وتولي السلطان .

وهناك شبهة اخرى ، وهي حدوث بعض الاساءات ، ووقوع بعض المظالم



من قبل بعض حكام الدولة الاسلامية ، فحكم البعض على هذه الوقائع التاريخية ، بعدم تطبيق الاسلام في ذلك الحين ، ان هذه الشبهة ستزول حتما اذا لوحظت هذه الامور .

اولاً : ان تأريخ الحكم الاسلامي ، وأحوال الحكم ، لا تؤخذ من أعداء الاسلام او من المبغضين له ، او من الذين دخلوا في الاسلام نفاقاً ، لتحقيق مآرب خاصة ؛ وانما يؤخذ هذا التأريخ من ثقة المؤرخين المسلمين المؤمنين ، مع التحقيق الدقيق في ذلك اذ ان كثيراً من الحوادث نقلت بزيادة فيها ، وان بعض المؤرخين لم ينصفوا بعض الحكم ، وان عامل الاختلاف المذهبي كان له اثر في كتابة الحوادث ؛ ومنهم من خضع لأهواء الحكم حين الكتابة عن الذين سبقوهم في الحكم ، فضلاً عن انه لم يكتب تأريخ المجتمع الاسلامي كتابة تمحيضية دقيقة ، وان الذي كتب هو أخبار الحكم ، وهذه لا تعطي صورة واضحة عن المجتمع الاسلامي ، ولا عن حكم الاسلام .

ثانياً : ان الباحث المدقق لا يجوز له ان يستعمل القياس الشمولي عن المجتمع ، من تأريخ بعض افراده او حكامه ، كما لا يجوز له أن يحكم على نواحي المجتمع كلها بالفساد ، لفساد حاكمه ، او لفساد ناحية فيه ، فليس من الصواب ان يحكم على المجتمع في العصر الأموي من تأريخ يزيد بن معاوية ، او الحجاج بن يوسف الثقفي ، او يحكم على المجتمع في العصر العباسي بالفسق والمجون والجواري الحسان ، من قراءة كتاب الاغاني لأبي الفرج الذي ألف عن أخبار اهل الهوى والمجون والشعراء ، وانما الصواب أن يحكم على المجتمع بالصلاح او بالفساد من دراسة جميع نواحي المجتمع .

ثالثاً : ان معرفة احوال المجتمع وحياة اهل العصر تكون بمعرفة نوعية النظام الذي كان مطبقاً ومدى تطبيق الحاكم والمحكوم له ، وهذه المعرفة تكون بدراسة ناحيتين والاطلاع على سيرهما بدقة .

الاولى - معرفة مصادر النظام المطبق في الحياة في ذلك العصر .

الثانية - معرفة مصادر التاريخ الذي يذكر كيفية تطبيق النظام .

أما النظام فتعرف نوعيته وتفهم صحته معالجاته لمشكلات الحياة ، ويحكم على صلاحه وسلامته او على فسادته وخطئه من معرفة مصادره الفقهية التي استند عليها .

ومصادر نظام الاسلام هي الكتاب والسنة وما استند عليها وأرشد اليها، وهذه المصادر مفصلة مع الاحكام المستنبطة منها في الكتب الاسلامية، التي تعرف بكتب الفقه . وعلى هذا الاساس نجد ان النظام الذي كان مطبقاً في المجتمع في العصور الاسلامية كلها هو نظام اسلامي محض ، حيث لم يوجد ولا نص فقهي واحد من غير الاسلام مما يدل على أن الاسلام كان مطبقاً وحده ، ولو لم يكن كذلك ، لذكرت نصوص او نص واحد لمعالجة مشكلة من غير الاسلام .

أما مصادر التاريخ وهي التي تذكر كيفية تطبيق هذا النظام من قبل الحاكم او المحكوم وتذكر احوال المجتمع وحياة اهل العصر فلإنها تكون بدراسة الأمور التالية :

كتب التاريخ : ان بعض هذه الكتب التي بين أيدينا اليوم خضعت للظروف السياسية وكانت تحشى بالتزوير والبهتان مدحاً او ذماً وبالزيادة والنقصان اما بجانب الذين كتبت في أيامهم واما ضد الذين كتبت عنهم في أيام غيرهم (\*) ، ومن البديهي ان هذه لا قيمة لها من الناحية التاريخية الموثوقة

---

(\*) واقرب دليل على ذلك تاريخ الاسرة الهاشمية في العراق فانها وصفت قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بخدمة الامة ورعاية الدين والنزاهة في الحكم وغير ذلك من الاوصاف المذكورة في الكتب التي ألفت في عهدهم، ولكن بعد ثورة ١٤ تموز وصفت بالخيانة والمروق من الدين وفساد الحكم وألفت في ذلك كتب ، ومثل ذلك تاريخ اسرة حميد الدين في اليمن وتاريخ الاسرة العلوية في مصر .



وعلىنا بالكتب التاريخية المعتبرة التي لا يتناول اليها الشك ، ومن فضل الله تعالى على هذه الأمة انه منحها مؤرخين يندر ان نجد امثالهم في العالم كله لما بذلوه من جهد صادق في تحري الحقائق بكل أمانة واخلاص .

واذا درسنا هذه الكتب بنزاهة علمية وقلبنا أوجه حواشيها وربطنا بين تلك الحوادث تاريخياً وواقعياً نجد أن المجتمع في العصور الاسلامية ، كان مجتمعاً اسلامياً وان اهله من حكام ومحكومين كانوا يطبقون الاسلام . ولم يطبقوا غيره ، بل لم يترجم العلماء نظام غيرهم ولو للاطلاع والرد كما فعلوا في الفلسفة ، لأنهم كانوا في غنى عن ذلك .

الآثار : والآثار مصدر مهم من مصادر التاريخ ، وهذه اذا درست بدقة فإنها تعطي حقائق تاريخية ، ومن يتلعب آثار المسلمين في بلادهم لم يجد أثراً غير اسلامي بل ان المسلمين تركوا لنا آثاراً عظيمة دلت على ذوقهم الاسلامي السليم ، وعلى نفسياتهم الرائعة وعلى عقليتهم الاسلامية المبدعة .

الرواية : الرواية من اصح المصادر التي يعتمد عليها في نقل الحوادث والوقائع وذلك كشأن كتب الحديث التي نقلت سنة الرسول الكريم ﷺ وكتاريخ الطبري وتاريخ ابن كثير ، ومن مجموع هذه المصادر الثلاثة ١ - الكتب ٢ - الآثار ٣ - الرواية ، مع معرفة مصادر النظام ، يكون الحكم على النظام وعلى كيفية تطبيقه ، وإذا لاحظ الدارس المدقق ذلك كله ، يحصل على نتيجة طيبة ، ويحكم على ان المجتمع في كل العصور الاسلامية التي كانت تحكمه الدول الاسلامية ، كان الاسلام مطبقاً وقائماً .

ومن الجدير بالذكر اننا لا ننكر حدوث اساءات او وقوع مظالم في بعض العصور الاسلامية ، وفي ظل دولة الاسلام ، بل ان حوادث كتابنا هذا التي قام عليها الكتاب لتدل دلالة واضحة على هدم الانكار ، ولكن نقول ان حوادث الظلم ووقائع الجور من قبل بعض الحكام لا تعني ان الحكام غساق

فجاء كفرون مارقون كما يتصور البعض او يصور البعض ، ولا تعني ان المجتمع غير اسلامي .

وانما تعني ان الأمة الاسلامية كانت في تلك العصور من اسعد الأمم لتطبيق احكام الاسلام عليها ، وتلك سعادة الأمة في كل حين ، وان لمواءم الاسلام كان خفاق البنود في الارض ، وان دولة الاسلام كانت زهرة الدنيا وكانت أمنية الشعوب المظلومة ان تستظل بطوائها ، وان الاحكام كفوا مسلمين وان وقعت اساءات منهم ، ولذلك وقف العلماء من بعضهم موقفاً صلباً وشديداً لوقوع اساءات منهم لم تصل الى حد تغيير احكام الشرع او تبديل حكم من احكام الاسلام ، موقفاً لم يعرف الخور والاستكانة ، بل منهم من قدم رأسه لمقصلة السياف او ظهره للسياط والجلاد ، حسبة لله تعالى ، وقياماً بالواجب الذي فرضه الله تعالى على العلماء حملة الشرع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما نهى بعضهم عن مداخله الاحكام وتحريم التردد اليهم الا لحماية صوت العلماء في وجه كل طاغية مما قد يصيبه من ضعف آت من تلك المداخله ، ومنهم من تعاون مع الاحكام في اقامة الحق ونشر الخير عن طريق تولي المناصب القضائية ووظائف الدولة ، ومع هذا وتلك فقد وجد منهم - العلماء - من يلبس البساط طلل ثوب الحق ويزين للحاكم مظالمه ويبرر سياسته ان هؤلاء اشقوا الدين بعرض زائل من الدنيا فطبيهم وزر صنيعهم ولا غرابة في ذلك لأنهم من البشر وايسوا ملائكة وهم يخطئون لأنهم من بني آدم ( كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ) .

## سياسة العلماء والحكام

من أخطر المفاهيم الغربية ، التي أدخلها الكافر المستعمر في بلاد المسلمين ، عن طريق غزوه الثقافي : مفهوم - رجال الدين - ومن أنضجت للتهم وأكذب الحديث التي روجها هذا العدو اللئيم ، ان يشبه خليفة المسلمين بالبابا ، ويشبه



الحاكم المسلم الذي يطبق الاسلام بالحكم البابوي الذي له القداسة المطلقة ، وله الحكم الفصل في كل أمر وقضية .

إن كلمة ( رجال الدين ) تحمل مفهوماً خطيراً ، ومعنى فاسداً سقيماً ، وقد استطاع الكافر المستعمر ان يركزه عند المضبوعين بثقافته ، فأصبحنا نسمعه منهم في كل مناسبة بل وصل الامر ان ردها بعض علماء المسلمين اليوم ، دون ان يدركوا مفهومها وحقيقة معناها .

إن هذه الكلمة ( رجال الدين ) اصطلاح اجنبي ، أطلقه الغربيون على القسس والرهبان والأساقفة ، وصفاء لهم ، وتقريراً لواقعهم ، وذلك حينما قامت الثورة الفكرية في أوروبا تطالب بالاصلاح والتحرر من سيطرة الكنيسة ورجالها ، تلك الكنيسة التي كانت تقف في وجه كل دعوة اصلاحية حسب المفاهيم الغربية وتتهمها بالمروق من المسيحية ، الأمر الذي ادى الى بقاء اوربا قرونًا عدة وهي واقعة تحت سيطرة الكنيسة وظلم رجالها ، مما أدى الى التأخر والفساد وشيوع الاضطراب النفسي والفكري وبالتالي المادي .

فرجال الكنيسة كانوا يرون أن الانسان فيه السمو الروحي والنزعة الجسدية ، وان السمو الروحي لا يلتقي مع النزعة الجسدية ، وان المادة منفصلة عن الروح ، ومن هنا نشأ التناقض ، فكان الفصل عندهم بين المادة والروح .

ولما كان ترجيح احدى النزعتين ضغطاً لوزن الأخرى ، فقد حاول رجال الكنيسة التمسك بالسلطة الزمنية ، اذ بها يستطيعون الاشراف على النزعتين ، وتحقيق التوازن بينهما ، فيعيش الناس بهناء وسعادة .... هكذا كانوا يزعمون .

ولكن لم يستطع رجال الكنيسة الابقاء على السلطة الزمنية بأيديهم ، فقد نازعهم فيها رجال الفكر فانزعوها من أيديهم ، وتركوا لهم أمور

العبادة والطقوس الدينية يديرونها كيفما يشاؤون، وحسبما يريدونها ، وقد رضي رجال الكنيسة بهذا الحال ووافقوا على هذا الواقع ، ووجدوا في القول المأثور عندهم « اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » خير عزاء وسلوان ..

والخلاصة فقد استقل رجال الكنيسة بالسلطة الروحية ، واحتفظ السياسيون بالسلطة الزمنية ، ونتج عن هذا الاستقلال فصل الدين عن الحياة ، وفصل الدين عن الدولة والحكم والسياسة وعن شؤون المجتمع وعلاقات الدولة .

وأصبح من جزاء هذا الفصل ، أن صار للدين مفهوم ضيق هو تدبير شؤون العبادة المسيحية ، داخل الكنيسة ، وصار لهذا الدين بهذا المعنى رجاله الخبيريون بشؤونهم المتفرغون لخدمته ولتنظيم طقوسه وتراثيله ثم أطلق على هؤلاء - دون غيرهم - كلمة - رجال الدين - وصار مفهوماً ومعلوماً لدى الجميع ان رجال الدين لا شأن لهم في الحكم والسياسة ولا في شؤون الدولة وعلاقاتها ، ولا في أفعال رئيس الدولة وتصرفاته ، وإنما شأنهم وكل عملهم هو في العبادة ، وهو كل الدين ، ومن عمل منهم بخلاف ذلك فقد خرج على سلطان الكنيسة ، وأصبح مارقاً منها منبوذاً من قبل رجال الاكليروس .

كما كان من اثر هذا كله ان صار للدنيا رجال هم رجال السياسة والدولة ، عرف عملهم وخصص منهج تفكيرهم بأنه لا علاقة له بالدين ولا برجال الدين ، وبهذا يمكن الخطر وتكون الخطورة لهذا المفهوم وقد ركز فصل الدين ورجاله عن الدنيا ورجالها ، واصبح لرجال الدين ادارة تابعة للكنيسة كما عرفوا بلباس كهنوتي معين تختلف اشكاله وألوانه حسب درجات العلم الكهنوتي كما لهم القابهم الخاصة من مطران وشماس وقس وراهب واسقف وبطريك وكردنال ثم بابا .

وهنا لا بد من الاشارة الى أن رجال الثورة والسياسيين في اوروبا من



حقهم أن يفعلوا ما فعلوا تخلصاً من سيطرة الكنيسة وظلم رجالها ، ففصلوا دينهم عن الحياة وشؤونها ومنها الحكم والسلطان ، لأن الدين المسيحي كما هو واقع ، وكما هي حقيقته دين اخلاق وعبادة فقط ، لا دين نظام وتشريع لمشؤون الحياة كلها ، فليس فيه أنظمة للحكم ولا للاقتصاد ولا للسياسة .. الخ وليس فيه دولة تطبق تعاليم المسيحية ، وترعى شؤون الناس في الحياة حسب هذا الدين ، ولكنهم - والحق يقال - ليس من حق رجال الثورة أن يذهبوا القس والرهبان الخ .. من رعاية شؤونهم وشؤون الناس ، ويبعدونهم عن الاشتغال بالسياسة والمشاركة في الحكم وما له صلة بالدولة ، لأن من حق كل انسان أن يرعى شؤون نفسه لا أن ترعى شؤونه وهو بمعزل عن ذلك ، ولكن ما الحيلة وقد رضي بذلك القس والرهبان .. فلهم رأيهم وعليهم وزر ذلك ، هذا من الناحية النظرية البحتة المقررة التي يحاولون اشاعتها بين المسلمين وفي ديارهم لابعادهم عن الاسلام ولكن هذه الناحية لما لم تكن عملية ومخالفة لفطرة الانسان وغير منسجمة مع حياته فقد خرج عليها الأسقف مكاريوس حين تولى رئاسة الجمهورية في قبرص .

أما الاسلام فليس فيه رجال دين ولا رجال دنيا فكل مسلم هو رجل من رجال الاسلام ، ومن يعتقد بالاسلام يسمى مسلماً والمسلمون جميعاً أمام دين الاسلام سواء .

وليس في الاسلام سلطة دينية بالمعنى الكهنوتي ولا سلطة زمنية متفصلة عن الدين ، بل السلطة واحدة ، تقوم على اساس الاسلام وتطبق الاسلام وحده ، لأن الاسلام دين والدولة جزء منه ، والسياسة - وهي رعاية شؤون للناس - حكم شرعي من احكامه ، ولأن الاسلام عقيدة ونظم ، لما كونه عقيدة فلا بُدَّ اساسه يقوم على الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر . وتلك هي عقيدة ، وقد انبثقت عن هذه العقيدة ، أنظمة الاسلام في الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع ، والعقوبات والبيانات

والمعاملات الخ... وهذه الأنظمة احكام شرعية ، استنبطها المجتهدون من الأدلة التفصيلية من الكتاب الكريم والسنة المطهرة وما استند عليهما وأرشد إليهما .

وقد سمي الاسلام الذين تخصصوا في فهمه بالعلماء والفقهاء والمجتهدين ، أما العلماء فلقوله تعالى ( انما يخشى الله من عباده العلماء ) (١) . وقوله عليه الصلاة والسلام ( أن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ... الحديث ) (٢) . أما الفقهاء فلقوله تعالى ( ليتفقهوا في الدين ) (٣) ، وقوله ﷺ ( من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده ) (٤) . وأما المجتهدون فلاقراره ﷺ لقول معاذ بن جبل حينما بعثه الى اليمن حين سألته ﷺ بم تحكم إن لم تجد في الكتاب ولا في السنة فقال : ( أجتهد رأيي ولا آلو ) (٥)

ولم يشترط الاسلام لباساً معيناً للعلماء فكل من يفهم الاسلام يكون عالماً به مهما ارتدى من لباس ، وكل من توسع في فهم الاسلام يكون فقيهاً وكل من كان قادراً على استنباط الاحكام الشرعية من أدلتها يكون مجتهداً .

أما ما نراه على رؤوس العلماء من العمام فهو لباس جميع المسلمين في العهد الاسلامي الزاهر ، فالعلماء في ذلك العصر لم يتميزوا بلباس ليعرفوا به ، وإنما عرفوا بالعلم والعمل ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو إمام العلماء وسيدهم كان جالساً مع اصحابه فجاء اعرابي فقال: أيكم ابن عبدالمطلب؟

---

(١) الآية ٢٨ فاطر .

(٢) رواه مسلم والبخاري وأصحاب السنن .

(٣) الآية ١٢٢ التوبة .

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه والبيهقي .

(٥) رواه ابو داود والبيهقي في مصابيح السنة .



فقالوا : هذا الابيض المتكبر ، فقال الرجل الاعرابي : يا ابن عبد المطلب ، فقال النبي الكريم : ( قد اجبتك ) .. فهذا الخبر <sup>(١)</sup> ، وأمثاله كثير ، يدل على انه عليه الصلاة والسلام لم يتميز على اصحابه بلباس معين ، ولكن لم يبق لباس العمامة زياً للمسلمين وإنما تبدل بأزياء اخرى اقتبسوها من الآخرين وقلدوهم فيها تقليداً ، إلا أن العلماء ظلوا على زيهم الاول - وان اختلفت اشكال العمامة - فهم اذن لم ينفردوا بزي وإنما بقوا على زيهم السابق ، ولكن تغيير لباس المسلمين لأزيائهم جعل زي العلماء الثابت متميزاً عليهم . وليس من بحثنا هنا بيان الزي الذي يجوز والزي الذي لا يجوز ، وإنما نريد ان نبين فقط ان العلماء لم يبتدعوا هذا الزي الذي هو عليهم اليوم وإنما هو لباس المسلمين الاولين جميعاً او هو شبيه به ، وليس من الواجب شرعاً ان يرتدي العمامة والجبّة كل عالم ، على ان هنالك رواية تشير ان القاضي ابا يوسف رحمه الله اول من خصص للعلماء زياً معيناً .

أما الفصل بين دوائر المحاكم الشرعية والمحاكم المدنية فلم تكن في الاسلام . ولا يجوز أن تبقى ما دامت تبشر بفصل الدين عن شؤون الدولة . فالمحاكم واحدة تحكم بالاسلام وحده ، كما ان الاسلام لا يقر كل دائرة تشعر بهذا الفصل .

لذلك كان في الاسلام فقهاء وعلماء ومجتهدون وليس فيه رجال دين بالمعنى المفهوم اليوم . ثم ان هؤلاء العلماء والفقهاء والمجتهدين مهمتهم في الحياة حمل الدعوة الاسلامية الى الناس ، وبيان أحكام الله في كل مشكلة وحادثة ، ومن واجبهم مناقشة الحكام ومحاسبة المسؤولين وإبداء النصيحة لهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا هو العمل السياسي لأن السياسة ، كما مر ( رعاية شؤون الناس ) ومنهم من تولى رئاسة الدولة واشترك في تولى

---

(١) رواه صاحب كتاب سراج الملوك .

المسؤولية في الحكم وهذا شيء اعتيادي يتفق مع طبيعة الاسلام، لأن الدولة تحكم بالاسلام، وتتولى شؤون الرعية على اساسه، بل من شروط الافضلية لرئيس الدولة الاسلامية ان يكون عالماً او مجتهداً.

وبعبارة اخرى إن العالم بالاسلام يقوم باداء العبادة ويعلمها كما يشتغل بامور السياسة، ويدعو الى التمسك بالاخلاق الاسلامية كما يدعو الى المحافظة وحسن تطبيق انظمة الاسلام سواء بسواء يحاسب الحكام ويناقش المسؤولين ويعظ الرجال ويهدي الاطفال. والعالم في الوقت الذي يكون فيه حليف محراب وأليف تقوى، يكون بطل جهاد وفارس ميدان، وحين نراه واعظاً ومدرساً في المسجد نراه خطيباً ومرشداً في مجلس الشورى، فيه الاستعداد الكامل ليكون جندياً وقائداً جامعاً بين الرحمة والشدّة، يفهم الحياة فهماً خاصاً يؤهله هذا الفهم المستنير أن يستولي على الدنيا بحقها وينال الآخرة بالسمي لها، وما ينطبق على العالم ينطبق على كل مسلم لأن مسؤولية الاسلام تقع على عاتق كل مسلم، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ( أنت على ثغرة من ثغرة الاسلام فلا يؤتين من قبلك <sup>(١)</sup> ). فالمسلمون أجمع مشتركون في المسؤولية وان كانت مسؤولية العلماء اعظم وارثق ويؤيد عموم مسؤولية المسلمين قول النبي الكريم ﷺ ( من اصبح - والخطاب عام - لا يتم للمسلمين فليس منهم <sup>(٢)</sup> ).

أما فيما يتعلق بالحاكم فقد ذكرنا نشوء السلطتين اللتين أصبحتا في اوروبا بعد ثورتها الفكرية، السلطة الروحية وهي بيد رجال الدين والسلطة الزمنية الدنيوية وهي بيد رجال الفكر.

---

(١) رواه الحاكم، فالرسول الكريم في هذا الحديث يشبه مسؤولية الاسلام كالسور الواحد الذي له ثغور وكل ثغرة يحرسها مسلم، فلا يمكن لمسلم أن يترك حراسة ثغرته ليحرسها مسلم آخر لأن الآخر له ثغرة يحرسها ايضاً.

(٢) رواه البيهقي في شعب الايمان ورواه الطبراني وابو نعيم.



واستمرت هاتان السلطتان في اتفاق وتكافل بينهما ، ولكن لم يمر عليها وقت طويل ، حتى ادعى رجال السلطة الروحية حقوقاً وانتحلوا لهم صفات وبمرور الزمن استطاعت هذه السلطة أن تجنّب الناس لها ، وتجمع حولها الجموع ، فهيات للأمر عدته ، وحسبت الحساب لكل طارئ ، فاتخذت لها جيوشاً واساطيل . وعند ذاك فرضت سلطانها وارادتها على السلطة الزمنية ، حتى أصبحت القيم والوصي عليها ، فلا يبرم امر إلا عن طريقها ولا ينفذ قول إلا إذا ارتضته واقرفته ، ولكن لما ضاق بعض الملوك ذرعاً بذلك فلم يتحملوا تصرفات تلك السلطة التي أخذت على أيديهم وشلت حركتهم وشاركتهم في الشؤون ، وتدخلت في كل الامور ، أعلن هؤلاء الملوك وهم على جانب عظيم من القوة ولا زالوا يتمتعون بسلطتهم ، أعلنوا المقاومة والثورة واستعملوا السلاح الحربي واطلقوا النيران ، وأخيراً تمكنت السلطة الزمنية من رفع يد تلك السلطة عنها بعد حروب طاحنة لم يشهد لها مثيل في ذلك القرن ولكن بقيت تحمل الولاء للكنيسة وتنازعها استقلالها حتى تم لها النصر الأخير بحدوث الوحدة الإيطالية ١٨٧٠ م ودخول جنودها الى المملكة البابوية .

فمثل هذه الاحداث الخطيرة لم تقع في بلاد المسلمين اثناء حكم الاسلام ، ولن يسمح الاسلام بوقوعها يوماً ما ، لأنها خلاف طبيعته ، لأنه ليست في سلطتان ، ولم يجعل الولاية على الأمة اسلامية من قبل سلطتين ، بل السلطة واحدة وهي تعني الحكم والسلطان وهي بيد الأمة وحدها قال تعالى ( وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم <sup>(١)</sup> ) . فإله تعالى استخلف عباده المسلمين على الحكم والسلطان وقال تعالى ( واقعد مكنكم في الأرض ) <sup>(٢)</sup> ، ( الذين ان مكنهم في

---

(١) الآية ٥٥ النور .

(٢) الآية ١٠ الاعراف .

الأرض<sup>(١)</sup> ، أي جعلنا لكم فيها الحكم ، وأعطيناكم السلطان ، والامة تنيب عنها رجلاً منها ليتولى الحكم ، وليطبق الشرع ، ولا تجب طاعته إلا في حدود الاسلام ، فليست لهذا الحاكم قداسة ، كما ليست له السيادة ، وانما القداسة لكتاب الله وسنة رسوله والسيادة للشرع الاسلامي وحده ، ( فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمون فيما شجر بينهم )<sup>(٢)</sup> ، ( وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم )<sup>(٣)</sup> أكمل هذه الآية الكريمة فقال ( فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر )<sup>(٤)</sup> ، فأين قداسة الحاكم المسلم وأين سيادته ومن حق الامة ان تنازعه اذا اختلفت معه على شئ ، وهذا أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ، يقول في خطابه الاول للمسلمين بعد ان يابعوه على الخلافة والحكم : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوتوني .. الى ان قال .. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ،<sup>(٥)</sup> .

وهذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يقول يوماً على منبره : أيها الناس من رأى منكم في أعوجاجاً فليقومه . فيجيبه أحدهم لو رأينا فيك أعوجاجاً لقومناه بحد سيفنا ، فلا يزيد ان يقول الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم أعوجاج عمر بسيفه ، فأما قداسة هذا الخليفة وأما سيادة هذا الأمير ، مع أنها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، والمسلمون والعالم كله يعرف من هو أبو بكر ومن هو عمر ..

ثم أن هناك فروقاً كثيرة بين منصب الخلافة الذي يتمتع به الحاكم المسلم وبين منصب البابوية الذي يتصف به البابا المسيحي.

(١) الآية ٤١ الحج .

(٢) الآية ٦٥ النساء .

(٣) الآية ٥٩ النساء .

(٤) ص ٢٤٥ ج ١ محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية . الحضري .

فالبابا ينتخبه الكرادلة وهم أرفع الرتب الكهنوتية في الديانة المسيحية الحالية ، وعددهم سبعون ، ويبقى البابا في منصبه حتى الموت . والخليفة رجل من المسلمين تنتخبه الأمة وتبايعه على تطبيق الشرع الاسلامي وتستطيع الأمة أن تنزع منه البيعة وتقضيه عن منصب الخلافة في حالة عجزه عن رعاية شؤونها ، او مخالفته للشرع وإساءته اليه .

والبابا بيده النقص والابرام ، وخليفة المسلمين ليست بيده هذه الأشياء ، بل يقول خليفة المسلمين عمر بن الخطاب : « وددت أن اخرج - أي من الدنيا - كما دخلت لا أجر ولا وزر » .

والبابا من اختصاصه تفسير الكتاب المقدس ، وله صلاحية وضع حد للتفكير فيه والاستنباط منه كما حدث في ( التكييفات الاسكولانية ) في الفائدة (الربا) التي قام بها (توماس من) ومن جاء بعده من رجال الكنيسة ، وليس لخليفة المسلمين هذا وانما له ان يستنبط الأحكام الشرعية لمعالجة المشاكل الواقعة وحل المشاكل القائمة ، على ان يكون ممن تتوفر فيه شروط الاجتهاد ، وله وحده ان يتبنى الاحكام الشرعية الاجتهادية لجعلها قانوناً ينفذ ، والخليفة 'يرد اذا أصدر أمراً فيه مخالفة لنص شرعي ، وليس على الأمة طاعته في هذه المخالفة ، لأن النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم قال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » <sup>(١)</sup> وقوله : « لا طاعة لمن عصى الله » .

وقد رد خليفة المسلمين وصحح فهمه ومن ذلك ان امرأة ردت سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في مسألة تحديد المهر ، وقلت عليه الآية الكريمة : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وأقيم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » <sup>(٢)</sup> . وقوله : « قنطاراً » يدل على اباحة التوسع في المهور فكيف

---

(١) رواه احمد والحاكم وابو داود .

(٢) آية ٢١ النساء .



يضع عمر حداً له ؟. هذا ما ردت به المرأة ، أما سيدنا عمر فإنه أجابها بقوله : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

تلك فروق جوهرية بين منصب الخلافة والكرسي البابوي والتاريخ في طبيعته يحفظ مكانة الخليفة وأعماله وخضوعه لحكم الشرع وتسليمه لأمر الاسلام ، كما يعرف البابا وقداسته .. وطاعته في كل أمر.... ولكن العداء للاسلام والصليبية الحاكمة لأمة المسلمين ، ولكن نهم . وجشع الكافر المستعمر وكيد ومكره ، استطاع أن يصور الحق الموجود بصورة الباطل المعلوم وبشعورته المشهورة قدر ان يقلب الحقائق بكل ما أوتي من قوة ، وان يثبت الفرية العظمى وان يدخلها في اذهان المضبوعين بثقافته ويجعلها عندهم كقضايا مسلم بها ولا تقبل المناقشة ، حتى وصل الحال بهؤلاء المضبوعين ان ينفروا من اسم الخليفة وتحمر وجوههم حنقاً من ذكر منصب الخلافة .

ولسنا الآن بصدد الرد على افتراءات المفترين فيما يدعون ، لأن قضية كون رئيس الدولة الاسلامية وهو خليفة المسلمين رئيساً سياسياً وكون الحاكم في الاسلام رجلاً من الأمة يخطئ ويصيب ، وليست له قداسة القديسين ولا طاعة البابويين ، قضية ثابتة مقطوع بها لا تقبل جدلاً ، ولا تكون موضع نقاش لأن كل من له إلمام بسيط بأحكام الاسلام يعرف ذلك ، وانما نحن بصدد الكلام على اصطلاح ( رجال الدين ) الذي شاع في الغرب وجاء به الجهال الى ديارنا تقليداً للغربيين ، وشجعه الكافر المستعمر دساً وخبثاً ، بقصد ابعاد العلماء عن الاشتغال في السياسة وشؤون الحكم ومراقبة الحكام ، مع أن هذه من أحكام الاسلام ، لا يمكن فصلها عنه بأي حال من الأحوال ، وان صلة العلم الشرعي بالحكم وثيقة ، إذ وجوده قائم على تطبيق احكام هذا العلم وصلة العالم بالحكم وثيقة ايضاً لا يمكن فصلها . فالحاكم يطبق الشرع ويرعاه بالتنفيذ وهذه سياسته والعالم يرعى الشرع بالتوضيح والبيان ومحاسب الحاكم على أساسه وهذه سياسته ، فالعالم العامل له القدح المعلى في توجيه

سياسة الحاكم ومراقبة تصرفاته ، أما ان كان العالم سلبياً غير ايجابي ، يتوقف عن بيان حكم الشرع في تصرفات الحاكم ويكتم ذلك ويتباعد عن خوض معترك الحياة فلا يبالي ان أعرض الحاكم في شرع الله ولا ينبس ببذات شفة ان أساء آخر أو أخذ (ثالث) الأمة بالشدة والجبروت والظلم الفظيع ، فمثل هذه الأحوال لا يرتضيها الاسلام لعلمائه وحمله شريعته وبالتالي عليه الاتم العظيم .

فالخلافة كما قال عنها فقهائنا رئاسة عامة في امور الدنيا اي لاقامة الحياة على نهج الاسلام . والخليفة يحرس الدين بتنفيذ احكامه ورعاية المسلمين على اساسه ويستمد سلطانه من مبايعة الأمة له ، وانايتهم اياه على كتاب الله وسنة رسوله فان خرج عن مقتضى هذه النيابة خرج عن مقتضى الخلافة وكان حقاً على الأمة عزله

فليس في الخلافة ما يخيف ولكن اعداء الاسلام صوروها على غير حقيقتها للتنفير عنها اولاً ، وعن الاسلام ثانياً ، مع ان من البديهي ان المسلمين لن يحبوا حياة كريمة تليق بمكانتهم وتحفظ كرامتهم ، بل لن يكون اسلام الأمة موجوداً وجوداً حقيقياً إلا إذا استظللتهم راية خلافة الاسلام ، وكان عليهم خليفة .

وقد تبين من هذا ان العلماء سياسيون والحكام سياسيون ، كل في مجال عمله ونوعية واجبه ، الذي فرضه الله تعالى عليه ، وان مفهوم رجل الدين صفة لا تنطبق على واقع العالم المسلم وان الخليفة او حاكم المسلمين ليس بابا ولا قديساً .

## العلماء

الناس بسلا علماء هم جهال ، تتخطفهم شياطين الانس والجن ، من كل حذب وصوب وتعصف بهم الضلالات والاهواء من كل جانب .

ومن هنا كان العلماء ، من نعم الله تعالى على اهل الأرض ، فهم مصابيح الدجى ، وأئمة الهدى ، وحيجة الله في أرضه ، بهم تحقق الضلالة من الأفكار وتنقشع غيوم الشك من القلوب والنفوس ، فهم غيظ الشيطان وركيزة الايمان ، وقوام الأمة ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء ، يهتدي بهم في ظلمات الحياة في البر والبحر ، اذا انطمست النجوم واذا اسفر عنها الظلام أبصروا .

قال رسول الله ﷺ ( ان مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدي بها في ظلمات البر والبحر فاذا طمست النجوم أوشك أن تضل الهداة ) (١) .

وهم ورثة الانبياء قال عليه الصلاة والسلام ( .. وان العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الارض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ان العلماء ورثة الانبياء ) (٢) وقال عليه السلام حينما ذكر له رجلان احدهما عابد والآخر عالم ( فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم ان الله وملائكته واهل السموات والارض وحق النملة في جحرها وحق الحوت في الماء ليصلون على معلم الناس الخير ) (٣) .

كل هذا الفضل للعلماء العاملين ، الجريئين في الحق ، المحبين للخير الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر المحاسبين للحكام الناصحين لهم ، والساهرين على مصالح المسلمين المهتمين بأمور الامة المتحملين كل أذى ومشقة في هذا السبيل .

نعم كل ذاك الاكرام ، للعلماء الذين يحرسون الاسلام ، الامناء على دين الله الداعين للحكام الى تطبيقه ، بلسان صدق ، وجنان ثابت ، الذين اتصفوا

---

(١) رواه الامام احمد .

(٢) رواه ابو داود والترمذي .

(٣) رواه الترمذي .



بخلق المرسلين ، فكانت أعمالهم ترجحاً لتعاليم القرآن والسنة ، يقولون للظالمين ظلمتم ، وللمفسدين أفسدتم ، وللعاصين لقد عصيتم الله ، يصلحون ما فسد ، ويقومون ما اعوج ، لا يخشون أحداً من الناس ، ولا يخافون لومة لائم ، يقولون للناس أجمع - حكماً ومحكومين - تعالوا من هنا الدرب ، درب الاسلام ، طريق السلامة والنجاة صراط الله العزيز الحميد .

لا يهابون سلطاناً جائراً ، ولا حاكماً جباراً ، لأنهم آمنوا بقول رسولهم ونبيهم سيدنا محمد ﷺ ، الذي رواه السبط الجليل الامام الحسين بن علي رضي الله عنهما ( من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ، فاكثأ لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير بقول ولا فعل كان حقاً على الله ان يدخله مدخله (١) ) .

ولا يسكتون عن حق وجب اذاعته ، ولا يكتمون حكماً شرعياً في قضية او مشكلة سواء تعلقت بشؤون الأمة ام بعلاقات الدولة أم بتصرفات حاكم من الحكام ، لأنهم آمنوا بقول الله تعالى ( ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون (٢) ) الى قوله : ( وإذا أخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه (٣) ) وقواه عليه الصلاة والسلام : ( الساكت عن الحق شيطان أخرس ) .

ذلكم هم العلماء الذين استحقوا هذه التسمية المباركة ، كما وصفهم الاسلام ، وكما ارادهم الله لخدمة كتابه ودينه ، وكما ارتضاهم رسول الله ليكونوا ورثته في تبليغ رسالته الى الناس .

---

(١) رواه الطبري في التاريخ وابن الاثير في الكامل وغيرهما .

(٢) سورة البقرة .

(٣) سورة آل عمران .

وسيشاهد القارئ الكريم ، في الفصول التالية هذه الصفات الكريمة متمثلة في أقوال العلماء أنفسهم ومجسدة في مواقفهم مع الحكام الصالحين منهم والظالمين وعندذاك سيدرك عملياً فضل العلماء على العابدين بل على الناس أجمعين .

## الحكام وآيات الحكم

قال تعالى ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون <sup>(١)</sup> ) وقال :  
( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون <sup>(٢)</sup> ) وقال : ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون <sup>(٣)</sup> ) .

هذه الآيات الكريمة نزلت في حق الكفار ، ولم تنزل في حق المسلمين ، إلا أنه لما جاء لفظ ( من ) عاماً وهو من ألفاظ العموم ، ثم ان خواتيم الآيات أفادت العموم ، فان ذلك يدل على انه يدخل فيها المسلمون ايضاً ، عملاً بالعموم الوارد في هذه الآيات .

والحاكم المسلم اذا حكم بغير ما أنزل الله لا يكفر ، إلا اذا اعتقد به ، والذي يدل على أن الاعتقاد بغير ما أنزل الله هو الذي يجعل الحاكم كافراً لا مجرد الحكم قرائن كثيرة :

١ - إن الآيات الثلاث نزلت في حادثة واحدة ، فكون الله تعالى وصف حال من لم يحكم بما أنزل الله بقوله ( فاسقون ) و ( ظالمون ) قرينة واضحة تدل على أن وصفه لمن لم يحكم بما أنزل الله حين قال ( كافرون ) يراد منه ومن يعتقد ، اذ الموضوع واحد وهو الحكم بغير ما أنزل الله ، والموصوف متعدد

---

(١) الآية ٤٤ المائدة .

(٢) الآية ٥٥ المائدة .

(٣) الآية ٥٧ المائدة .

بثلاث وهو الكفر والظلم والفسق ، لذا كان لكل وصف من هذه الاوصاف  
الثلاثة حالة تحصل في موضوع الحكم .

فالاعتقاد حالة اذا وجدت مع الحكم بغير ما أنزل الله كان الحاكم كافراً او  
اذا لم يوجد الاعتقاد انعدمت صفة الكفر عنه ، وانطبقت عليه صفة الظلم  
والفسق ، فاذا حكم بغير ما أنزل الله ولم يعتقد به ولكنه لم يعط الحق حقه  
كان فاسقاً وظالماً ، فاسقاً لارتكابه معصية لأنه حكم بغير ما أنزل الله وظالماً  
لأنه ظلم صاحب الحق ، او بعبارة أخرى يكون كافراً إن أنكر ما أنزل  
الله اعتقاداً ويكون ظالماً لأنه حكم بخلاف ما أنزل الله وفاسقاً لأنه خرج عن  
ما أنزل الله ، لذا كان تعدد الموصوف لموضوع واحد قرينة دلت على أن قوله  
( كافرون ) يراد منه الجاحدون اعتقاداً ، ومثله قول الرسول الاعظم ﷺ  
في تارك الصلاة ( ومن تركها فقد كفر ) فتارك الصلاة لا يكفر إلا إذا  
تركها غير معتقد بوجوبها .

٢ - ان الآيات الثلاث نزلت في اليهود وهم كفار ، والتقسيم يكون على من  
كان مثلهم ، وحين الرجوع الى سبب النزول نجد انها نزلت حين رد اليهود  
حكم الله في رجم الزاني المحصن ، وأبدلوه بالجلد ، لذا كانوا كفاراً حيث ان  
حالهم فيه أمران : احدهما رد ما أنزل الله عليهم لأنهم يرونه غير صالح .  
وثانيها حكمهم بخلافه ولذلك كان الرد لما أنزل الله هو الشرط الاساسي في  
اعتبارهم كافرين اذا حكموا بغير ما أنزل الله .

٣ - ان الحكم فعل وليس اعتقاداً ، والفعل ان كان مخالفاً لما أمر الله به  
كان معصية ، ولم يكن كفراً ، إلا اذا كان الفعل ذاته كفراً وذلك ان الفعل  
اما ان يكون مخالفاً لما أمر الله به من الاحكام ، او مخالفاً لما أمر الله به من  
الاعتقاد ، فان كان مخالفاً لما أمر الله به من الاحكام كان معصية ولا يكون  
كفراً ، إلا اذا جاء نص قطعي الدلالة قطعي الثبوت على انه كفر ، فطاعة



الوالدين قد أمرنا بالقيام بها ، ولا يتضمن الامر أمراً بالاعتقاد ، ولهذا كانت عاق الوالدين عاصياً وليس بكافر ، بخلاف فعل السجود لله ، فإنه قد أمرنا به على سبيل الاعتقاد ، وأمرنا بالعمل به تبعاً لذلك الاعتقاد ، لأن اصل العقيدة الاسلامية ان لا معبود إلا الله ، ومن هنا كان القيام بالسجود لغير الله كفراً ، فمخالفة أوامر الله لا تكون كفراً ، إلا اذا كانت مصحوبة بالاعتقاد ، أي بعدم الاعتقاد بها او هدم صلاحيتها ، فالشرع أمرنا بالاعتقاد وأمرنا بالعمل ، ويختلف حكم الامر بالاعتقاد عن حكم الامر بالعمل ، ولما كان الحكم بغير ما أنزل الله مخالفاً لأمر العمل وليس مخالفاً لامر الاعتقاد كان ترك ما أنزل الله معصية ، ولم يكن كفراً. على ان واقع الحكم بغير ما أنزل الله ليس عمل كفر وذلك لسببين ، احدهما ، ان الشرع لم يقل عنه انه كفر ، ولذلك لا يعتبر عمل كفر ، ويؤيد هذا ان بعض الخلفاء المسلمين حين أخذوا البيعة لأولادهم في حياتهم بالاكراه على مرأى ومسمع من بعض الصحابة وجملة العلماء وهو حكم بغير ما أنزل الله ، ولا نعلم احداً قال عن هؤلاء أنهم قد كفروا ، والسبب الثاني هو ان الحكم بغير ما أنزل الله ليس فرعاً عن العقيدة الاسلامية كالسجود للصنم والصلاة او الصلاة مع النصارى ، ولذلك لم يكن عمل كفر وانما هو نوع من مخالفة أمر الله ، وليس نوعاً مما أمرنا الله بالاعتقاد به

فلو أن حاكماً حابى احداً وهو سارق فحكم عليه بالسجن دون قطع اليد فهذا عاص أو ظالم وليس بكافر بخلاف ما لو حكم عليه بالسجن دون القطع راداً حكم القطع معتقداً خطأ قطع اليد وصواب الحكم بالسجن فهذا كافر بلا شك فكلا الحكامين حكم بغير ما أنزل الله وكلا الحاكمين حكما بغير ما أنزل الله ولكن قد فرق بينهما، فكان احدهما عاصياً ظالماً والآخر كافراً، والتفريق بينهما انما جاء بالاعتقاد ، فلو ان الحكم بغير ما أنزل الله عمل كفر لكان حكمها واحداً!؟

لهذا وغيره فإن معنى الآية يكون ومن لم يحكم بما أنزل الله راداً له كما فعل اليهود الذين نزلت بحقهم هذه الآية ، حين حكموا بغير ما أنزل الله عليهم

رادّين ما أنزل الله غير معتقدين بصلاحه لهم ، فهم كفار ، ومفهوم المخالفة ، أن من حكم بغير ما أنزل الله غير راد له فليس بكافر .

وهذا الرأي في فهم الآية هو رأي كبار المفسرين ، قال الطبري في تفسيره ( حدثني المثني قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنها قوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » قال من جحد ما أنزل الله فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق ، ثم قال ( فإن قال قائل فإن الله تعالى ذكره قد عم بالخبر بذلك عن جميع من لم يحكم بما أنزل الله فكيف جعلته خاصاً ، قيل ان الله تعالى عم بالخبر بذلك عن قوم كانوا يحكم الله الذي حكم بكتابه جاحدين فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون وكذلك القول عن كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به هو بالله كافر ، كما قال ابن عباس رضي الله عنه ، لأنه يجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي ) .

وقال القرطبي في تفسيره ما نصه ( قوله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، الظالمون ، الفاسقون ، نزلت كلها في الكفار ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء وقد تقدم وعلى هذا المعظم ، اما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة ، وقيل فيه إضمار أي من لم يحكم بما أنزل الله راداً للقرآن وجحوداً للرسول الكريم فهو كافر ، قال ابن عباس رضي عنها ومجاهد ، فالآية عامة على هذا قال ابن مسعود والحسن وهي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار ، أي معتقداً ذلك ومستعلاً له ، فأما من فعل ذلك وهو غير معتقد أنه ارتكب محرماً فهو من فساق المسلمين وأمره الى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، قال ابن عباس رضي الله عنها ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلاً يضاهي أفعال الكفر ) .

وقال الرازي في تفسيره ما نصه ( قال عكرمة قوله ومن لم يحكم بما أنزل الله إنما يتناول من أنكر بقلبه وجعده بلسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله إلا إن أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله تعالى ولكنه تارك له فعلا فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية وهذا هو الجواب الصحيح والله أعلم ) (١) .

وقال البيضاوي ( ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به منكراً له فأولئك هم الكافرون لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره ولذلك وصفهم بقوله الكافرون الظالمون الفاسقون فكفرهم لانكاره وظلمهم بالحكم على خلافه وفسقهم بالخروج عنه ) (٢) .

وجملة القول أن كل حاكم حكم بغير ما أنزل الله ولم يعتقد بأحكام الكفر مؤولاً حكمه هذا فإنه مسلم ظالم فاسق قد ارتكب معصية ، أما من حكم بغير ما أنزل الله معتقداً الصلاح بما يحكم هو بما يسن من قوانين وأنظمة وإن ما أنزل الله من أحكام لاصلاح فيها فهو كافر بلا شك .

## الحكام

إنما الامام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به

— حديث شريف —

وجود الحكام للناس أمر لازم لهم ، لزوم الماء للحياة ، إذ لاسعادة للبشر الا بهم . ولا عدلاً قائماً ، ولا حقاً ظاهراً إلا بسلطان الحكام ، فالناس فوضى بدونهم ، ولن يصلح الناس فوضى ، لا تقام فيهم احكام الشرع ، ولا تطبق عليهم حدود الاسلام ولا تنفذ انظمتهم ولا يأمن الناس على حياتهم ولا تحقق رفاهية ، ولا يدفع عدو طامع مع هذه الفوضى ، ولقد عبر سيدنا

---

(١) ص ٤١٠ ج ٣ تفسير الرازي .

(٢) ص ١٢٥ تفسير البيضاوي .



الرسول الكريم ﷺ عن ذلك بقوله الجامع (انما الامام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به ) (١) .

ومن اجل ذلك بوأ الله تعالى للحكام مكاناً علياً ، وأنزلهم منازل كريمة ، فكانوا ظل الله في الارض ، وأحبابه يوم القيامة ، قال النبي ﷺ ( ان احب الناس الى الله يوم القيامة وادناهم منه مجلساً امام عادل ، وابغض الناس الى الله يوم القيامة وأبعدهم منه مجلساً امام جائر ) (٢) وقوله ( سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله امام عادل ) (٣) .

ذلك هم الحكام الذي يستحقون هذه المنازل ، وينعمون بذلك النعم المقيم ، وهم الذين وصفهم الامام العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه والامام التقي علي بن ابي طالب رضي الله عنه والعالم الصالح الحسن البصري وقاضي القضاة ابو يوسف بأوصاف خاصة .

أما عمر فيقول من كتاب له الى عامله ابي موسى الاشعري : ( أما بعد فان اسعد الولاة من سعدت به رعيته وان اشقى الولاة من شقيت به رعيته واياك والتبسط ، فان عمالك يقتدون بك وانما مثلك مثل الدابة رأت مرعى نخضراً فأكلت كثيراً حتى سمئت فكان سمنها سبب هلاكها لأنها بذلك السمن تذبح وتؤكل ) .

وقوله في كتاب وجهه الى عموم ولاته : دايها الناس ان الله عظيم حقه فوق حق خلقه فقال فيما عظم من حقه (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين ارباباً أيامركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون ) (٤) الا واني ابعثكم امراء لا

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) الآية ٨٠ آل عمران .

جبارين ولكن بعثكم أئمة الهدى ، يهتدى بكم فردوا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلّوهم ولا تحمدوهم فتفتنّوهم ولا تغلقوا الابواب دونهم فيأكل قوتهم ضعيفهم ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم ، <sup>(١)</sup> .

أما علي فيقول من كتاب الى واليه على مصر مالك بن الاشتر النخعي :  
« اعلم يا مالك اني وجهتك الى بلاد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور ،  
وان الناس ينظرون من امورك في مثل ما كنت تنظر فيه من امور الولاة  
قبلك ، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ، وانما يستدل على الصالحين بما  
يجري الله على ألسن عباده ، فليكن احب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح  
واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللاطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا  
ضاريا تغتم اكلهم ، فانهم صنفان إما اخ لك في الدين او نظير لك في الخلق ،  
يفرط منهم الزلل وتعرض عليهم العلل ، ويؤتى على ايديهم في العمد والخطأ ،  
فأعظم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب ان يعطيك الله من عفوه وصفحه  
فانك فوقهم ووالي الامر عليك فوقك والله فوق من ولاك ، » .

وإياك ومساماة <sup>(٢)</sup> الله في عظمته ، والتشبه به في جبروته فان الله يذل  
كل جبار ويهين كل مختال .

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه  
هوى <sup>(٣)</sup> من رعبتك ، فان لا تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه  
دون عباده ، ومن خصمه الله أدحض حجته ، وكان لله حرباً حق ينزع او  
يتوب ، وليس شيء أدعى الى تغير نعمة الله وتمجيل نقمته من اقامة على ظلم  
فان الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد .

---

(١) الخراج لأبي يوسف .

(٢) المساماة : المباراة من السمو والعلو .

(٣) الهوى : الميل .

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الامة ، واجتمعت بها الالفه  
وصلحت عليها الرعية ولا تحدث سنة تضر بشيء من مضي تلك السن فيكون  
الاجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضت منها .

وليكن أحب الامور اليك أوسطها في الحق وأعقها في العدل وأجمعها  
لرضا الرعية (١) أما الحسن البصري فيقول مجيباً حين سأله أمير المؤمنين  
عمر بن عبد العزيز ان يصف له الامام العادل ( ان الله جعل الامام العادل  
قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ،  
ونصفه كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف وهو القائم بين الله وبين عباده . يسمع  
كلام الله ويسمعهم وينظر الى الله ويرىهم ، وينقاد الى الله ويقودهم ، وهو  
كالعبد الذي ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، وهو الذي لا يحكم في  
عباد الله بحكم الجاهلية ، ولا يسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا يسلط المستكبرين  
على المستضعفين ، فهو وصي اليتامى ، وخازن المساكين يربي صغيرهم ويمون  
كبيرهم (٢) .

أما قاضي القضاة أبو يوسف . فيقول في مقدمة كتابه الخراج الذي وجهه  
الى أمير المؤمنين هارون الرشيد : ( .. وإن الله بمنه ورحمته وعفوه جعل  
ولاية الامر خلفاء في أرضه ، وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم عليهم من  
الأمور ، فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم وإضاءة نور ولاية الامر  
إقامة الحدود ورد الحقوق الى أهلها بالتثبت والأمر البين وإحياء السنن التي  
سنها القوم الصالحون أعظم موقعاً ، فان احياء السنن من الخير الذي يحيا  
ولا يموت ، وجور الراعي هلاك الرعية ، واستعانتة لغير أهل الثقة والخير  
هلاك العامة ) .

---

(١) ص ٩٤ و ٩٥ ج ٣ نهج البلاغة .

(٢) ص ٣٧ ج ٦ نهاية الارب ، والعقد الفريد ٣٩/١ .

تلك صفات عامة جاءت على السنة حاكين عدلين وعالمين صالحين ، ينبغي للحكام أن يتصفوا بها ، اثناء حكمهم للأمة الاسلامية ، ورعايتهم لها ، من اجل احسان تطبيق الاسلام ، ولتعيش الامة في حياة ، ملؤها العدل والانصاف ، والشعور بالاطمئنان النفسي والاستقرار الفكري .

أما الصفات الواجبة والمفروضة للحكام حتى يصح بها حكمهم شرعاً ، وتنفذ بها البيعة الصحيحة لخلافتهم الاسلامية ، وهي ما عبر عنها علماء الشريعة الاسلامية بشروط الخلافة ، فهي :

١ - أن يكون الحكام مسلمين ، فلا يصح أن يكون على المسلمين حاكماً غير مسلم ، وبالتالي لا تجب طاعته ، ولا ينفذ أمره ، لأن الله تعالى يقول : ( ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً <sup>(١)</sup> ) وتولى الحكم هو أعظم السبل للحكام على المحكوم ، ولقوله تعالى ( وأولى الأمر منكم ) أي من المسلمين .

٢ - أن يكون الحكام رجالاً ، فلا يصح أن يكونوا من النساء لقوله ﷺ ( لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة <sup>(٢)</sup> ) ونفى الفلاح عن يرضون بحكم المرأة ، نفى جازم وتحريم قاطع لورود ( لن ) التي هي من صيغ النفي التأييدي - ومن المعلوم أن سيدنا الرسول ﷺ نطق بهذا حين سمع ابن بوران بنت كسرى قد تولت الحكم بعد أبيها . وهذا مما يعين أن النفي الجازم والتعريم القاطع هو لتولي المرأة الحكم .

٣ - أن يكون الحكام ممن بلغوا الحلم ، فلا يصح أن يكونوا دون ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم : « تعوذوا من أماراة الصبيان » <sup>(٣)</sup> ( رفع القلم عن

---

(١) الآية ١٤١ النساء .

(٢) رواه البخاري واحد والنسائي والترمذي .

(٣) رواه ابو داود .



النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يبلغ وعن المجنون حتى يفيق (١) ومن رفع الله عنه التكليف والمحاسبة ومن كان لا يصح تعرقه إلا بأمر وليه الذي يرعاه فأنى يكون حاكماً يتعرف بأمور الأمة ويرعى شؤونها وهو من أعظم التكاليف الشرعية التي يوجب عليها المحاسبة من قبل الله في الآخرة ومن قبل الأمة في الدنيا ان قصر فيها .

٤ - ان يكون الحكماء من العقلاء ، فلا يصح ان يكونوا مجانين او معتمومين ، لرفع القلم والتكليف عنهم كما مر في الحديث السابق ، ثم ان العقل مناط التكليف الشرعي ، ومن زال عقله سقط عنه وجوب التكليف ، وتولي الحكم من أكبر التكاليف الشرعية وأعظمها كما لا يخفى .

٥ - ان يكون الحكماء عدولاً ، فلا يكونوا فسقة ، والفاسق هو الخارج عن طاعة الله جزئياً او كلياً ، ثم ان الاسلام اشترط العدل في قبول شهادة الشاهد ، واشهدوا ذوي عدل منكم ، (٢) ، ومن كانوا أعظم من الشهود وهم الحكماء أولى بالعدل . لذا يكونون من ذوي السيرة الحسنة والاخلاق الكريمة قال عليه السلام : « انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » ، (٣) .

٦ - ان يكون الحكماء احراراً غير عبيد ، لأن العبيد ملك لأسيادهم فلا يملكون التصرف بأنفسهم ومن كان هذا حالهم فلا يملكون ولاية على الأمة .

ومن فضل الله تعالى وخير الاسلام ان هذا الصنف من البشر قد زال وغير موجود بالحقيقة ، لتحرير الاسلام لهم ولسده الباب عن يأتي بعدهم إلا بالمعاملة بالمثل فان استعبد منا العدو استعبدنا منه وإلا فلا ... قال تعالى : « إما منا بعد وإما فداء » ، (٤) .

---

(١) رواه احمد والحاكم والترمذي .

(٢) الآية ٢ سورة الطلاق .

(٣) رواه البخاري والبيهقي .

(٤) الآية ٤ سورة محمد (ص) .

تلك هي الصفات المفروضة في كل من يتولى أمر المسلمين ويصبح حاكماً عليهم ، نائباً عنهم في تنفيذ اسلامهم عقيدة ونظاماً ، وهي التي عبر عنها فقهاؤنا بشروط انعقاد الخلافة للحاكم .

وهناك صفات او شروط أفضلية فصلها العلماء وذكرها أدلتها منها ان يكونوا من العرب او من قريش ، وأن يكونوا ممن لهم العلم والمعرفة بالشريعة الاسلامية التي وجدوا من أجل تطبيقها . سواء أكانوا مجتهدين او متبعين لحكم شرعي لمجتهد آخر اقتنعوا بصحته لانطباقه على أدلة الشرع المعتبرة ، وان يكونوا شجعاناً ومن ذوي الآراء المستنيرة والبصيرة الوقادة .

تلك أهم صفات او شروط الافضلية التي وردت بها السنة والآثار على سبيل الافضلية لتولي الحاكم الحكم .

ومن هذا يتضح ان المطلوب شرعاً - والمفروض - دينياً - ان يتصف الحاكم بصفات الانعقاد الستة التي اشرنا اليها حتى يصح توليته لأمر الامة الاسلامية .

لذلك ان تعدد المرشحين للخلافة المتصفون بصفات الانعقاد لمنصب الخلافة والحكم فللأمة أن تختار من اتصف بصفات الافضلية اتباعاً للأفضل .

ومن الجدير بالذكر هنا أن الحاكم واحد على الامة الاسلامية - ومنها الشعب العربي - وفي البلاد الاسلامية - ومنها العربية - ولحكم الاسلام .

وهذه الوحدة في الحاكم وفي الامة وفي البلاد ولحكم الاسلام ثابتة بشكل قطعي . ويظهر ذلك من أحاديث سيدنا الرسول الاعظم ومن اجماع الصحابة الكرام ومن واقع المسلمين في العصر الاسلامي الزاهر الذي هو خير القرون .

فسيدنا الرسول ﷺ يقول ( ومن بايع اماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه

فليعطه ان استطاع فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر ( ١ )

ويقول : ( اذا بويح لخليفتين فاقتلوا الآخر منها ) ( ٢ ) وقتاله واجب  
إن كان لا يندفع إلا بالقتل .

أما اجماع الصحابة وهو من أدلة الشرع المعتبرة لان اجماعهم يكشف عن  
دليل شرعي فانهم رضوان الله عليهم أجمعوا على وحدة الحاكم او الخليفة مثل  
اجماعهم على وجوب وجوده . لذلك لا يجوز ان يكون للمسلمين اكثر من  
حاكم واحد ، كما لا يجوز ان تكون لدى المسلمين دول اسلامية متعددة ، بل  
الدولة الاسلامية واحدة ، وحاكم المسلمين واحد . كما كان عند المسلمين في  
عصورهم الاولى والتي اتبعتها باحسان .

ثم ان هذا البيان لصفات الحاكم ووحدة ساقنا الى جواب لسؤال متوقع  
في الذهن ، لا بد من ذكره . ولاننا لسنا من اولئك الذين يدعون الى  
الاسلام بشكل مفتوح وبطريقة غامضة ، لذا فانه لا بد من اجابة لهذا  
السؤال المتوقع ، بشكل واضح مفهوم بحيث يضع القارئ الكريم اصبعه  
عليه - كما قيل - .

كيف يتم نصب هذا الحاكم ؟ وكيف يوجد اليوم ؟ .

ان نصب حاكم المسلمين يتم بالبيعة ( ٣ ) له .

---

( ١ ) رواه مسلم .

( ٢ ) رواه مسلم .

( ٣ ) والبيعة عهد من قبل الحاكم على تطبيق الاسلام ، ورعاية شؤون الامة على اساسه والبيعة من قبل  
الامة ، طاعة هذا الحاكم في غير معصية ، وتنفيذ امره فيما لا يخالف الاسلام واساس ذلك قول  
سيدنا الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم ( على المرء المسلم السمع والطاعة فيما احب وكره ، الا  
ان يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة ) رواه البخاري ومسلم : انظر تفصيل  
هذا في ص ٢٠٩ مقدمة ابن خلدون .

البيعة فرض على كل المسلمين رجالاً ونساء من البالغين ، لان الحاكم نائب عنهم في تولي الحكم والسلطان .

وهذه البيعة ثابتة بأدلة الشرع المعتبرة ، ومن بيعة الرسول الكريم، ومن أمره ﷺ لنا ببيعة الامام ، ومن المعلوم ان بيعة سيدنا الرسول الكريم لم تكن بيعة على النبوة ، لان النبوة تطلب ايماناً لا بيعة ، وانما البيعة تكون على الحكم والتنفيذ لا على الايمان والتصديق ، ولما كانت كذلك ، لذا نجد سيدنا الرسول الكريم ينيب عنه في تولي الحكم بالمدينة المنورة وهي عاصمة الدولة الاسلامية ، حين غيابه عنها ، فلو كانت بيعة على النبوة لما جازت هذه النيابة ، يقول عبادة بن الصامت الصحابي الجليل ( بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكروه ... الحديث ) (١) وقوله عليه الصلاة والسلام : ( ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم رجل على فضل ماء بالطريق يمنع منه ابن السبيل ، ورجل بايع اماماً لا يبايعه إلا لدنياه ان اعطاه ما يريد وفي له وإلا لم يف له ... الحديث ) (٢) .

وقوله سبحانه وتعالى ( يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبایعنك على ان لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك في معروف ) (٣) فأخبر عنهن أنهم مؤمنات وبين البيعة بطاعتهن له ان لا يعصينه في معروف .

فالبيعة بيد المسلمين، وهي من الحقوق الشرعية التي منحهم اياها الاسلام، وببيعتهم ينمقد الحكم للحاكم او الخلافة للخليفة، لان الحاكم — كما قلنا — نائب عنهم في تولي الحكم والسلطان .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري .

(٣) سورة المتعنة .



اما طريقة اعطاء البيعة فانها تصح بكل وسيلة من الوسائل التي تحقق مفهوم البيعة كالمصافحة او الكتابة او النطق بها فردياً وجماعياً وغير ذلك .

إلا ان هذه البيعة ليست شرطاً ان يباشرها كل المسلمين وان كانت من حقهم جميعاً لانها فرض كفاية ، وفرض الكفاية اذا أتمه البعض سقط عن الباقي ، ولكن الشرط الاساسي فيها ان يمكن جميع المسلمين من هذه البيعة وان تنال رضاهم ، وهذا الرضا ان لم يكن اجماعياً يكون جماعياً ، فاذا عبر عنه اهل الحق والعقد حسب التعبير الفقهي وهم الذين يمثلون المسلمين او عبر عنه بمجلس الشورى المنتخب او المسلمين انفسهم صح كل ذلك .

اما طريقة قيام البيعة ، فان الدارس لطريقة نصب الخلفاء الراشدين التي سكت عنها جميع الصحابة وأقروها ، مع أنها من ألزم الامور واعظم الواجبات لانها يتوقف عليها كيان المسلمين واستمرار حكم الاسلام ، يصل هذا الدارس الى ان الخليفة المراد نصبه ، قد تناقشوا عليه قبل البيعة .

وحين يستقر الرأي على اشخاص ، يعرض هؤلاء على المسلمين ليختاروا رجلاً منهم ثم تكون البيعة ، لذلك كان الحكم الشرعي في ذلك بما هو آت :

ان الذين يمثلون الامة من اهل الحل والعقد ، او مجلس الشورى ، يتناقشون بمن يصلح للخلافة ، والحكم وترفض فيه شروطها ، ثم يحضرون المرشحين لها حيث ان الصحابة الكرام طلبوا من سيدنا عمر بن الخطاب ان يستخلف فاستخلف الستة المشهورين ، وهذا بمثابة حصر ، وقد رضي الصحابة بهذا الفعل فكان اجماعاً والاجماع من الادلة الشرعية المعتبرة وبعد الحصر يطلب من الامة ان تختار احدهم ، ومن ينال اكثرية الاصوات يصبح خليفة او حاكماً ثم تؤخذ له البيعة ويتحقق هذا بكل الاساليب التي تضمن الرضا والاختيار ، كأساليب الانتخابات المعروفة .

هذه هي الطريقة الشرعية في نصب الخليفة او ايجاد الحاكم الذي يتولى

امر المسلمين ، ويكون ذلك في حالة موته او عزله ، ويراد ايجاد شخص مكانه ، ويكون ذلك في دولة اسلامية قائمة .

وبهذا تم الجواب على السؤال الأول واعتقد بذلك كفاية لمن اراد العلم والمعرفة ، أما لمن يريد التفاصيل فعليه بكتب الفقه التي تعرضت لهذا الموضوع . ومن ذلك الاحكام السلطانية للماوردي او لأبي يعلى .

أما اذا لم يكن هذا الواقع موجوداً ، أي لم تكن هنا دولة اسلامية فلم تكن خلافة كما هي الحال منذ زوال الخلافة الاسلامية سنة ١٣٤٣ هـ و١٩٢٤م حتى يومنا هذا ، فان جميع الاقطار الاسلامية خصوصاً منها العربية ، فيها القابلية الكاملة والاهلية التامة ، لإيجاد هذه الدولة وإقامة هذا الخليفة على شرط ان تتوفر في هذه الاقطار هذه الامور :

١ - ان يكون القطر متحرراً من كل سيطرة أجنبية كافرة .

٢ - ان تكون حماية هذا القطر في الداخل والخارج تستند على قوة المسلمين .

٣ - ان يباشر الرئيس الأعلى لهذا القطر بتنفيذ الاسلام عقيدة ونظاماً وأن يستعد لحمل الدعوة اليه .

٤ - أن يكون هذا الرئيس ممن تتوفر فيه على الاقل صفات انعقاد الخلافة التي مر ذكرها ومتى توفرت هذه الامور بايع اهل القطر هذا الرئيس بيعة قائمة على الرضا به على اقل تقدير والافضل أن يعلن للأمة مستفتياً اياها فيمن تريد عليها خليفة ، واذا تمت له البيعة ، وجد الحاكم والخليفة وقامت الدولة الاسلامية ، وعند ذاك يصبح فرضاً على مسلمي الدنيا الانضواء تحت راية الدولة وطاعة رئيسها الخليفة والا كانوا آثمين عند الله تعالى .

أما إذا بويع لخليفة آخر في قطر آخر او في بلد من قطر ذلك الخليفة المبايع اولاً ، وجب على المسلمين أن يعلنوا تمسكهم بالاول ورفض ما سواه ،

وان أبا قوتلوا وحوربوا لصريح قول سيدنا الرسول الاعظم ﷺ ( إذا بوسع الخليفين فاقتلوا الآخر منها ) وقوله ( .. فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر ) وقد مر الحديثان .

وبهذا حصل الجواب للسؤال الثاني .

وعليه فقد اصبح فرضاً على المسلمين أن يقيموا هذا الحاكم ويوجدوا هذا الخليفة اليوم لتكون دولتهم اسلامية والا كانوا آثمين ، فوق كون ان حياتهم لا تستقر ، وأوضاعهم لا تصحح ، ونفسياتهم لا تطمئن ، ولن يكون الفلاح والنجاح والسعادة نصيبهم في هذه الدنيا ، مهما ابتدعوا من أنظمة حكم ، واستوردوا من قوانين ، إلا بالرجوع الى الاسلام ، واقامة حاكم وهو الخليفة يطبق عليهم شرع الله ...

### صلاح الصنفين من الناس

نعم صلاح الناس بصلاح العلماء والحكام ، وفسادهم بفساد علمائهم وحكامهم ذلك ما نطق به الصادق المصدوق سيدنا محمد ﷺ ( صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسادا فسد الناس : العلماء والامراء )<sup>(١)</sup> وهذا ما اثبتته انواق العملي في كل عصر وفي كل مصر .

الناس فئتان ، فئة تتبع العلماء ، متأثرة بتوجيههم ، ومقتفية اثرهم في الطاعة والانقياد لله والرسول ، سائرة على نهجهم بالتقيد باحكام الاسلام ، عاملة معهم في محاربة الكفر والمنكر ، وكل ما لا يمت الى الاسلام بصلة ، مؤيدة اياهم في كل خير ونفع يعود للامة اجمع ، فيحصل بذلك الصلاح .

وفئة تخضع لسلطان الحكام ان كانوا صالحين ، فتخاف عقابهم وتحسب

---

(١) رواه ابو نعيم في الحلية .

حسابهم ، وتخشى بطشهم ان اساءت وظلمت وافسدت في المجتمع ، فتعمل الخير بما يأمرهم هؤلاء ، من طاعة ومعروف واحسان بين الناس ، فيحصل بذلك الصلاح . وبعبارة اخرى : الناس بين رجلين :

رجل يرى العالم قدوة له ، لأنه يشاهده طيب القلب حسن السيرة كريم الاخلاق يحب العدل ، ويكره الظلم ، يقول الحق ولو على نفسه ، يقارع الظالمين بسلطان فكره ، ويحاسب المعتدين على احكام الشرع بقوي حجته ، إن رأى حاكماً جائراً انكر عليه وإن رأى حاكماً فاسقاً نصحه واعانه على الخير ، فيحصل الاصلاح ويصلح الناس .

ورجل يرى حاكمه تقياً مؤمناً ، ساهراً ليله وقاضياً نهاره ، في خدمة الأمة ورعاية الخلق ، حارساً أميناً للاسلام ، يغضب إذا انتهكت حرمان الله ، ويحزن إذا عطلت شعائر الله ، يسره اقامة العدل ، ويسوؤه وقوع الظلم ولو على فرد واحد من رعيته لأنه مسؤول عنهم ( كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالامام راع وهو مسؤول عن رعيته )<sup>(١)</sup> كبير المسلمين يجعله اباً ، وأوسطهم اخاً ، وأصغرهم ابناً . وبهذا يحصل الصلاح والاصلاح .

ومق يصير الصنفان على غير ما وصفناه : كأن يكون الحالم فاسداً مفسداً ، يعمل بعمل الجاهلية ، ويدعو بدعوة جاهلية ، فالظلم سجيته ، والكفر رائده ، وسلب الاموال وانفاقها في شهوات وملذاته . وإشباع نزوات اتباعه وجلالozته ديدنه ، وقتل النفوس عمله ، يحل ما حرم الله ويحرم ما احل الله ، متقصداً او متأولاً ، يرى رقي بلاده وسعادة امته بغير الاسلام ، ويرى العدل يقوم والحق يكون بما يسن هو من قوانين ، وكلما ابتعد عن الاسلام في قوانينه وانظمته هذه ، كلما كان تقديماً متحرراً غير رجمي ، لا

---

(١) رواه البخاري .



يتصف بالجمود !! وامام هذا نراه يسكت اللسان ، ويعقل الاقلام ويأخذ بالشبهات وقد فتح سجونته منذراً بها ، وهدد بمعتقلاته مخوفاً بدهاليزها ، والعلماء تجاهه ، بين ساكت هنه ، لا ينكر ولا يغير ، ولا ينصح ولا يصدع بكلمة او ينبس ببنت شفة ، ارتضى بالعافية ، والتمس لنفسه المعاذير ، والتشبت بالتأويل لآيات القرآن ، واحاديث الرسول الكريم فتراه يعمد ما فيه الحث على الجهاد ، فيستدل به على جواز القعود عن مجاهدة اعداء الاسلام لأنها في نظره تهلكة ، كما في قوله تعالى ( ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة ) (١) وما التهلكة الا الشح والبخل في الانفاق في سبيل الله ، والبطء عن استجابة داعي الجهاد . وبين متفقه يرى الحكمة في السكرت عن جرائم الحكم ، ضارباً الكف على الكف آسفاً ومتألماً ومتأولاً ، قائلاً لا يمكن الاصلاح ولا محل للانكار .

فقد عمّ البلاء وظهر الفساد ، فما عاد ينفع قول ولا ارشاد، وليس هناك أذن تسمع ، ولا قلب يعي ، ولا حيلة للعلماء ، في دفع هذا البلاء ، وإزالة هذا الفساد ، ولا عليهم ان سكتوا وانزروا ، فالله يأخذ الظالمين وما هم له بمعجزين ، هذه بعض أقوالهم او معانيها ، ونسوا قول الله تعالى : ( وقالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم او معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة الى ربكم ولعلمهم يتقون ) (٢)

فاذا آل أمر العلماء والحكام على ما ذكرنا وقد وقع هذا المآل في بلاد الاسلام فحق على من عنده بقية من علم وفضل من تقوى ، ان يصدع بالحق ويرفع صوته به ولو كان وحده في الميدان : ( كل نفس بما كسبت رهينة ) (٣)

---

(١) سورة البقرة . سيأتي شرح هذه الآية في فصل العلماء وآية التهلكة .

(٢) آية ١٦٤ سورة الأعراف .

(٣) آية ٣٨ المدثر .

وحق على المسلمين ان يؤازروه وبعينوه . وعليهم جميعاً أن يرددوا قول الله تعالى : ( الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل <sup>(١)</sup> ) .

إن الفساد قد استعكم في الارض ، فأخذ أشكاله وألوانه ، فساد في انظمة الحياة وقوانينها ، وفساد في أجهزة الحكم ، فساد في ادارة الدولة ، فساد في الافكار السائدة في المجتمع ، فساد في المشاعر المتحركة عند عموم الناس ، والحكام يرفعون ذلك كله ويتبجحون به ويحسبون أنهم يحسنون صنعا .

ونشاهد بعض العلماء قانعا بصلواته يؤديها ، اذا وعظ بالمناسبة كانت وعظه يمتد القلوب ولا يحسبها ، وقد عافه الناس لتكراره ولبعده عن واقع حياتهم ، وأحاسيس مجتمعاتهم ، ومنهم من يحجم عن بيان فساد الانظمة وكشف اعمال الحكام رهبة او رغبة ؟! ، أما فساد الافكار فلا يمسه بسوء خوفاً من ثورة الفاسقين عليه واستنكارهم له .

ومنهم من استولى على المذيع وارتمى المنابر يسبح بحمد الحاكم ويقدر أمره ، ويذكر كل خير وبرٍّ منسوباً الى حكمه ، وما يعمل غير ذلك بتوجيه منه .

ومنهم من يزين عمله ويؤول نصوص الاسلام لتوافق ما سنّ الحكام من أنظمة فاسدة وقوانين ظالمة ، وكثيراً ما سمعنا منهم تأييد الاشتراكية ، وتأويل النصوص الشرعية في سبيلها ، محارلين بذلك إقناع العوام بأنها من الاسلام او لا تخالف الاسلام .

وهذا الموقف الذي وقفه البعض من الاشتراكية تزلفاً الى الحكام والتاساً لرؤسائهم ، وقفوه كذلك من الديمقراطية ، لأن بعض الحكام يدعون لها

---

(١) آية ١٧٣ سورة آل عمران .

ويعملون على تطبيقها وتنفيذها مع أن كلا من الاشتراكية والديمقراطية أنظمة فاسدة ، خارجة عن الاسلام ومخالفة له كل المخالفة (١) .

ومنهم من وجدناه ونسمع به ، انه سعى على قدميه ذاهباً الى قصورهم وأماكن حكمهم ليقيدوا أسماءهم في سجل التشریفات عند كل مناسبة وكل سفرة في غير سبيل الله ، فهؤلاء علماء السوء وخطباء الفتنة الذين صدقوا كذب الحكام وأعانوا على الظلم واستجابوا لأهوائهم ، وبرروا أعمالهم ، إن هؤلاء حذرنا منهم سيدنا الرسول الأعظم ﷺ وتبرأ من فعا لهم ، وأبان عاقبتهم في الآخرة .

قال عليه الصلاة والسلام ( سيكون أمراء فسقة جوراة فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولن يرد على الحوض (٢) ) وقوله ( اني لا أتخوف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً ، فاما المؤمن فيحبجزه ايمانه وأما المشرك فيقمه كفره ولكن أتخوف عليهم منافقاً عالم اللسان يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون (٣) ) .

وقوله ( يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور كما يدور الحمار في الرحى فيجتمع عليه اهل النار فيقولون يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بل كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية (٤) ) .

( قيل يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ قال اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطباً ويذكر الله ، وقيل له أي الأصحاب أفضل ؟ فقال الذي اذا

---

(١) انظر موضوع العلماء والمصطلحات الحديثة .

(٢) رواه احمد والنسائي والترمذي والبزار .

(٣) رواه الطبراني والبزار .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

ذكرت أعانك واذا نسيت ذكرك ، وقيل أي الناس شر ؟ قال : العلماء اذا فسدوا (١) .

وقال الامام علي رضي الله عنه : قسم ظهري رجلا ن عالم متهتك وجاهل متنسك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه .

يقول حجة الاسلام الغزالي (٢) :

العلماء ثلاثة ، اما مهلك نفسه وغيره وهم المصححون بطلب الدنيا المقبلون عليها ، واما مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق الى الله سبحانه ظاهراً وباطناً واما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو الى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره . وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه ، فانظر من اي الأقسام انت ..

وعلى ذكر حجة الاسلام الغزالي فانه رضي الله عنه يعتقد واعتقاده الحق ، ان التبعة الكبرى في كل فساد يظهر في البلاد الاسلامية تقع تبعته على العلماء ، وهم من الاسباب الرئيسية في فساد الأوضاع ، لأنهم ملح الأمة وإذا فسد الملح فما الذي يصلحه ؟ ويتمثل الغزالي ببیت خوطب به العلماء :

يا معشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح اذا الملح فسد

ويذكر رحمه الله في هذا الباب ، كيف رقت قلوب الناس ، واشتدت الغفلة عن الآخرة فيذكر اسباب ذلك ومنها مرض العلماء واعتلالهم وهم اطباء القلوب والعقول ثم اردف يقول : ان الاطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض ، فالطبيب المريض قلما يلتفت الى علاجه ، فلهذا صار الداء عضالاً والمرض مزمناً .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ص ١٦ ج ١ .

(٢) الأحياء ج ٣ .



ثم يرد حجة الاسلام فساد الحكام الى فساد العلماء ، وذلك حينما يترك العلماء واجبهم نحو الحكام .

فيقول : ( ... فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ولكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى ان يحرسمهم ، ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا الله النية اثر كلامهم في القلوب القاسية فليتها وأزال قساوتها ، وأما الآن فقد قيدت الاطباع ألسن العلماء فسكتوا ، وإن تكلموا لم تساعد اقوالهم احوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ففساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء . وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا فلم يقدر على الحسبة على الاراذل فكيف على الملوك والأكابر ، والله المستعان على كل حال (١) .

هذا قوله في علماء زمانه فما يقول في علماء هذا الزمان ؟ - فتأمل يا اخي فاذا كان هذا حال العلماء المفسدين دنيا وأخرى . فما حال الحكام الظلمة الذين عاثوا في البلاد الفساد .

هذا ما نخبرنا به رب العالمين وسيد المرسلين ، قال تعالى ( فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين (٢) ) وقال : ( وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون (٣) ) وقوله : ( ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء (٤) ) .

---

(١) ص ٩٢ ج ٧ احياء علوم الدين .

(٢) آية ٤٤ الاعراف .

(٣) آية ٢٢٧ الشعراء .

(٤) الآية ٤٣ ابراهيم .

وقال سيدنا الرسول الكريم ﷺ ( ايما راع غش رعيته فهو في النار <sup>(١)</sup> )  
وقال: (من استرعاه الله رعية ثم لم يحطها بالنصيحة الا حرم الله عليه الجنة <sup>(٢)</sup> ).

وهنا لا بد من القول ، ان المقياس والميزان لمعرفة كون العالم فاسداً ام  
صالحاً ، وكون الحاكم ظالماً أم عادلاً ، هو الاسلام لا شيء غيره ، ولا  
شيء معه .

فأعمال العلماء وأفعال الحكام وتصرفاتهم وسلوكهم في الحياة ومع الناس  
وتحديد موقف بعضهم لبعض كل ذلك يوزن بميزان الاسلام ، ويقاس بمقياس  
الشرع ، فبقدر تمسكهم بالاسلام وتطبيقهم له وحملهم لدعوته ، ورعايتهم  
لأحكامه وخدمتهم لاتباعه يكون الصلاح ويكون العدل ، وبعكسه يظهر  
الفساد ويسود الظلم ، وإن كان العالم فيلسوفاً والحاكم عبقرياً ، قال تعالى :  
( ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين <sup>(٣)</sup> )  
وقال ﷺ : ( من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد <sup>(٤)</sup> ) .

## العلماء والاصطلاحات الحديثة

من المعروف عند العلماء ان الاصطلاح هو ( اتفاق طائفة على وضع اللفظ  
بازاء المعنى <sup>(٥)</sup> ) .

والاصطلاحات كثيرة منها المصطلحات العلمية والفنية والاصطلاحات التي  
عند كل اهل بلد ، ومنها الاصطلاحات التي تحمل افكاراً خاصة ومفاهيم

---

(١) رواه الطبراني بهذا اللفظ وشواهد في الصحيحين .

(٢) رواه البخاري .

(٣) آية ٨٥ آل عمران .

(٤) رواه مسلم .

(٥) ص ٢٢ التعريفات للسيد شريف الجرجاني .

معينة ذات وجهة نظر في الحياة ، وضعها اهلها واصحابها تعبيراً عن افكارهم وأرائهم وانظمتهم ومبادئهم وهذه الاصطلاحات هي موضوع البحث . حيث ان لها الأثر الكبير على صفاء الاسلام وعلى نقاء دعوته ووضوح احكامه ، مثل المصطلحات الحديثة التي انتشرت وزادت في البلاد الاسلامية في هذا العصر ، كالأشترائية والديمقراطية والرأسمالية والدستور والحريات والمبدأ الخ . ولجواز استعمال هذه الاصطلاحات قاعدة .

( كل لفظ يحمل اصطلاحاً موجوداً معناه في الاسلام فلا مانع شرعاً من جواز استعماله بذكره او بالدعوة اليه ، اما إذا كان الاصطلاح يخالف معناه ما في الاسلام من معان فلا يجوز ذكره على سبيل الدعوة اليه ، وان قيد بوصف اسلامي له ، لأنه تعبير وضع بالاصل لفكر معين او نظام خاص عرف به اصحابه وحملته <sup>(١)</sup> . وقد اتخذ العلماء المعاصرون مواقف متعددة ازاء هذه الاصطلاحات الحديثة ، فهم واحد من ثلاثة .

إما أن يكون عالماً بحقيقة الاصطلاح مدركاً واقعه الفكري ومعناه ، لذلك فقد وقف منه الموقف الشرعي ، فبين فساد تلك المصطلحات ذات المعاني المخالفة للاسلام ، المناقضة لاحكام الشريعة ، كاصطلاح الاشترائية والديمقراطية والرأسمالية الخ ( لأن الاشترائية قامت على اساس الغاء الملكية الفردية كلياً او جزئياً وعلى فكرة التأميم باغتصاب الملكية الفردية وهذا لا يجوز شرعاً ولأن الديمقراطية من معانيها ان الشعب هو الذي يضع نظامه بنفسه لا ربه وخالفه . وهذا كفر في نظر الاسلام ولأن الرأسمالية من معانيها انها تسمح بطغيان الملكية الفردية وعدم تحديدها بالكيفية وافساح الطريق امامها إذ الحلال عندها ما حل بالكف لذلك فانها تفرض سيطرة اصحابها في

---

(١) ص ١٢٥ حكم الاسلام في الاشترائية للمؤلف . ومن اراد التفصيل مع الادلة الشرعية لهذه القاعدة فليراجع الكتاب المذكور .

الحياة وتحكمهم في المجتمع من غير حد ولا قيد ( <sup>(١)</sup> ) فلاحتكار، والاستغلال رائدها والربا وابتزاز الاموال طريقها . بين ذلك بكل صراحة في خطبة او مقالة او كتاب ، فجزاه الله خيراً حيث نطق بالحق ولم يخش إلا الله سبحانه وتعالى . واما أن يكون عالماً بحقيقة الاصطلاحات واعياً لمعانيها المقررة لذلك تجده يستعملها ويذكرها في خطبه ومقالاته وكتبه ويدعو لها ويصفها بالاسلامية فيقول بالاشتراكية الاسلامية والديمقراطية الاسلامية الخ اما دجلاً واستجابة لاهواء الحكام ولنوال رضا العوام وحباً بالدنيا وزينتها فتراه يؤول النصوص الشرعية ويتحايل على الاحكام لتحقيق مقاصده ونواياه . واما خطأ ولشبهة في ذهنه حيث فسر التعاون والتضامن بين افراد المجتمع الذي دعا اليه الاسلام . فسر ذلك بالاشتراكية من باب تقريب الاسلام الى الازمان ودفاعاً عن الدين الذي يحمل الدعوة اليه ، وهذا التفسير خطأ محض إذ أن مثل هذا الاصطلاح يحمل معاني مخالفة للاسلام مناقضة لاحكام الشرعية التي جاءت منظمة للملكية الفردية ومحددة لكيفيتها لا كيتها وفي هذا التفسير والقول ، ( ... اغواء وترويض للعقول بقبول الاشتراكية بمعناها الحقيقي وفي هذا ايهام وطمس للحقائق وذلك لا يجوز شرعاً ) ( <sup>(٢)</sup> ) والا فكيف يصح أن يقال الخمر الاسلامي ؟ او المهر الاسلامي ؟ او اسلامية الربا او اسلامية الزنا . فوصف الاصطلاحات بالاسلامية لا يخرج معانيها المقررة لا من الذهن ولا من واقعها، واما ان يكون جاهلاً بحقيقة هذه الاصطلاحات غير مدرك لواقعها الفكري ومعانيها فهو كسول لا يكلف نفسه عناء البحث والتحقيق لذلك اخذ يردد تلك الاصطلاحات ذات المعاني المخالفة للاسلام ولاحكام الشرع كالاشتراكية والديمقراطية .. دون أن يدرك خطورتها على

(١) نفس المصدر السابق من تقديم العلامة الزهاوي .

(٢) راجع فصل موقف الاسلام من المصطلحات الاجنبية في كتاب حكم الاسلام في الاشتراكية للمؤلف . وكتاب منهاج الاسلام في الحكم فصل الخطأ في استعمال المصطلحات الغربية لمحمد اسد .



الفكر الاسلامي . ولكن بعض هذا الصنف استمر في جهله رغم تذكير المذكرين فأورده المهالك ، والبعض الآخر ساقته تقواه فسرعان ما يعود الى الحق . حين يدرك خطر هذه الاصطلاحات على الدين ويتبين له ان الدعوة لمثل هذه الاصطلاحات هي دعوة الى غير الاسلام بل هي دعوة لهدمه حيث يهد الطريق لتحكيم غير الاسلام في الحياة . وتثبيت سوى الاسلام في الازمان . وهو لم يخلق لهذه الغاية ولم يوجد في هذه الدنيا من اجل أن يخلط بين افكار ودعوة الاسلام وافكار ودعوة الجاهلية الحديثة وانما وجد من الاسلام فقط لا يحمل إلا دعوتـه ولا ينشر إلا افكاره ولا يستعمل إلا اصطلاحاته والمصطلحات التي لا تناقض معانيها احكامه وافكاره ..

### العلماء وآية التهلكة

« كثيراً ما يستشهد بعض العلماء - وأقول العلماء تجاوزاً - في سائر البلاد الاسلامية بجزء من آية التهلكة ، وهي قوله تعالى : ( ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة <sup>(١)</sup> ) .

يستشهدون بهذا الجزء في معرض الدفاع عن انفسهم ، حينما يطالبون أن ينكروا على الحكام الظالمين ، وأن يتصدوا لأفعال المسؤولين الفسقة ، وذلك ببيان زيف أعمالهم وكشف تصرفاتهم للأمة ، وابداء رأي الاسلام وحكم الشرع في تلك الافعال والتصرفات ، قائلين بأن المطلب فيه هلاك وتهلكة ، وقد نهينا عن ذلك ، وليتهم وقفوا عند هذا الحد واكتفوا بإثم السكوت وفساد هذا الاستشهاد الذي في غير محله ، بل توغل بعضهم في هذا الاثم ، فلاموا وأنكروا على من يقوم بمهمته الشرعية وواجبه الشرعي الاسلامي ، نحو هؤلاء الحكام ، حين يأمرهم وينهاهم ويحاسبهم ويعيب أعمالهم المنكرة وتصرفاتهم الشاذة ، .

---

(١) سورة البقرة .

واذا لحق هذا القائم بواجبه ، والمؤدي مهمته ، بعض الأذى والتضييق والملاحقة قالوا عنه : أذى نفسه وعرض حياته للتهلكة ، يقولون هذا عنه وهم يحفظون قول رسول الله ﷺ : ( لا يذنبني لأمرىء شهد مقاماً فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقاً هو له <sup>(١)</sup> ) ويرددون قول الامام علي رضي الله عنه : ( .. وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق وأفضل ذلك كلمة عدل عند إمام جائر <sup>(٢)</sup> ) ويتناسون مواقف علماء السلف الصالح مع الحكام في جميع العصور الاسلامية الذين قاموا بواجبهم خير قيام ، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وحاسبوا حكامهم ولم تأخذهم في الله لومة لائم فصبروا على كل أذى لحقهم مهما عظم وكثر ، وكان يحسبون ذلك كفارة للذنوب ، وزكاة للأعمال ، وشفاعة له يوم المرض الاكبر على الله يوم القيامة .

أما هذه الآية التي يستشهد بجزء منها هؤلاء ( الجبناء ) فهي قوله تعالى في سورة البقرة .

( وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة واحسنوا ان الله يحب المحسنين ) .

ذكر الامام الرازي في تفسيره ، ناقلاً عن ابي عبيد والزجاج ، ان التهلكة هي الهلاك . وقال الامام الطبرسي في تفسيره ايضاً التهلكة والهلاك واحد ، واصل الهلاك الضياع وهو مصير الشيء بحيث لا يدرى اين هو .

أما تفسير الآية الكريمة ، فانه لما فرض الله تعالى الجهاد في سبيله ، وواجب نشر دينه بالفتح ، عقب بذكر الانفاق في سبيل ذلك ، واعتبر هذا الانفاق في الجهاد من اعماله ومن مقوماته الاساسية . فقال تعالى

---

(١) رواه البيهقي والترمذي وابن ماجه .

(٢) ص ٢٤٤ ج ٣ نهج البلاغة .

( وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة واحسنوا ان الله يحب المحسنين ) (١) . فالجهاد يكون بقتال الاعداء كما يكون بالانفاق عن ذلك ، قال تعالى ( انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله ) (٢) .

فآية الكريمة خاصة بالانفاق في سبيل الله والجهاد .

جاء في تفسير ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية قال البخاري ( وذكر سنده ) وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ( نزلت في الانفاق .

وذكر ايضاً : ( قال رجل للبراء بن عازب - الصحابي الجليل رضي الله عنه - ان حملت على العدو وحدي فقتلوني اكنت القيت بيدي الى التهلكة ؟ قال لا . قال الله لرسوله فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك انما نزلت في الانفاق .

وجاء في تفسير الرازي عند تفسير هذه الآية ( ان يخلوا بالجهاد فيتعرضوا للهلاك الذي هو عذاب النار فتحثم بذلك على التمسك بالجهاد وهو كقوله تعالى ليهلك من هلك عن بينة ) .

والذي يوضح هذا المعنى جلياً من الآية انها نزلت في الدعوة الى الانفاق في سبيل الله والجهاد ، والتارك لذلك معرض نفسه لهلاك الدنيا والآخرة هلاك الدنيا بالخسران وغلبه الاعداء حين ترك الجهاد مصداقاً لقوله ﷺ ( ما ترك قوم الجهاد الا ذلوا وهلاك الآخرة بعقاب الله يوم القيامة ، بسخطه والابتعاد عن رحمته ، لعدم قيامه بما امر وواجب عليه . نعم ان الذي يوضح ذلك ما ذكر في سبب نزول هذه الآية الكريمة .

---

(١) آية ١٩٥ سورة البقرة .

(٢) الآية ٤١ التوبة .

فقد روى ابو داود والترمذي والنسائي وعبد بن حميد في تفسيره وابن جرير وابن مردويه والحافظ ابو يعلى في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه وهم من أئمة المحدثين ، عن يزيد بن ابي حبيب عن اسلم ابي عمران ، قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى فرقه ومعنا ايوب الانصاري - الصحابي الجليل رضي الله عنه - فقال ناس ألقى بيده الى التهلكة . فقال ابو ايوب نحن اعلم بهذه الآية انما نزلت فينا :

صحبنا رسول الله ﷺ ، وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الاسلام وظهر اجتماعنا معشر الانصار تحبباً فقلنا قد اكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره ، حتى فشا الاسلام وكثر اهله وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب اوزارها ، فنرجع الى اهلينا وأولادنا ، فنقيم فيهم فنزل فينا ( وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ) فكانت التهلكة في الاقامة في الامل والمال وترك الجهاد . أ هـ .

وذكر الامام الرازي في تفسيره عند تفسير هذه الآية ايضاً .

روي أن قوماً حاصروا حصناً فقاتل رجل حتى قتل ، فقيل ألقى بيده الى التهلكة فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : كذبوا أليس الله تعالى يقول : ( ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله . أ هـ . )

ولا اريد ان اكثر من نقل اقوال المفسرين وآراء أئمة العلماء في تفسير هذه الآية الكريمة ، لأن اقوالهم جميعاً لا تخرج عن هذا المعنى وعن هذا التفسير الذي أشرت عليه ، ولأن كثيراً من آيات الله تعالى وأحاديث الرسول الكريم ﷺ ، دعت الى الجهاد بنوعيه ، القتال والانفاق

في سبيله ، ومقاومة الظالمين ومحاسبة المسؤولين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلت الصبر على ما قد يصيب الداعي لذلك من اذى واضطهاد ، من عزم الامور ، مما عزمه الله وأوجبه على عباده المسلمين وفي مقدمتهم السادة العلماء ، واعتبرت هذه الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة السكوت عن ذلك وترك هذا الواجب هو الهلاك بعينه والتهلكة نفسها .

وسيجد القارئ الكريم صوراً من الحوادث والمواقف التي قام بها علماء السلف الصالح مع حكامهم ، فأظهروا فيها عزه الاسلام وقوة الايمان ، كما اثبتوا فيها انهم حقاً من العلماء الرجال ، الذين لا يخيفهم بطش حاكم ولا ارهاب سلطان ، ولا قوة جند ولا ظلام سجون او معتقلات . كل ذلك سيجده القارئ في الفصول التالية .

## العلماء يحاكمون الحكام

اراد الله سبحانه وتعالى ، لدينه الاسلام ، ان يكون نظاماً عالمياً للحياة ، وعقيدة خالدة للبشر لإسعادهم الى قيام الساعة ، فجعل فيه سلطاناً ، ليقوم بتطبيق نظامه ونشر عقيدته في العالم ، ورعاية شؤون الناس على أساسه .

وإن هذا السلطان جعله الله تعالى للأمة ، ولكن الأمة بمجموعها لا يمكن ان تتولى هذا السلطان ، لذلك فإنها تختار منها رجلاً ليقوم بهذا السلطان نيابة عنها ، ثم ان الله تعالى ابقى للأمة بمجموعها حق محاسبة هذا الرجل الذي تولى السلطان عنها ، وأولته امرها ، ان قصّر في رعاية شؤونها ، او حاد عن احكام الاسلام في تطبيقه ونشره .

ولم يكتف الاسلام يجعل هذه المحاسبة حقاً للأمة ، تكون مخيره في



القيام به او تركه ، بل جعله فرضاً عليها ، وجعل ذلك على علماء الأمة  
رض عين - لأنهم قادة الأمة الحقيقيون والثلة الواعية فيها والقائمة على  
أمر الدين والمبلغة لأحكامه والداعية اليه - فقال تعالى : ( ولتكن منكم  
أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ) (١) .

وهل انكار المنكر إلا المحاسبة ؟ والامر بالمعروف إلا النصيحة القائمة  
على دعوة الخير والخير هو اتباع القرآن الكريم والسنة المطهرة ، كما  
يقول الإمام محمد الباقر رضي الله عنه ناقلًا ذلك عن جده رسول الله  
صلى الله عليه وسلم (٢) .

كما رتب الاسلام عقاباً ينزله على من لم يقوم بهذا الغرض او ينفذ ذاك  
الواجب ، فهدد وأذذر وتوعد ، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام :  
( من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة  
رسول الله ، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير بقول ولا فعل  
كان حقاً على الله ان يدخله مدخله ) (٣) .

فمصير الحاكم الظالم دخول النار ، بسخط الله تعالى يوم القيامة ،  
ومثله مصير من لم يحاسبه او يقوم بالانكار عليه ، وقال عليه الصلاة  
والسلام : ( لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم  
ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً او ليضربن الله  
بقلوب بعضكم على بعض وليلعنكم كما لعن بني اسرائيل ) (٤)

---

(١) آية ١٠٤ سورة آل عمران .

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره .

(٣) تقدم تخريج الحديث .

(٤) رواه ابو داود والترمذي .

وبشر رسول الله بعاقبة الذين يحاسبون الحكام وينكرون عليهم كلما  
لزم ذلك بأنهم من زمرة الشهداء ، بل من أسيادهم فقال عليه الصلاة  
والسلام : ( سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام الى إمام ظالم  
فأمره ونهاه فقتله ) (١) . وفوق كون هؤلاء ينجون من عذاب الله وشدة  
عقابه فقال تعالى : ( فلما نسوا ما ذكروا به أنجبنا الذين ينهون عن  
السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون ) (٢) .

وجعل الله سبحانه وتعالى خيرية هذه الامة محققة بأداء هذا الواجب  
فقال تعالى : ( كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون  
عن المنكر ) (٣) .

فخيرية هذه الامة ملازمة لها ما أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر  
ودعت الى الله وخده وإلا فلا .

وقد فهم الحكام الصالحون من سلف هذه الامة ، هذا الحق وآمنوا  
به ، كما أدركوا هذا الغرض واعتقدوا به ، فسمحوا للقيام بهذا الحق  
وأداء هذا الغرض من غير حد أو تحديد ، بل نجد منهم من يطلب  
بنفسه من الامة ان تحاسبه على كل عمل وتصرف وتقومه في كل خطأ  
قد يصدر منه ، ما داموا مخلصين يبتغون وجه الله في حكمهم وسلطانهم ،  
فهذا خليفة رسول الله ابو بكر الصديق رضوان الله عليه يقول عندما  
استلم الحكم : ( ... فان احسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني ، اطيعوني  
ما اطعت الله ورسوله فيكم ... ) .

---

(١) رواه الحاكم بسند صحيح .

(٢) آية ١٦٥ سورة الاعراف .

(٣) آية ١١٠ سورة آل عمران .

وهذا امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : ( من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه ) وهل هذا التقويم الا المحاسبة ؟؟ والاسلام أوجب على الحاكم الذي يتولى أمر المسلمين ان يسمع لمن يحاسبه وان يفسح صدره لذلك ، كما أمره ان يخضع لهذه المحاسبة ان كانت موافقة لأحكام الاسلام ومنعه من أي عقاب يفرضه على أي فرد من أجل هذه المحاسبة ولو جاءت شديدة والقول فيها غليظاً .

ولنسمع جواب ذلك الاعرابي لطلب عمر في تقويمه ( والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيفنا ) فيؤمن عمر لقوله ويحمد الله مسروراً من هذا الجواب ( الحمد لله الذي جعل في امة محمد من يقوم عمر بسيفه ) فسيدنا عمر يرضى بتقويم اعوجاجه وتصحيح خطئه بالسيف نعم بالسيف ، وحكام اليوم وعبيدهم لا يرضون بتقويم اعوجاجهم بالكلام نعم بالكلام ، فتأمل يا اخي . وقال آخر اليه ( اتق الله يا عمر ) فأجابه احد الحاضرين أتقول هذا لأمر المؤمنين ، ولكن سيدنا عمر نهره بتلك القولة التي صارت مثلاً لكل حاكم صالح ( لا خير فيكم ان لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها ) .

وأوصى امير المؤمنين سيدنا علي بن ابي طالب رضي الله عنه جميع ولاته أن يقبلوا محاسبة من حاسبهم ما دام في تلك المحاسبة طاعة الله فقال ( .. فطوبى لذي قلب سليم أطاع من يهديه وتجنب من يرديه وأصاب السلامة ببصر من بصره وطاعة هادٍ أمره <sup>(١)</sup> ) ..

وأغلظ رجل على أمير المؤمنين معاوية في الكلام ف قيل له ( أتحم على مثل هذا فقال اني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لا يحولوا بيننا وبين سلطاننا <sup>(٢)</sup> ) .

---

(١) ص ٢٢٢ ج ٣ نهج البلاغة .

(٢) ذكره صاحب سراج الملوك .

وبعد : فهذه حوادث من سيرة العلماء في العهد الاسلامي تبين صوراً صادقة وتجسد المواقف في محاسبة العلماء للحكام .

.. كانت من جملة غنائم المسلمين ، أبراد يمانية ، فقام امير المؤمنين عمر رضي الله عنه يقسم هذه الغنائم بالعدل ، وقد أصابه منها برد : كما أصاب ابنه عبد الله مثل ذلك ، كأبي رجل من المسلمين ، ولما كان سيدنا عمر بحاجة الى ثوب وهو الطويل في الجسم ، فقد تبرع له عبد الله ببرده ، ليصنع منها ثوباً يكفيه ، ثم وقف يخطب الناس وعليه هذا الثوب ، فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ( أيها الناس اسمعوا وأطيعوا .. ) فوقف له سلمان الفارسي الصحابي الجليل ليحاسبه فقال له : ( لا سمع لك علينا ولا طاعة ) ، فقال سيدنا عمر ولم ؟ قال سلمان ( من أين لك هذا الثوب وقد نالك برد واحد وأنت رجل طوال ؟ ) فقال : ( لا تعجل ) ونادى ( يا عبد الله ) فلم يجبه أحد فقال : ( يا عبد الله بن عمر ) فقال ( لبيك يا امير المؤمنين ) قال : ( ناشدتك الله البرد الذي انتزرت أهو بردك فقال اللهم نعم : قال سلمان الآن مر نسمع ونطع <sup>(١)</sup> ) .

إن قال قائل هذا عمر وهو نسيج وحده وذاك سلمان وهو الصحابي الجليل قلنا اذن اسمع .

وقف امير المؤمنين معاوية يوماً على منبره ، بعد أن قطع بعض الاعطيات المالية عن افراد المسلمين . فقال : اسمعوا وأطيعوا فقام اليه أبو مسلم الخولاني ليحاسبه عن هذا التصرف الخاطيء ، فقال لا سمع ولا طاعة يا معاوية ، قال ولم يا أبا مسلم ، فقال : يا معاوية كيف تمنع العطاء وانه ليس من كدك ولا من كد ابيك ولا من كد أمك ، فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال للحاضرين مكانكم ، وغاب ساعة عن أعينهم ثم

---

(١) ذكره سيد قطب في العدالة الاجتماعية .

خرج عليهم وقد اغتسل فقال : ان ابا مسلم كلمني بكلام اغضبني واني سمعت رسول الله يقول : ( الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحد فليغتسل ) واني دخلت فاغتسلت ، وصدق ابو مسلم انه ليس من كدي ولا من كد ابي فهلموا الى عطائكم<sup>(١)</sup> .

وإن قال قائل هذا معاوية وهو المشهور بالحلم وذاك ابو مسلم ولا زالت الامة بخير حكاماً ومحكومين ، قلنا اذن اسمع :

قال الامام سفيان الثوري : لما حج المهدي - ابو جعفر المنصور - قال لا بد لي من سفيان ، فوضعوا لي الرصد حول البيت فأخذوني بالليل ، فلما مثلت بين يديه ادثاني ، ثم قال لأي شيء لا تأتينا فنستشرك في امرنا ، فما امرتنا من شيء صرنا اليه ، وما نهيتنا عن شيء انتهيينا عنه ، فقلت له : كم انفقت في سفرك هذا ؟ قال لا ادري لي انباء ووكلاء ، قلت فما عذرك غداً ، اذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك ؟ لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما حج قال لعلامه كم انفقت في سفرنا هذا ؟ قال : يا امير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً فقال ويحك اجعلنا بيت مال المسلمين<sup>(٢)</sup> وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار وأنت حاضر ذلك وأول كاتب كتبه في المجلس ، عن ابراهيم عن الاسود عن علقمة عن ابن مسعود ان رسول الله ﷺ قال : رب متخوص في مال الله ومال رسول الله فيما شامت نفسه له النار غداً ، فيقول ابو عبيد الكاتب احد متزلفي الحاشية ، امير المؤمنين يستقبل بمثل هذا ؟ فيجيبه سفيان - بقوة المؤمن وعزة المسلم - اسكت انما اهلك فرعون هامان وهامان فرعون<sup>(٣)</sup> .

(١) الحديث رواه ابو نعيم في الحلية والحادثة ، ذكرها الامام الغزالي في الأحياء ص ٧٠ ج ٥

(٢) ٥١ ص سراج الملوك .

(٣) المسند للاستاذ احمد محمد شاكر الجزء الاول .



وإن قال آخرون - هذا المهدي وذاك سفيان كبير علماء عصره ،  
والرأي العام لا زال إسلامياً يسمع هذا ويؤيده ولا يجد غرابة في ذلك .  
قلنا ان شعله الايمان لا زالت تضيء قلوب العلماء في عصور عديدة  
وهم لا زالوا يدركون مهمتهم في الحياة ، وإن كان بعض الحكام يومئذ  
قد اصابهم بعض التنكب عن جادة الحق فتضيق صدورهم لمحاسنة  
العلماء لهم . ولكن بأي شيء كانوا يقابلون تلك المحاسبة ، هذا ما يختلف  
فيه الحكام ، ويتفاوتون فيه تبعاً لتفاوت ايمانهم بالاسلام .  
فلنسمع :

لقد اقبل الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله على عمارة الزهراء ايما  
اقبال وانفق من اموال الدولة في تشييدها وزخرفتها ما انفق وهي في  
حقيقة حالها مجموعة من القصور الفاخرة وكان يشرف بنفسه على شؤون  
البناء والزخرفة حتى شغله ذلك ذات مرة عن شهود صلاة الجمعة .

وكان منذر بن سعيد يتولى خطبة الجمعة والقضاء ، ورأى خروجاً من  
تبعة التقصير فيما اوجبه الله على العلماء ، ان يلقي على الخليفة الناصر  
درساً بليغاً يحاسبه فيه على اسراف انفاقه في مدينة الزهراء ، ورأى أن  
يكون ذلك على ملاء من الناس في المسجد الجامع بالزهراء .

فلما كان يوم الجمعة اعتلى المنبر والخليفة الناصر حاضر والمسجد غاص  
بالمصلين وابتدأ خطبته قارئاً قول الله تعالى ( أتبنون بكل ريع <sup>(١)</sup> آية  
تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا  
الله واطيعون ، واتقوا الذي امدكم بما تعلمون ، امدكم بانعام وبنين ، وجنات  
وعيون ، اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ) <sup>(٢)</sup> حتى وصل الى قوله

---

(١) الريع : المكان المرتفع والاية العلامة من نصب وقباب.

(٢) الاية ١٣٠ الشعراء .

(قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) <sup>(١)</sup> ثم مضى في ذم الاسراف على البناء بكل كلام جزل وقول شديد ثم تلا قوله تعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين: <sup>(٢)</sup>) وراح يحذر وينذر ويحاسب حتى اذكر من حضر من الناس وخشعوا وأخذ الناصر من ذلك بأوفر نصيب ، وقد علم انه المقصود به فبكى وندم على تفريطه . غير ان الخليفة لم يتحمل صدره لتلك المحاسبة العلنية ولشدة ما سمع ، فقال شاكياً لولده الحكم والله لقد تعمدي منذر بخطبته وما عنى بها غيري ، فأسرف عليّ وأفراط في تقريعي .. ثم استشاط غيظاً عليه ، متذكراً كلماته ، وأراد ان يعاقبه لذلك !! فأقسم ان لا يصلي خلفه صلاة جمعة ، وجعل يلزم صلاتها وراء احمد بن مطرف خطيب جامع قرطبة .

تلك هي عقوبة الخليفة الناصر - ان لا يصلي خلف منذر في صلاة الجمعة - لذلك الخطيب الذي تجاوز الحد في الكلام !!..!!

ولكن لما رأى ولده الحكم تعلق والده بالزهراء والصلاة في مسجدتها العظيم قال له : ( فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة به إذ كرهته ؟ ولكن الناصر زجره قائلاً : ( أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه ( لا ام لك ) يعزل لإرضاء نفس فاكبة عن الرشيد سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون واني لاستحي من الله ألا اجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في ورعه وصدقه ولكن اخرجني فأقسمت ولوددت اني أجد سبيلاً الى كفارة يميني بملكي ، بل يصلي

---

(١) الآية ٧٧ النساء .

(٢) الآية ١٠٩ التوبة .

— منذرنـ بالناس حياته وحياتنا ان شاء الله فما أظننا انا نعتاض عنه  
أبدأ (١) .

وهذا الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى ، يقف على منبره  
محاسباً المقتضى لأمر الله ومنكراً عليه تولية يحيى بن سعيد المشهور  
بإبن المزاحم الظالم ، القضاء ، فقال مخاطباً له : وليت على المسلمين اظلم  
الظالمين ، فما جوابك غداً عند رب العالمين أرحم الراحمين . فارتعد  
الخليفة وعزل المذكور لوقته (٢) .

تولى العز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء ، خطابة جامع دمشق  
من قبل الملك الصالح اسماعيل ، في ربيع سنة ٦٣٧ هـ . ولكن لم يدم  
هذا المنصب للعز طويلاً ، إذ عزل منه في سنة ٦٣٨ هـ أثر محاسبة العز  
رحمه الله تعالى للملك اسماعيل في حادثة الخيانة السياسية المشهورة ،  
لأن العز لم يرض ان تدنس قدسية منبر الجامع التي ارساها رسول الله  
صلى الله عليه وآله وسلم ، بالمداهنة والسكوت على الحق . فكان جزاؤه  
ان عزل وحبس . واليك الحادثة بالتفصيل :

... يذكر المؤرخون الثقة ، ان الملك اسماعيل ، خاف من نجم الدين  
ابن ايوب حاكم مصر ، فتحالف مع الافرنج الصليبيين ليساعدوه على  
نجم الدين ، وسلم اليهم لقاء هذه المساعدة قلعة صفد وبلادها وقلعة  
الشقيف وبلادها ، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها ، جبل عامل وسائر  
بلاد الساحل (٣) وكانت مواقع مهمة ، وزيادة على ذلك ، أذن الملك

---

(١) من اخلاق العلماء ، كما ذكرهما الاستاذ عبد الحميد العبادي بين خليفة وقاضي مجلة  
الازهر عدد رمضان سنة ١٣٧١ هـ .

(٢) قلائد الجواهر ص ٨ .

(٣) ذكر ذلك المقرئ في السكوك قسم ٢ ج ٣٠٣/١ ان غيره من المؤرخين كسبط بن الجوزي  
وغيره فلم يذكروا الا قلعة الشقيف وصفد . ولم يذكر السبكي الا مدينة صيدا .

اسماعيل للفرنج في دخول دمشق وشراء السلاح<sup>(١)</sup> ، ولكن  
العز لم يكتف بتلك الفتوى ، بل حاسب الملك اسماعيل على فعلته  
المذكورة هذه ، من على المنبر في يوم الجمعة وذم الملك على هذه الخيانة  
وكشف خطورتها للأمة ، وقطع من الخطبة الدعاء له ، وكان الدعاء  
يومئذ للسلطان رمز الولاء والطاعة له ، وصار يدعو في الخطبة بدعاء  
منه : ( ... اللهم أبرم لهذه الأمة ابرام رشد تغز فيه اولياؤك ، وتذل  
فيه اعداؤك ، ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك ) . والناس  
يضعون بالدعاء .

وكان الملك اسماعيل غائبا عن دمشق فأخبر بذلك فورد كتابه  
بعزل العز بن عبد السلام عن الخطابة واعتقاله ، ولما قدم الى دمشق  
افرج عنه ، وجعل عقابه بالاقامة الجبرية بداره وأن لا يفقي الناس<sup>(٢)</sup> .

وهذا شيخ الاسلام احمد بن تيمية رحمه الله تعالى ، بموقفه الرائع من  
محاسبة غازان التتري ، وهو رابع ملك مسلم من التتار .

.. وردت الانباء في اواخر سنة ٦٩٨ هـ بزحف غازان التتري وجيشه  
من ايران نحو حلب ، وفي وادي سلمية يوم ٢٧ ربيع الاول سنة ٦٩٩ هـ  
التقى جمع غازان بجمع الناصر بن قلاوون ، وبعد معركة حامية الوطيس  
هزم جمع الناصر وولى الجند وأمرأؤهم الادبار ، ونزح اعيان دمشق الى  
مصر يتبعون سير الناصر ، حتى خلت دمشق من حاكم او امير او  
اعيان البلاد ، ولكن شيخ الاسلام بقي صامداً مع عامة الناس ، فاجتمع  
شيخ الاسلام مع من بقي من اعيان البلاد ، واتفق معهم على تولي الامور  
وأن يذهب هو على رأس وفد من الشام لمقابلة غازان ، فقابلته في بلدة

---

(١) طبقات السبكي والسلوك للمقرئزي .

(٢) طبقات السبكي وغيره .

النبك ، وقد دارت بينهما مناقشة عنيفة ، بل محاسبة شيخ الاسلام لغازان على تصرفه هذا ونكثه للعهد ، وكله كلاماً قوياً شديداً ، اشار اليه ابن كثير في تاريخه <sup>(١)</sup> وفصله كما سمعه من الشيخ الصالح ابي عبدالله محمد بن عمر البالسي الذي كان من اعضاء وفد المقابلة .

قال البالسي ( ان الشيخ ابن تيمية قال لغازان ، وترجمانه يترجم كلام الشيخ : أنت تزعم انك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا : فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا ؟ وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما غزوا بلاد الاسلام بعد ان عاهدونا ، وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت وجرت لابن تيمية مع غازان امور قام بها ابن تيمية كلها لله وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل .

ثم قرب غازان الى الوفد طعاماً فأكلوا إلا ابن تيمية ، فقيل له : ألا تأكل ؟ فقال كيف آكل من طعامكم وكله مما نهيتم من اغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من اشجار الناس ؟ وغازان مصغ لما يقول شاخص اليه لا يعرض عنه ، وان غازان من شدة ما اوقع في قلبه من الهيبة والمحبة ، سأل من هذا للشيخ ؟ اني لم أر مثله ، ولا اثبت قلباً منه ، ولا اوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني اعظم انقياداً لأحد منه ، فأخبر بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل ثم طلب منه غازان الدعاء ، فقال الشيخ يدعو فقال اللهم ان كان عبدك هذا انما يقاتل لتكون كلمتك العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وأيده ، وملكه البلاد والعباد ، وإن كان قد قام رياء وسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الاسلام وأهله ، فأخذ له وزلزه ودمره واقطع دابره ، وغازان يؤمن على دعائه ، ويرفع يديه - قال البالسي - فجملنا نجمة ثيابنا خوفاً

---

(١) ١ ص ج ١٤ و ٧١٨ ج ١٤ من البداية والنهاية .



من ان تتلوث بدم ابن تيمية اذا امر بقتله ، فلما خرجنا من عنده قال قاضي  
الفضة نجم الدين وغيره ، كدت ان تهلكنا وتهلك نفسك والله لا نصحبك  
من هذا ، فقال واني والله لا اصحبكم - قال البالسي - فانطلقوا عصبية ،  
وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من اصحابه ، فلتسمعت به  
الخواتين والامراء اصحاب غازان فأتوه يتبركون بدعائه وهو سائر الى  
دمشق ، والله ما وصل الى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه  
وكنت انا من جملة من كان معه ، وأما اولئك الذين ابوا ان يصحبوه  
فخرج عليهم جماعة من التتار فسلحوهم - اي سلبوهم ثيابهم وما  
معه - ( أ هـ <sup>(١)</sup> ) .

تلك صور من مواقف محاسبة العلماء للحكام ، وذاك هو حكم الاسلام ،  
في وجوب محاسبة الحكام ، وفي عقابه الله تعالى لمن لم يقم به : او لم  
يفسح المجال له ، وقد تمسك المسلمون بذلك - حكاماً ومحكومين -  
وقاموا به خير قيام كما اسلفنا .

ان محاسبة الحكام بالإنكار على اعمالهم المخالفة للشرع ، او اقوالهم  
المتناقضة مع الاسلام ، لا تعني مطلقاً الاساءة الى اشخاصهم ، لأن كل  
انسان سوى النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ، معرض للخطأ  
والضلال ، فالإنكار عليهم بمحاسبتهم تصلحهم وتقوّم اعوجاجهم ، والسعي  
من وعظ فتعظ وحوسب فاستقام .

ولكن الكافر المستعمر ، لما استطاع أن يقضي على الدولة الاسلامية  
وإزالة نظام الخلافة من الوجود ، جاء على اثر ذلك بحكام من أبناء  
المسلمين باسم المسلمين ، لا ليحكموهم بالاسلام ، ولكن ليحكموهم بغيره ..

---

(١) ٣٣٢ ص مختصر منهاج السنة للذهبي .

واذا طالب المسلمون بإسلامهم ، وحاسب العلماء حكامهم ، تجهمت الوجوه وتقطبت العيون ، وضافت الصدور ، وغضبت النفوس .. لم كل ذلك يا قوم؟؟ والاسلام دين الله الذي ارتضاه للناس ، عبادة وأخلاقاً ودولة وحكماً ، وتشريعاً وأنظمة ، لسائر شؤون الحياة ، والحكام قد تولوا أمر المسلمين ، والمسلمون اهل البلاد ..؟؟ وقد قال تعالى : ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون (٢) ) .

وقد يتساءل البعض قائلاً ، لما لا يُمكن دعاة الاسلام من محاسبة حكامهم والكفاح في سبيل دينهم سياسياً ، وحكام البلاد الاسلامية ومنها العربية يدعون الى الديمقراطية ويطبقونها كذا .. ومن مفاهيمها حرية الرأي التي منها النقد كذا ..

وجواب ذلك عند الراسخين في العلم ، وعند النابهين من الأمة عند الحكام أنفسهم ؟!

### الحكام يسألون العلماء

الجواب على الأسئلة من واجبات العلماء ، والزوغات في الجواب من علامات النفاق والساكت عنه والكاتم له ، ملعوناً ومطروداً من رحمة الله . وهو شيطان أخرس ، قال تعالى ( إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أثوب عليهم وأنا الثواب الرحيم (٣) ، وقال النبي الكريم عليه الصلاه والسلام ( الساكت عن

---

(١) ٣٣٢ ص مختصر منهاج السنة للذهبي

(٢) الآية ٤٤ المائدة .

(٣) الآية ١٥٩ البقرة .

الحق شيطان أخرس (١) .

والجراحة في الجواب الموصوفة بالصدق من امارات الايمان ، وبالأخص اذا كان السائل حاكماً .

والقصد من الجواب الارشاد الى الحق ، وبيان وجه العدل للسائل ، وقد ذكر الامام الغزالي - رحمه الله تعالى - في إحيائه طرقاً لذلك ، انكر منها ما يخص اجوبة العلماء للحكام .

١ - التخمين في الجواب والإغلاظ فيه ( فان كان هذا النوع من الارشاد يخاف منه غصبة الحاكم فتحدث فتنة يتعدى شرها وسوءها على الآخرين لم يحز سلوك هذا الطريق ، وان هذا النوع لا يخاف الا على نفس العالم فجائز ومندوب ، لأن علماء السلف كانوا يستعملون ذلك ، وهم يدركون انهم بسلوك هذا الطريق يتعرضون للأذى او للقتل او لانواع العذاب ، لانهم كانوا يعدون هذا شهادة في سبيل الله واذى في سبيله ينالون الاجر العظيم والمنزلة السامية عند الله ، لقوله ﷺ ( خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قلم الى إمام جائر فأمره ونهله في ذات الله فقتله على ذلك (٢) ) وليس في ذلك تهلكة ولا هو دخل في معنى قوله تعالى : ( ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ) كما أشرنا الى ذلك في فصل سابق (٣) ووصف النبي ﷺ عمر بن الخطاب ( قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم (٤) ) .

---

(١) الآية ١٥٩ البقرة .

(٢) رواه الحاكم بمسند صحيح .

(٣) راجع فصل العلماء وآية التهلكة من هذا الكتاب .

(٤) القرن الحـص ، راجع تفصيل ذلك في ص ٦٨ من كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ج ٧ احياء علوم الدين .

يقول الإمام الغزالي في أحيائه ( ولما علم المتصلبون في الدين ان افضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر وان صاحب ذلك اذا قتل فهو شهيد كما وردت به الاخبار ، قدموا على ذلك موطنين أنفسهم على الهلاك ومحتملين انواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى ومحتسبين لما يبذلونه من مهجهم عند الله <sup>(١)</sup> ) .

وهذه صور رائعة في أجوبة العلماء للحكام تبرز صلابتهم في التمسك بدينهم ولو أدى الى فقدان المهج والأرواح . ولنضرب أمثلة لذلك :

.. جيء بالعالم حطيط الزيات الى الحجاج ، فلما دخل عليه قال : أنت حطيط ؟ قال : نعم . قال حطيط : سل عما بدا لك فاني عاهدت الله عند المقام <sup>(٢)</sup> على ثلاث تخصصال ان سئلت لأصدقن وان ابتليت لأعبرن وان عوفيت لأشكرن .

قال الحجاج فما تقول في ؟ قال أقول فيك أنك من أعداء الله في الارض قتلتهك المحارم وتقتل بالظنة ، قال : فما تقول في امير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، قال : أقول أنه أعظم جرماً منك ، وانما أنت خطيئة من خطاياهم ، فأمر الحجاج أن يضعوا عليه العذاب ، فانتهى به العذاب الى ان شقق له القصب ، ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ، ثم جعلوا يمدون - يسلتون - قصبة قصبة ، حتى انتحلوا لحمه ، فما سمعوه يقول شيئاً ، فقليل للحجاج انه في آخر رمق ، فقال اخرجوه فارموا به في السوق ، قال جعفر - وهو الراوي - فأتيته أنا وصاحب له ، فقلنا له : حطيط ألك حاجة ؟ قال : شربة ماء ، فأتوه بشربة ثم استشهد ، وكان عمره ثمانى عشرة سنة رحمه الله <sup>(٣)</sup> .

---

(١) ص ٦٩٢ ج ٧ الاحياء .

(٢) مقام سيدنا ابراهيم عند الكعبة المشرفة .

(٣) ص ٥٤ ج ٥ الاحياء .

شهادة في سبيل الله فاهلها حطيط وتلك مظلمة للحجاج يبوء باثما  
وعليه عقابها الشديد يوم يجتمع الخصوم عند ملك مقتدر عادل .

لما دخل عبد الله بن علي دمشق ، بعد ان أجلى بني أمية عنها ، طلب  
الأوزاعي ، فتغيب عنه ثلاثة ايام ثم حضر بين يديه ، قال الأوزاعي :  
« دخلت عليه وهو على سرير وفي يديه خيزرانة ، والمسودة عن يمينه  
وشماله ، معهم السيوف مصلطة ، والغمد والحديد ، فسلمت عليه فلم يرد ،  
ونكث بتلك الخيزرانة التي في يده ثم قال :

« يا أوزاعي ما ترى فيما صنعناه من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن  
العباد ، والبلاد ؟ أجهاداً ورباطاً هو ؟ » فقلت « ايها الأمير سمعت يحيى بن  
سعيد الانصاري يقول ، سمعت محمد بن ابراهيم التميمي يقول ، سمعت علقمة  
ابن قاص يقول ، سمعت عمر بن الخطاب يقول ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :  
انما الأعمال بالنيات وان لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى  
الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ،  
او امرأة يتزوجها ، فهجرته الى ما هاجر اليه » .

فنكث بالخيزرانة اشد ما ينكث ، وجعل من حوله يقبضون ايديهم  
على قبضات سيوفهم ، ثم قال :

« يا اوزاعي ، ما تقول في دماء بني أمية ؟ » فقلت : قال رسول الله  
ﷺ ، لا يحل دم امرئ مسلم إلا باحدى ثلاث ، النفس بالنفس والثيب  
الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

فنكث بها اشد من ذلك ، ثم قال :

ما تقول في اموالهم ؟

قلت :



« ان كانت في ايديهم حراماً فهي حرام عليك ايضاً ، وإن كانت حلالاً فلا تحل لك الا بطريق شرعي ، فنكثت اشد ما كان ينكث قبل ذلك ثم قال :

« ألا نوليكَ القضاء ؟ » .

قلت :

« ان اسلافك لم يكونوا يشقون عليّ في ذلك واني احب ان يتم ما ابتدأوني به من الاحسان » .

فقال : « كأنك تحب الانصراف ؟ »

قلت : ان ورائي حرماً ، ومن يحتجّن الى القيام عنهن وسترهن ، وقلوبهن مشغولة بسبي .

انتظرت رأسي ان يسقط بين يدي ، فأمرني بالانصراف<sup>(١)</sup> .

روي أن ابا جعفر المنصور استدعى ابن طاوس احد علماء عصره ، ومعه مالك بن انس رحمها الله تعالى فلما دخلا عليه ، اطرق ساعة ثم التفت الى ابن طاوس ، فقال له : حدثني عن ابيك يا طاوس ( ابن كيسان التابعي ) فقال حدثني ابي ان رسول الله ﷺ ، قال ( ان اشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل اشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله ) فأمسك ساعة ، قال مالك فضمنت ثيابي مخافة ان يملأني من دمه ، ثم التفت اليه ابو جعفر فقال : عظمي يا ابن طاوس : قال نعم يا امير المؤمنين ان الله تعالى يقول : ( ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جاابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الاوتاد الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ،

---

(١) ٧١ عدد مجلة العربي ١٩٦٤ - الارزاعي فقيه اهل الشام .

فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد ) قال مالك : فضمت ثيابي مخافة ان يملأني من دمه ، فأمسك عنه ثم قال : فأولني الدواة ، فأمسك ساعة حتى اسود بيننا وبينه ثم قال : يا ابن طاوس تأولني هذه الدواة ، فأمسك عنه ، فقال : ما يمنعك ان تناولنيها ؟ فقال اخشى ان تكتب بها معصية لله ، فأكون شريكك فيها .

فلما سمع ذلك قال : قوما عني ، قال ابن طاوس ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم ، قال مالك فما زلت اعرف لابن طاوس فضله <sup>(١)</sup> مع شدة هذه الموعظة ورد طلب المنصور بهذا الاسلوب العنيف أجاب المنصور معاتباً : قوما عني .

قال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدي وأتي بسفيان الثوري كبير علماء المسلمين في عصره ، فلما دخل عليه سلم ولم يسلم بالخلافة ، والربيع قائم على رأسه متكئاً على سيفه يرقب امره ، فأقبل عليه المهدي بوجه طلق وقال له : يا سفيان تفر ههنا وههنا رتظن ان لو اردناك بسوء لم نقدر عليك ؟ فقد قدرنا عليك الآن . انما تخشى ان نحكم فيك بهواناً ؟ قال سفيان : ان تحكم فيّ بحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل .

فقال الربيع له : يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل ان يستقبحك بمثل هذا ؟ أنأذن لي ان اضرب عنقه ، فقال له المهدي ، اسكت ويحك وهل يريد هذا وأمثاله الا ان نقتلهم فنشقى لسعادتهم ، اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على ان لا يعترض عليه في حكم ، فكتب عهده ودفعه اليه ، فأخذه وشجج ورمى به في دجلة ، وغاب عن انظار الناس فطلب في كل بلد فلم يوجد فعين مكانه شريك النخعي <sup>(٢)</sup> . هؤلاء الحكام كانوا يدركون ما

(١) ص ١٦٠ ج ١ تذكرة الحفاظ .

(٢) ص ١٦٠ ج ١ تذكرة الحفاظ .

يقولون ويؤمنون بما ينطقون بان قتل العالم شقاء يحصل عليه القاتل وسعادة ينالها المقتول .

قال الفضل بن الربيع : كنت بمنزلي ذات يوم وقد خلعت ثيابي وتهيأت للنوم ، فاذا بقرع شديد على بابي فقلت في قلق من هذا ، قال الطارق : اجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعاً اتعثر في خطوي فاذا بالرشيد قائماً على بابي وفي وجهه تجهم حزين ، فقلت يا أمير المؤمنين : لو ارسلت اليّ اتيتك فقال : ويحك قد حاك في نفسي شيء اطار النوم من اجفاني وازعج وجداني شيء لا يذهب به الا عالم تقى من زهادك ، فانظر لي رجلاً اسأله .

ثم يقول الربيع حق جئت به الى الفضل بن عياض ، فقال الرشيد امض بنا اليه ، فأتيناه ، واذا هو قائم يصلي في غرفته وهو يقرأ قوله تعالى ( ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون <sup>(١)</sup> ) فقال الرشيد ان انتفعنا بشيء فبهذا ، فقرعت الباب ، فقال الفضل : من هذا ؟ قلت أجب أمير المؤمنين ، فقال : مالي ولا مير المؤمنين ، فقلت سبحان الله أما عليك طاعته ؟ فقال : أوليس قد روي عن النبي ﷺ : ( انه ليس للمؤمن ان يذل نفسه ) فنزل ففتح الباب ، ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ الى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بايدينا فسبقت كف الرشيد كفي اليه ، فقال أواه من كف ما اليها ان نجت من عذاب الله تعالى .

قال الربيع : فقلت في نفسي ليكلمه الليلة بكلام نقى من قلب تقى .

فقال الرشيد : خذ فيما جئناك له يرحمك الله ، قال الفضل بن عياض وفيما جئت وقد حملت نفسك ذنوب الرعية ، التي سمتها هوانا وجميع من

---

(١) ٢٦٣ ص ج ١ تذكرة الحفاظ .

معك من بطانتك وولاتك تضاف ذنوبهم يوم الحساب ، فبك بغوا وبك جاروا وهم مع هذا ابغض الناس لك واسرعهم فراراً منك يوم الحساب ، حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم ، ان يحملوا عنك سقطة - جزءا - من ذنب ما فعلوه ، ولكان اشدّهم حباً لك اشدّهم هرباً منك ثم قال : ان عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب ورجاء بن حية - وهم ثلاثة من العلماء الصالحين - فقال لهم : اني قد ابتليت بهذا البلاء فاشيروا عليّ ، فعد الخلافة بلاء وعددتها انت واصحابك نعمة .

فقال له سالم بن عبد الله : ان اردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن افطارك فيها الموت .

وقال له محمد بن كعب : ان اردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً وأوسطهم عندك اخاً واصغرهم عندك ابناً ، فوفر اباك واكرم اخاك وتحن على ولدك .

وقال رجاء بن حية : ان اردت النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت ان شئت .

واني اقول لك : يا هارون اني اخاف عليك اشد الخوف يوماً تنزل فيه الاقدام ، فبكى هارون .

قال ابن الربيع : فقلت أرفق بأمر المؤمنين ، فقال : تقتله انت واصحابك وأرفق به انا ؟

ثم قال : يا حسن الوجه انت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ، فان استطعت ان تقي هذا الوجه فافعل ، وإياك ان تصبح او تمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيّتك ، فان النبي ﷺ قال :

( من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة ) فبكى الرشيد ثم قال : هل عليك دين ؟ فقال : نعم ، دين لربي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي ان سألتني والويل لي ان ناقشني ، والويل لي ان لم ألهم حبي . قال الرشيد : انما اعني دين العباد فقال : ان ربي لم يأمرني بهذا وقد قال عز وجل : ( وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون ان الله هو الرازق ذو القوة المتين ) .

فقال الرشيد : هذه الف دينار خذها وانفقها على عيالك وتقو بها على عبادتك ، قال : سبحان الله ، انا ادلك على طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هذا ؟ قال ابن الربيع : فخرجنا من عنده ، فقال هارون : اذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا ، هذا سيد المسلمين اليوم<sup>(١)</sup> . وكيف لا يكون سيد المسلمين في زمانه وهو القائل : لو زهد العلماء في الدنيا خضع لهم الجبابرة . نعم هذا سيد المسلمين اليوم ، لصدق حديثه وقوة إيمانه وزهده العظيم في الحياة وصلابة موقفه مع امير المؤمنين الذي جاءه ملتصقاً التذکر فاستمع باكياً وخرج شاكراً .

ادخل على ابي جعفر المنصور ، العالم الجليل سفيان الثوري ، وسأله أن يزعم اليه حاجته ، فأجابه : اتق الله فقد ملأت الارض ظلماً وجوراً ، فطأطأ المنصور رأسه ثم عاد عليه السؤال ، فأجابه : انما انزلت هذه المنزلة بسيف المهاجرين والأنصار ، وأبناءؤهم يموتون جوعاً ، فاتق الله وأوصل اليهم حقوقهم . فطأطأ المنصور شاكراً ثم كرر السؤال ، ولكن سفيان تركه وانصرف<sup>(٢)</sup> .

حين قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وهو يريد مكة ، ارسل الى

---

(١) ص ٦٧٤ ج ٤ الفتوحات المكية مختصراً .

(٢) ص ١٢٠ ج ٥ الاحياء .



عالمها الجليل ابي حازم فلما دخل عليه قال له سليمان : يا ابا حازم ،  
ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم ،  
فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب ، فقال سليمان : يا ابا حازم ،  
كيف القدوم على الله ؟ قال : يا امير المؤمنين ، اما المحسن فكالفائب  
يقدم على امله ، واما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه . فبكى سليمان ،  
وقال : ليت شعري ما لي عند الله ؟

قال ابو حازم : اعرض نفسك على كتاب الله تعالى ، حيث قال :  
( ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم ) . قال سليمان : فأين  
رحمة الله ؟ قال : قريبا من المحسنين ، قال : يا ابا حازم ، اي عباد الله  
أكرم ؟ فقال : اهل البر والتقوى ، قال : فأي الأعمال افضل ؟ فقال :  
أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ، قال : اي الكلام اسمع ؟ فقال :  
قول الحق عند من تخاف وترجو . قال : فأي المؤمنين اخسر ؟ فقال :  
رجل خطأ في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه غيره ، قال  
سليمان : ما تقول فيما نحن فيه ؟ فقال : أوتعفيني ؟ قال : لا بد فانها  
نصيحة بلقيس الى . فقال : ان آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هذا  
المال سادة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم ، حتى قتلوا منهم  
مقتله عظيمة وقد ارتحلوا ، فلو شعرت بما قالوا ومما قيل لهم . فقال  
رجل من جلسائه : بشيا قلت . قال ابو حازم : ان الله قد اخذ  
الميثاق على العلماء ليعينه للناس ولا يكتموه (١) .

أسمعت يا أخي مقالة الشيخين الجليلين سفيان وابن حازم لخلفتين  
المنصور وسليمان بأيديهما كل اسباب القوة وهل علمت نتيجة صدق  
الجواب ، وخشونة الكلام وقسوة اللفظ عند من يخشى الله تعالى ولو  
ساعة من نهار .

---

(١) ص ١٢١ ج ٥ الاحياء .

دعا عمر بن مبيرة فقهاء أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل المدينة ،  
وأهل الشام ، فجعل يسألهم واحداً واحداً ، ثم طلب منهم الانصراف  
وخلا بالشعبى عالم أهل الكوفة ، وبالحسن البصري عالم أهل البصرة ،  
فأقبل على الشعبى فقال : يا أبا عمرو : إني أمين أمير المؤمنين على العراق  
وعامله عليها ، ورجل مأمور على الطاعة ، ابتليت بالرعية ولزمني حقهم ،  
فأنا أحب حفظهم واقعد ما يصلحهم مع النصيحة لهم ، وقد يبلغني عن  
المصابة من أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه ، فأقبض طائفة من عطائهم ،  
فأضعه في بيت المال ، ومن نيتي أن أرده عليهم ، فيبلغ أمير المؤمنين إني  
قد قبضته على ذلك النحو ، فيكتب إلي أن لا ترده فلا أستطيع رد  
أمره ولا إنفاذ كتابه ، وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة ، فهل عليّ في  
هذا تبعة ؟ وفي أشباهه من الأمور ، والنية فيها على ما ذكرت .

قال الشعبى : فقلت أصلح الله الأمير ، إنما السلطان والد يخطيء  
ويصيب ، قال : فسر بقولي وأعجب به ، ورأيت البشر في وجهه ،  
وقال : فله الحمد ، ثم أقبل على الحسن ، فقال ما تقول يا أبا سعيد ؟  
قال : لقد سمعت قول الأمير يقول : إنه أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله  
عليها ، ورجل مأمور على الطاعة ، ابتليت بالرعية ولزمني حقهم والنصيحة  
لهم . والتعهد بما يصلحهم ، وحق الرعية لازم له وحق عليك أن تحوطهم  
بالنصيحة ، وإني سمعت عبد الرحمن بن سمرة القرشي صاحب رسول الله ﷺ  
يقول : قال رسول الله ﷺ ( من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم  
الله عليه الجنة ) ، ويقول الأمير إني ربما قبضت من عطائهم إرادة صلاحهم  
واستصلاحهم ، وإن يرجعوا إلى طاعتهم فيبلغ أمير المؤمنين إني قبضتها  
على ذلك النحو ، فيكتب إلي أن لا ترده ، فلا أستطيع رد أمره ، ولا  
أستطيع إنفاذ كتابه ، وحق الله ألزم من حق أمير المؤمنين ، والله أحق  
أن يطاع ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فاعرض كتاب أمير المؤمنين

على كتاب الله تعالى فإن وجدته موافقاً لكتاب الله فخذ به وإن وجدته مخالفاً لكتاب الله فانبذه ، يا ابن هبيرة ، اتق الله فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين ، يزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرِكَ إلى ضيق قبرِكَ ، فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك ، وتقدم إلى ربك وتنزل على عملك .

يا ابن هبيرة : إن الله ليمنعك من يزيد وإن يزيداً لا يمنعك من الله وإن أمر الله فوق كل أمر ، وإنه لا طاعة للمخلوق في معصية الله ، وإنني أحذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

فقال ابن هبيرة : أربع على ظلمك ، وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين ، فإن أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم ، وصاحب الفضل ، وإنما ولاه الله ما ولاه من أمر هذه الأمة ، لعلمه به وما يعلمه من فضله ونيتته ، فقال الحسن : يا ابن هبيرة : الحساب من ورائك سوط بسوط ، وغضب بغضب والله بالمرصاد .

يا ابن هبيرة : إنك إن تلقى من ينصح لك في دينك ويحملك على أمر آخرتك خير من أن تلقى رجلاً يغرنك ويمنيك ، فقام ابن هبيرة وقد بسر وجهه وتغير لونه .

قال الشعبي فما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربي بين المقارف ، وما شهدنا مشهداً إلا برز علينا ، وقال لله تعالى ، ثم قال الشعبي : أنا اعاهد الله أن لا أشد سلطاناً بعد هذا المجلس فأحابيه<sup>(١)</sup> .. لا عجب من موقف هذا الإمام ، فهو من 'جل التابعين وصلحاء المؤمنين وزهاد العلماء ، ولكن إن تعجب فاعجب من أمثال ابن

---

(١) ص ٧٦ ج ٥ الاحياء .

هيرة عامل يزيد بن معاوية لذلك الكلام الشديد . أرأيت موقف هؤلاء  
الحكام مع ظلمهم ؟! مع سادة العلماء وأئمة المسلمين .

.. عن الامام الشافعي رحمه الله تعالى ، قال حدثني عمي محمد بن علي  
قال : اني لحاضر مجلس امير المؤمنين ابي جعفر المنصور ، وفيه ابن  
ابي ذؤيب ، وكان والي المدينة الحسن بن زيد قال : فأتى الغفاريون  
فشكوا الى ابي جعفر شيئا من امر الحسن بن زيد ، فقال الحسن هذا ،  
يا امير المؤمنين : سل عنهم ابن ابي ذؤيب قال : فسأله فقال : ما تقول  
فيهم يا ابن ابي ذؤيب ، فقال : اشهد انهم تحطم في اعراض الناس ، كثير  
الأذى عليهم ، فقال ابو جعفر قد سمعتم فقال الغفاريون : يا امير المؤمنين  
سأله عن الحسن بن زيد ، فقال يا ابن ابي ذؤيب ما تقول في الحسن بن  
زيد ، فقال اشهد انه يحكم بغير الحق ويتبع هواه ، فقال سمعت يا حسن  
ما قال فيك وهو الشيخ الصالح ، فقال يا امير المؤمنين : سأله عن نفسك ؟  
فقال ما تقول في ؟ قال تعفيني يا امير المؤمنين : قال أسألك بالله ألا  
اخبرتني ، قال تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك ، قال والله لتخبرني :  
قال اشهد انك اخذت المال من غير حقه ، فجملته في غير اهله ، وأشهد  
ان الظلم ببابك فاش ، قال : فجاء ابو جعفر من موضعه حتى وضع يده في  
قفيا ابن ابي ذؤيب فقبض عليه ، ثم قال : أما والله لولا اني جالس هنا  
لأخذت فارس والروم والديلم والترك ، بهذا المكان منك ، قال :

فقال ابن ابي ذؤيب : يا امير المؤمنين قد ولي ابو بكر وعمر فأخذوا  
الحق وقسموا بالسوية وأخذوا بأقفاء فارس والروم ، وأصغروا انوفهم ، قال  
فخلى ابو جعفر قفاه وخلي سبيله ، قال : والله لولا اني اعلم انك صادق  
لقتلتك . فقال ابن ابي ذؤيب والله يا امير المؤمنين اني لأنصح لك من  
ابنك المهدي ، قال فبلغنا ان ابن ابي ذؤيب لما انصرف من مجلس  
المنصور ، لقيه سفيان الثوري فقال : يا أبا الحارث : لقد سرتني ما خاطبت

به هذا الجبار ، ولكن ساءني قولك له ( ابنك المهدي ) فقال يغفر الله لك يا أبا عبدالله - كلنا مهدي كلنا كان في المهد <sup>(١)</sup> . بمثل هذه الصراحة المتناهية نطق العالم الجليل ابن ابي ذؤيب وبمثل هذا الجواب نطق المنصور مسبقاً جوابه بالقسم الاعظم « والله لولا اني اعلم انك صادق لقتلتك » .

لما اشتدت الجفوة بين الشيخ منذر بن سعيد والخليفة عبد الرحمن الناصر نتيجة محاسبة المنذر له في اسرافه على بناء الزهراء كما ذكرنا في الفصل السابق ، اراد ولده الحكم ان يزبل ما بينهما فاعتذر له عند الخليفة فقال : يا امير المؤمنين انه رجل صالح وما اراد الا خيراً ، لو رأى ما انفقت وحسن تلك البنية لعذرک : ويريد بالبنية هنا القبة التي بناها الناصر بالزهراء واتخذ قراميدها من فضة وبعضها مغشى بالذهب وجعل سقفها نوعين صفراء فاقعة الى بيضاء ناصعة يستلج الابصار شعاعها - فلما قال له ولده ذلك ، امر ففرشت بفرش الديباج ، وجلس فيها لأهل دولته ، ثم قال لقرايته ووزرائه ، أرايتم ام سمعتم ملكاً كان قبلي صنع مثل ما صنعت ؟ فقالوا لا والله يا امير المؤمنين ، وإنك الاوحد في شأنك ، فبينما هم على ذلك ، إذ دخل منذر بن سعيد ناكساً رأسه ، فلما اخذ مجلسه قال له ما قال لقرايته ، فأقبلت دموع المنذر تنحدر على لحيته - لسوء ما رأى - وقال : والله يا امير المؤمنين ، ما ظننت ان الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا ان تمكنه من قيادتك هذا التمكن ، مع ما أتاك الله تعالى وفضلك به على المسلمين حتى ينزلك منازل الكافرين ، فاقشعر الخليفة من قوله وقال له : انظر ما تقول كيف انزلني الله منازلهم ، فقال نعم : أليس الله تعالى يقول : ( ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج

---

(١) ص ٧٧ ج ٧ الاحياء .



عليها يظهرون<sup>(١)</sup> ) فوجم الخليفة ونكس رأسه ملياً وجعلت دموعه تنحدر على لحيته ثم اقبل على المنذر ، وقال له جزاك الله خيراً وعن الدين خيراً فالذي قلت هو الحق ، ثم قام من مجلسه وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قراميدها تراباً على صفة غيرها<sup>(٢)</sup> وهكذا ارشد هذا الجواب الخليفة ولو كان الجواب مؤذياً حقاً ، لأن الناصر من الذين يعتقدون بالاسلام ويطبقونه ومن المؤمنين بقوله تعالى ( الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هدام الله واولئك هم اولوا الألباب<sup>(٣)</sup> ) .

لما ولي الرشيد الخلافة ، زاره بعض العلماء مهنئين له ، بما صار اليه من امر الخلافة الا ان سفيان الثوري كبير العلماء لم يزره ، وكان هارون مؤاخياً له من قبل ذلك ، ويحاله ويستمع اليه ، فاشتاق هارون الى زيارة سفيان ، ليخلو به ويحدثه ، ولكن سفيان اعرض عن ذلك ، فاشتد ذلك على هارون ، فكتب اليه كتاباً يقول فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هارون الرشيد امير المؤمنين الى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري .

اما بعد ، يا اخي قد علمت ان الله تبارك وتعالى ، آخى بين المؤمنين ، وجعل ذلك فيه وله ، واعلم اني قد آخيتك مؤاخاة لم اصرم بها حبك ولم اقطع بها ودك واني منطو لك على افضل المحبة والارادة ، ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله لأتيتك ولو حبوا ، لما اجد لك في قلبي من المحبة ، واعلم يا ابا عبد الله انه ما بقي من اخواني واخوانك

---

(١) الآية ٣٣ الزخرف .

(٢) مقال ، بين خليفة وقاض في مجلة الازهر لشهر رمضان سنة ١٣٧١ للاستاذ عبد الحميد العبادي .

(٣) آية ١٨ الزمر .

احد إلا وقد زارني وهناني بما صرت اليه ، وقد فتحت بيوت الاموال  
وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي ، وقرت به عيني ،  
واني استبطأتك فلم تأتني ، وقد كتبت اليك كتاباً شوقاً مني اليك  
شديداً ، وقد علمت يا ابا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته  
ومواصلته ، فاذا ورد عليك كتابي فالعجل العجل . فلما كتب الكتاب  
التفت الى من عنده ، فاذا كلهم يعرفون سفيان الثوري وخشونته ،  
فقال : عليّ برجل من الباب ، فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقاني ،  
فقال : يا عباد خذ كتابي هذا فانطلق به الى الكوفة ، فاذا دخلتها فسل  
عن قبيلة بني ثور ، ثم سل عن سفيان الثوري ، فاذا رأيته فألق كتابي  
هذا اليه ، وع بسمعك وقلبك جميع ما يقول ، فأحص عليه دقيق امره  
رجليه لتخبرني به ، فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة  
فسأل عن القبيلة فأرشد اليها ، ثم سأل عن سفيان ، فقبل له : هو في  
المسجد . قال عباد : فأقبلت الى المسجد فلما رأيته قام قائماً وقال :  
اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، واعوذ بك اللهم من طارق  
يطرق إلا بخير ، قال عباد : فوقعت الكلمة في قلبي فخرجت ، فلما رأيته  
نزلت بباب المسجد قام يصلي ، ولم يكن وقت صلاة ، فربطت دابتي  
بباب المسجد ودخلت ، فاذا جلساؤه قد نكسوا رؤوسهم ، كأنهم لصوص  
قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته ، فسلمت فما رفع احد  
إليّ رأسه ، وردوا السلام عليّ ، فبقيت واقفاً فما منهم أحد يعرض عليّ  
الجلوس وقد علاني من هيبتهم الرعدة ، ومددت عيني اليهم ، فقلت ان  
المصلي هو سفيان . فرميت بالكتاب اليه ، فلما رأى الكتاب ارتعد  
وتباعد منه ، كأنه حية عرضت له في محرابه ، فرجع وسجد وسلم  
وأدخل يده في كمه ولفها بعباءته وأخذه فقلبه بيده ، ثم رماه من كان  
خلفه ، وقال : يأخذه بعضكم يقرؤه ، فاني استغفر الله ان امس شيئاً  
مسه ظالم بيده ، قال عباد فأخذه بعضهم فحله كأنه خائف من فم حية

تنهشه ثم فضه وقرأه وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب ، فلما فرع من قراءته ، قال : اقلبوه واكتبوا الى للظالم في ظهر كتابه . فقليل له : يا ابا عبد الله انه خليفة ، فلو كتبت اليه في قرطاس نقي ، فقال : اكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه ، فان كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به ، وان كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ، ولا يبقى شيء منه ظالم عنده فيفسد علينا ديننا ، فقليل له : ما نكتب ؟ قال : اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفيان بن سعيد ابن المنذر الثوري الى العبد المغرور بالآمال ، هارون الرشيد الذي سلب حلاوة الايمان .

اما بعد : فاني قد كتبت اليك اعرفك اني قد صرمت حبلك ، وقطعت ودك وقلبت موضعك ، فانك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك ، بما هجمت به على بيت مال المسلمين ، فانفقته في غير حقه ، وانفقته في غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت قائم عني حتى كتبت اليّ تشهدني على نفسك ، اما اني قد شهدت عليك انا واخواني الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنؤدي الشهادة عليك غداً بين يدي الله تعالى .

يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضام ، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم ، والعاملون عليها في ارض الله تعالى ، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ام رضي بذلك حملة القرآن واهل العلم والارامل والايتام ، ام رضي بذلك خلق من رعيته ، فشد يا هارون مثزرك واعد المسألة جواباً ، وللبلاد جلباباً ، واعلم انك ستقف بين يدي الحكم العدل ، فقد رزئت في نفسك اذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيق القرآن ومجالسة الاخيار ، ورضيت لنفسك ان تكون ظالماً وللظالمين اماماً الى ان يقول : واعلم يا هارون اني قد نصحتك وما أبغيت في النصيح

غاية ، فاتق الله يا هارون في رعيتك واحفظ محمداً ﷺ في امته ،  
واحسن الخلافة عليهم .

واعلم ان هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل اليك ، وهو صائر الى  
غيرك ، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد ، فمنهم من تزود  
زادا نفعه ، ومنهم من خسر دنياه وآخرته واني احسبك يا هارون ممن  
خسر دنياه وآخرته ، فايك اياك ان تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا  
اجيبك عنه والسلام<sup>(١)</sup> .

تلك - يا أخي الكريم - صور واقعة وأحداث شاخصة ، سجلها  
تاريخ علماء امتك المجيدة بمداد من نور وإيمان ، نور يضيء الطريق المدهم

---

(١) ٨٨ و ٨٩ ج ٧ الاحياء ، وإتماماً لفائدة القارئ الكريم ، فاني اثبت رد الفعل الذي  
حصل للرشد حين بلوغه كتاب سفيان رحمه الله تعالى وبه يتجلى موقف الحكام من العلماء الذين  
نذروا انفسهم للإسلام ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، في اجوبتهم التي لا تعرف النفاق . ولا  
الخوف من الحاكم مهما أوتى من قوة وسلطان . قال عباد : فألقى الى الكتاب منشوراً غير مطوي  
ولا مختوم ، فأخذه وأقبلت الى سوق الكوفة ، وقد وقعت الموعظة من قلبي ، فناديت يا اهل  
الكوفة فأجابوني ، فقلت لهم : يا قوم من يشترى رجلاً هرب من الله الى الله ، فأقبلوا إلي بالدنانير  
والدراهم ، فقلت لا حاجة لي في المال ، ولكن جبة صوف .. وعباءة قطوانية قال فأتيت بذلك ،  
ونزعت ما كان علي من اللباس الذي كنت ألبسه مع امير المؤمنين ، وأقبلت اقود البرذون  
- الدابة التي كان يركبها - وعليه السلاح الذي كنت احمله ، حتى اتيت امير المؤمنين راجلاً  
فتنهزأ بي من كان على باب الخليفة ، ثم استؤذن لي ، فلما دخلت عليه وبصر بي على تلك الحالة ،  
قام وقعد ، ثم قام قائماً ، ويدعو بالويل والحزن ويقول انتفع الرسول وخاب المرسل ، ما لي  
وللدنيا ما لي والملك يزول عني سريعاً ثم القيت الكتاب اليه منشوراً كما دفع إلي فأقبل هارون  
يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه ، ويقرأ ويشق ، قال بعض جلسائه : يا امير المؤمنين لقد  
اجترأ عليك سفيان فلو وجهت اليه فأثقلته بالحديد ، وضيق عليه السجن ، كنت تجعله عبرة  
لغيره ( تلك مقالة بطانة السوء في كل زمان ) فقال هارون : اتركوا يا عبيد الدنيا ، المغرور  
من غررتهم والشقي من اهلكتموه وان سفيان امة وحده ، فتركوا سفيان وشأنه اه . وتلك  
اجوبة المؤمنين ومقالة الصادقين الذين يخشون الله والدار الآخرة ولو جوبهوا بكلام تضيق منه  
صدور الآخرين .. ؟ وسمعوا حديثاً نأبى آذان من اعرضوا عن ذكر الله سماعه والانصات اليه .

الحالك ، وإيمان يملأ القلوب بالخوف الشديد من الله وحده ولنيل رضوانه ،  
اتبعها السادة العلماء ، سالكين سلوك الغلظة في الجواب على أسئلة الحكماء ،  
وانذارهم وتوعدهم بصريح العبارة وشدة الكلام ، لإيقاظ الغافلين منهم  
عن ذكر الله ، الآمنين مكره العظم ، ولإفهامهم ان في الدنيا رجالاً لا  
يخافون بطشهم ، ولا يرهبون سلطانهم ، وانهم وجدوا من اجل الاسلام  
وحده .

اما الحكماء فقد استسلموا لعزة الاسلام وانقادوا طائعين او مكرهين  
لأجوبة العلماء لأنهم يعرفون حق العلم وسلطانه ويؤمنون بوجود  
توقير العلماء .

اما الطريق الثاني الذي ذكره الامام الغزالي في سلوك العلماء لجواب  
الحكماء اذا سألهم او طلبوا منهم الكلام فهو :

التلطف بالجواب من غير نفاق ، والتعريض بالسائلين من غير جبن  
والتعريف بأحكام الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وان كان الجواب  
لا يوافق اهواء الحكماء او لا يحقق رغباتهم .

وهذا الطريق قد سلكه العلماء قديماً وحديثاً ، وقد امتلأ تأريخهم  
الحافل بمثل هذه الحوادث وقد بلغت من الكثرة ما جعلني اختار منها  
ما اراه مناسباً ، يثير العظة ويؤخذ منه العبرة . وهذا ما نقصده  
ونسعى اليه .

.. قال مقاتل بن سليمان ، دخلت على حماد بن سلمة ، فإذا ليس في البيت  
إلا حصير وهو جالس وفي يده مصحف يقرأ فيه ، وجراب فيه علمه ،  
ومطهرة يتوضأ منها ، فبينما انا جالس اذ دق الباب ، فقال حماد :  
يا حبيبة اخرجي فانظري من هذا ؟ .. فقالت رسول محمد بن سليمان الى  
حماد بن سلمة ، فأذن له فدخل ، فقال بعد ان سلم اما بعد : فصبحك الله

بما صبح به اولياءه واهل طاعته ، وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها والسلام . فقال : يا حبيبة هلم الدواة ثم قال لي : اقلب كتابه . واكتب أما بعد : فأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته ، إنا ادركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً فإن وقعت لك مسألة فأتنا وسل ما بدا لك ، وإن أتيتني فلا تأتني بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح إلا نفسي والسلام .

فبينما أنا جالس اذ دق الباب فقال : يا حبيبة أخرجي فانظري من هذا ؟ قالت محمد بن سليمان قال : قولي له يدخل وحده ، فدخل وجلس بين يديه ثم ابتداء فقال : مالي اذا نظرت اليك امتلأت منك رعباً .

قال حماد : حدثني ثابت البناني قال سمعت أنساً يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول ( ان العالم اذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء واذا اراد به أن يكنز به الكنوز هاب من كل شيء ) ، فقال ما تقول رحمك الله في رجل له ابنان وهو عن أحدهما أرضى ، فأراد ان يجعل له في حياته ثلثي ماله ؟ فقال حماد لا يفعل رحمك الله ، فإني سمعت أنساً يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول ( اذا أراد الله ان يعذب عبداً من عباده في حياته وفقه الى وصية جائزة ) فعرض عليه مالا فلم يقبل وخرج .

. صدق رسول الله ﷺ ( نعم الامراء على ابواب العلماء وبش العلماء على ابواب الامراء ) فتأمل يا اخي هذا الحديث النبوي الكريم .

انتفض اهل الموصل على ابي جعفر المنصور ، وقد اشترط المنصور عليهم ان انتفضوا تحل دماؤهم له ، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم الامام ابو حنيفة فقال : أليس صحيحاً انه عليه السلام قال : ( المؤمنون عند شروطهم ) واهل الموصل قد شرطوا الا يخرجوا عليّ وقد خرجوا على عاملي وقد حلت لي دماؤهم ، فقال رجل منهم ، يدك مبسوطة عليهم وقولك مقبول فيهم ، فان عفوت فانت اهل للعفو وان عاقبت فما يستحقون .



فقال لأبي حنيفة : ما تقول أنت يا شيخ ألتا في خلافة نبوة وبيت امان ؟ فأجاب انهم شرطوا لك ما لا يملكون ( وهو استئصال دماهم ) وشرطت عليهم ما ليس لك ، لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاث<sup>(١)</sup> فان اخذتهم اخذت بما لا يحل ، وشرط الله الحق ان توفي ، فأمرهم المنصور بالقيام فتنفروا ثم دعاه وحده وقال يا شيخ الفول ما قلت انصرف الى بلادك ولا تفت الناس بما هو شين على امامك فتبسط ايدي الخوارج<sup>(٢)</sup> .

امتنع المنصور بحكم الشرع الذي نطق به ابو حنيفة ولو انه لم يوافق هوى نفسه ولم يستجب لرغبته الخاصة ، ان الشرع فوق كل الميول والاهواء قال النبي الكريم ﷺ ( لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ) .

دخل اقدم على سليمان بن عبد الملك ، فقال له سليمان تكلم : فقال يا امير المؤمنين اني مكلمك بكلام فاحتمله وان كرمته ، فان وراه ما تحب ان قبلته ، فقال : انا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ، ولا نأمن غشه ، فكيف بمن نأمن غشه ونرجو نصحه ، قال : يا امير المؤمنين ، انه تكنفك رجال اساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله تعالى ولم يخافوا الله فيك ، حرب الآخرة سلم الدنيا ، فلا تأمنهم على من ائتمنك الله عليه ، فانهم لم يألوا في الامانة تضيعاً وفي الامة خسفاً وعسفاً ، وأنت مسؤول عما اجتروا ، وليسوا بمسؤولين عما اجتروحت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان اعظم الناس غبناً من

---

(١) يشير الامام ابو حنيفة رحمه الله تعالى الى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث : الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة» رواه البخاري ومسلم .

(٢) ص ١٧ ج ٢ المناقب لابن الجوزي .

باع آخرته بدنياه غيره ، فقال له سليمان : اما انك قد سللت اسلنك وهو اقطع من سيفك ، قال : اجل يا امير المؤمنين ولكن لا عليك <sup>(١)</sup> .

نعم أجوبة العلماء للحكام هي للحكام انفسهم لا عليهم وكيف لا وهي تعين درب النجاة من الوقوع في الاخطاء ، والحاكم المسلم يعلم ان كل خطأ جالب للآثم يسيء الى الرعية التي ولته امرها ليحسن الرعاية بها .

لما خرج الظاهر ( بيبرس ) الى قتال التتار بالشام أخذ فتاوى العلماء يجواز اخذ مال من الرعية يستنصر به على قتالهم ، فكتب له فقهاء الشام بذلك فأجازوه ، فقال : هل بقي من احد ؟ فقيل له : نعم ، بقي الشيخ محي الدين النووي فطلبه فحضر فقال له : اكتب خطك مع الفقهاء . فامتنع ، فقال : ما سبب امتناعك فقال : انا اعرف انك كنت في الرق للأمير ( بندقدار ) وليس لك مال ثم من الله عليك وجعلك ملكاً ، وسمعت عندك الف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب وعندك مائتا جارية لكل جارية حق من الحلي ، فاذا انفقت ذلك كله وبقيت ممالكك بالبنود والصرف بدلاً من الحوائص ، وبقيت الجواري بشياهن دون الحلي ، افتيئك بأخذ المال من الرعية ، فغضب ( الظاهر ) من كلامه وقال : اخرج من بلدي - يعني دمشق ، فقال : السمع والطاعة . وخرج الى ( نوى ) فقال الفقهاء : ان هذا من كبار علمائنا وصلحائنا ومن يقتدى به فأعده الى دمشق ، فرسم برجوعه ، فامتنع الشيخ وقال : لا ادخلها والظاهر فيها ، فمات بعد شهر <sup>(٢)</sup> .

اعتذر الحاكم لأنه علم من هو النووي علماً وتقوى ولكن النووي رفض هذا الاعتذار باباء وشمم ليعطي درساً بليغاً بأن الحكام يحرم عليهم الاساءة الى مسلم وكيف للعالم ولو اتبعها بالاعتذار .

---

(١) ص ١٢٢ ج ٥ الاحياء .

(٢) ج ٩ من اخلاق العلماء .

( يقول صاحب كتاب من اخلاق العلماء ، حدثني صديقي الكريم محمد فهمي الناضوري ( باشا ) عن احمد افندي بدوي عن ابيه عن جده ، وكان من شيوخ الازهر في زمن الخديو اسماعيل .

قال : لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة وتوالت الهزائم على مصر لوقوع الخلاف بين قواد جيوشها ، ضاق صدر الخديو لذلك ، فركب يوماً مع شريف ( باشا ) وهو محرج ، فأراد ان يفرج عن نفسه ، فقال الشريف : ماذا تصنع حينما تلم بك ملة تريد ان تدفعها ؟ فقال : يا افندينا ، ان الله عودني اذا حاق بي شيء من هذا ألجأ الى صحيح البخاري يقرؤه لي علماء أطهار الانفاس ، فيفرج الله عني . قال : فكلم الخديو شيخ الجامع الازهر ، وكان الشيخ العروسي ، فجمع له صلحاء العلماء ، جمعاً واخذوا يتلون في البخاري امام القبة القديمة في الازهر ، قال : ومع ذلك ظلت الهزائم تتوالى ، فذهب الخديو ومعه شريف الى العلماء ، وقال لهم محققاً : اما ان هذا الذي تقرأونه ليس صحيح البخاري ، او انكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح ، فان الله لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئاً ، فوجم العلماء ، وابتدريه شيخ من آخر الصف يقول له : منك يا اسماعيل فلانا رويناه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر او ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم <sup>(١)</sup> : فزاد وجوم المشايخ وانصرف الخديو ومعه شريف ، ولم ينبسا كلمة ، وأخذ العلماء يلومون القائل ويؤنبونه ، فبينما هم كذلك اذا بشريف باشا قد عاد يسأل : اين الشيخ القائل للخديو ما قال ؟ فقال الشيخ : انا . فأخذه وقام ، وانقلب العلماء بعد ان كانوا يلومون الشيخ يودعونه وداع من لا يأملون ان يرجع ، وسار شريف بالشيخ الى ان دخلا على الخديو في قصره ، فاذا به قاعد

---

(١) روى الحديث البزاز والطبراني في الاوسط .

في البهو وامامه كرسي اجلس عليه الشيخ ، وقال له : أعد يا استاذ ما قلته لي في الازهر ، فأعاد الشيخ كلمته وردد الحديث وشرحه ، فقال له الخديو : وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟ قال له : يا افندينا ، أليست المحاكم المختلطة حتى فتحت بقانون يبيح الربا ؟! أليس الزنا برخصة ؟! أليس الخمر مباحاً ؟! أليس أليس ، وعدّ له منكرات تجري بلا انكار ، وقال : كيف تنتظر النصر من السماء ؟ فقال الخديو : وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب وهذه هي مدنيّتهم ؟ قال الشيخ : اذن فما ذنب البخاري وما حيلة العلماء ؟ ففكر الخديو ملياً وأطرق طويلاً ثم قال له : صدقت صدقت ، وأمر فرتبت له في ( الرزنامة ) ثلاثون جنيهاً ، وعاد الشيخ بعد هذا الى الازهر ، واخوانه قد يشسوا منه فكأنما قد خلق جديداً<sup>(١)</sup> .

وهكذا يستجيب مثل هذا الحاكم لمقالة العالم الصادق ويلتبع الاستجابة بالإكرام والتقدير .

---

(١) ١٠١ و ١٠٢ ص من اخلاق العلماء : ومن الجدير بالذكر والتعليق على هذه الواقعة ان قراءة صحيح البخاري هي من باب الدعاء ، لأن فيه ذكر الله وتحميده ، والتضرع اليه سبحانه وتعالى لطلب النصر ، كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ثبتته وذكره البخاري في صحيحه ، والدعاء مطلوب شرعاً في كل ساعة ، خصوصاً في ساعات الشدة وأوقات المحنة والضيق وكما استشهد الشيخ رحمه الله تعالى بالحديث الشريف ( .. فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم ) ولكن الدعاء وحده ليس طريقاً لرد العدو والانتصار عليه ، فلا بد ان يكون مع الدعاء القتال بإعداد لوازمه وحسن البلاء فيه ( فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ) ( انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله .. ) ( وقاتلوا المشركين ) ( يا ايها النبي خرض المؤمنين على القتال ) ، فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يدعو ويلج في الدعاء لاستئصال النصر وطلب التأييد من رب العالمين سبحانه وتعالى ، وبنفس الوقت كان يعد العدة الحربية ويحرض المؤمنين على القتال ، وربما قاتل بنفسه كما حدث في بعض غزواته ، وتلك طريقة الاسلام في رد العدو او الجهاد لحل الدعوة الاسلامية الى العالم .

## العلماء ينصحون بالحكام

يحرص العلماء الصالحون - دائماً - على ابداء النصيحة والموعظة الحسنة للحكام ، حرصاً جعلهم يتحملون كل مشقة وأذى في هذا السبيل ، ويبذلون كل جهدهم لتحقيق هذا المطلب الشرعي الكريم ، لأن الدين النصيحة كما يقول النبي الاكرم ﷺ ، ( الدين النصيحة .. قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم <sup>(١)</sup> ) ولأن الله تعالى يقول : ( ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف .. ) وهل الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف الا نصيحة وموعظة حسنة ..

وكانت النصيحة للحكام في مقدمة المنتصحين ، لأن نصيحتهم وانتصاحهم فيه الخير لكل الخير لهم ولمن يتولون امرهم لذلك رأى جلة علماء السلف الصالح ان ابداء النصيحة للحكام ، اجدى من الثورة عليهم والخروج على سلطانهم . حين لم يروا كفراً بواحاً او الحاداً في آيات الله تعالى ، او تغير احكام الشرع ، يقول الامام الحسن البصري رحمه الله تعالى ( هم يلون من امورنا الجمعة والفيء والثغور والحدود والله لا يستقيم الدين إلا بهم وان جاروا وان ظلموا . والله لا يصلح الله بهم اكثر مما ينسون <sup>(٢)</sup> ) .

وقد أجاب الامام مالك بن انس عندما سئل عن قتال الخارجين على الخليفة ، فقد قال قائل له : يجوز فقال : ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز ، فقال السائل : فان لم يكن مثله فقال دعهم ينتقم الله من ظالم لظالم ثم ينتقم من كليهما <sup>(٣)</sup> ثم يعلق الاستاذ الشيخ ابو زهرة على مقالة الامام

---

(١) رواه مسلم .

(٢) ٥٢ ص حاشية : مالك ، لابي زهرة .

(٣) ضحى الاسلام .

مالك هذه بقوله : ولسنا ندري في اي دولة قال هذا في الدولة الاموية . لم  
في الدولة العباسية ، ولعل الاقرب ان ذلك كان في عصر الدولة العباسية لأنه  
عصر نضج مالك - الفكري والفقه - ولا يصلح ان يفهم من هذا انه  
يوالي الامويين دون العباسيين ، فان منطق الذي سار عليه في حياته لا ينطق  
بذلك ، ثم هو - رحمه الله تعالى - قد وضع الصورة ( المثالية بين يدي  
سائله فقال ان كان الخليفة عمر بن عبد العزيز في تقواه وعدله واقامة الحدود  
ورفقه بالناس ، والا فليذروهم في غيهم يعمهون <sup>(١)</sup> ) ويوضح هذا المعنى في  
تفضيل النصيحة للحكام الذين يسيئون في تطبيق الاسلام الموصوفين بالحكام  
الظلمة لا الكفرة الذين اعرضوا عن تطبيق الاسلام وتحكيم القرآن يمتقدين  
بصحة هذا الاعراض - على الخروج عليهم ، وقف الحسن البصري كبير  
العلماء في العصر الاموي ، وقد سأل البعض عن الخارجين على امير المؤمنين  
عبد الملك بن مروان ، فأجاب ( لا تكن مع هؤلاء ولا هؤلاء فقال رجل  
من اهل الشام ، ولا مع امير المؤمنين يا ابا سعيد ؟ فغضب وخط بيده ثم  
قال ولا مع امير المؤمنين يا ابا سعيد . ولا مع امير المؤمنين ) .

ولم يكن هذا الموقف خاصاً بهذين الامامين الجليلين بل هو موقف الامامين  
سعيد بن المسيب واحمد بن حنبل واضرابها فاكتفى هؤلاء بالنصيحة  
وايذاء الموعظة الحسنة لحكامهم . تلك التي لم تخل من شدة في الكلام وتخويف  
بالله المنتقم الجبار ، وها هي صور من هذه النصائح والمواعظ ..

كتب الامام مالك بن انس رحمه الله تعالى رسالته الشهيرة ، الى هارون  
الرشيد ، يعظه فيها وينصح وقد جاء في مقدمتها اما بعد : فاني كتبت  
اليك بكتاب لم آلك فيه رشداً ، ولم ادخر فيه نصحاً ، تحميد الله وادبا  
عن رسول الله ﷺ ، فتدبره بعقلك وردد فيه بصرك وارعه سمعك ، ثم

---

(١) ص ٥١ مالك ، لابي زهرة .



اعقله بقلبك ، واحضر فهمك ، ولا تغيب عنه ذهنك ، فان فيه الفضل في الدنيا وحسن ثواب الله في الآخرة .

اذكر نفسك في غمرات الموت ، وكربة ما هو نازل بك منه ، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على الله سبحانه ثم الحساب ثم الخلود بعد الحساب ، وأعد لله عز وجل ما يسهل عليك احوال تلك المشاهد وكرها ، فإنك لو رأيت سخط الله تعالى وما صار اليه الناس من ألوان العذاب وشدة نقمته عليهم ، وسمعت زفيرهم في النار وشهيقهم مع كلوح وجوهم وطول غمهم وتقلبهم في دركاتهما على وجوهم ، ولا يسمعون ولا يبصرون ، ويدعون بالويل والثبور ، وأعظم من حسرة اعراض الله عنهم وانقطاع رجائهم وإجابته ايام بعد طول النعم ، بقوله : ( اخسثوا فيها ولا تكلمون ) .

ثم قال له : لا تأمن على شيء من أمرك من لا يخاف الله ، فانه بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال ( شاور في امرك الذين يخافون الله ) ، احذر بطانة السوء وأهل الردى على نفسك فانه بلغني عن النبي ﷺ انه قال : ( ما من نبي ولا خليفة إلا وله بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتنهيه عن المنكر وبطانة لا تألوه خبالاً )<sup>(١)</sup> ..

ثم قال : لا تجر ثيابك فان الله لا يحب ذلك ، فقد بلغني عن النبي ﷺ انه قال ( من جر ثيابه خيلاء لم ينظر الله اليه يوم القيامة )<sup>(٢)</sup> ) أطع الله في معصية الناس ولا تطع الناس في معصية الله ، فقد بلغني عن النبي ﷺ انه قال ( لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق )<sup>(٣)</sup> ، الى آخر تلك الرسالة العظيمة الجريئة ، التي احتوت على كل معاني الايمان ، والدعوة الى التمسك بأحكام

---

(١) الخبال : الفساد .

(٢) ذكره الفزالي في الاحياء ص ٧٧ ج ٧ .

(٣) مر تخريج الحديث .

الاسلام وحدوده وآدابه ، وهي موعظة حقاً تجل منها القلوب ونصيحة صادقة تذرف عليها العيون ، وتقرب المسلم من ربه لتنال رضاه ، ان انتصح بها ، واستمع اليها ، وجعلها موضع التطبيق والتنفيذ ، وقد تقبلها الرشيد بقبول حسن - وشكر الامام مالكاً عليها ، وتلك من صفات الحاكم المسلم ، ونستمع الى نصيحة اخرى اليه ، جاءت من الإمام ابي يوسف القاضي - .

إذا لم يفت هذا القاضي الجليل من تقديم النصيحة للرشيد في مقدمة كتابه الخراج الذي وضعه بناء على طلب الرشيد جاء في مقدمة هذا الكتاب ..

يا امير المؤمنين : إن الله وله الحمد ، قد قللك امرأ عظيماً ثوابه اعظم الثواب وعقابه اشد العقاب ، قللك امر هذه الامة ، فأصبحت وأمست وأنت تبني لخلق كثير ، قد استرعاهم الله ، واثمنتك عليهم ، وابتلاك بهم وولاك امرهم ، وليس يلبث البنيان اذا أسس على غير التقوى ان يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناء وأعان عليه ، فلا تضيعن ما قللك الله من امر هذه الامة والرعية ، فإن القوة في العمل باذن الله ، لا تؤخر عمل اليوم الى غد ، فإنك اذا فعلت ذلك أضعت ، ان الأجل دون الأمل فبادر الأجل بالعمل ..

فإنه لا عمل بعد الاجل ، ان الرعاية مؤدون الى ربهم ما يؤدي الراعي الى ربه ، فأتم الحق فيما ولاك الله وقللك ولو ساعة من نهاره ، فإن اسعد الرعاية عند الله يوم القيامة راعٍ سعدت به رعيته ، ولا تزغ فتزيغ رعيته ، وإياك والامر بالهوى والأخذ بالفضب ، واذا نظرت الى امرين ، احدهما للآخرة والآخر للدنيا فاختر امر الآخرة على امر الدنيا ، فان الآخرة تبقى والدنيا تفنى ، وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك في امر الله سواء ، القريب والبعيد ، ولا تخف في الله لومة لائم ، واحذر فان الحذر بالقلب وليس باللسان ، واثق الله فانما التقوى بالتوقي ومن يتق الله يتقه ...

اني أوصيك يا امير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ، ورعاية ما استرعاك الله ، وأن لا تنظر في ذلك إلا اليه وله ، فانك إن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى ، وتعمى في عينيك وتتعمى رسومه ويضيق عليك رحبه ، وتنكر منه ما تعرف ، وتعرف منه ما تنكر ، فخصم نفسك خصومة من الفالج لها لا عليها ، فان الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن مواطن الهلكة ، بأذن الله ، وأورده اماكن الحياة والنجاة ، فاذا ترك ذلك اضاعه وان تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه اسرع وبه آخر واذا أصلح كان اسعد من هنالك بذلك ووفاء الله اضعاف ما وفى له ، فاحذر ان تضيع رعيته فيستوفي ربهها حقها منك ، ويضيعك بما أضعت اجره ، وانما يدعم البنيان قبل ان ينهدم . وانما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله امره ، فلست تنسى . ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يغفل عنك ، ولا يضيع حظك من هذه الدنيا في هذه الليالي والايام كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحاً وتهليلاً وتمجيذاً والصلاة على رسول الله ﷺ ..

نبي الرحمة وامام الهدى ... (١) هكذا كان علماء السلف الصالح ، يستغلون كل فرصة تمكنهم من ايصال نصائحهم الى الحكام ، وهل هناك فرصة اعظم ، من ان يطلب الرشيد وضع كتاب له في الاموال او قبل في النظام الاقتصادي ليتبناه ويأمر بتنفيذه ، فينتظره الرشيد بفارغ الصبر وثم تكون مقدمة هذا ( النظام ) كما ذكرنا منها . حقاً انها النصيحة لله ولرسوله .. ولأئمة المسلمين .

وهذا الامام جعفر الصادق رضي الله عنه ، يقول لأبي جعفر المنصور حين استدعاه في احدى المرات ، ناصحاً له .... لا تقبل في ذي رحمك وأهل الرعاية من اهل بيتك ، قول من حرم الله عليه الجنة ، وجعل مأواه النار ،

---

(١) مقدمة كتاب الخراج للامام ابي يوسف القاضي .

فان النام شاهد زور ، وشريك ابليس في الاغراء بين الناس ، فقد قال الله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ) ، ونحن لك انصار وأعوان ، لملكك دعائم وأركان ، ما أمرت بالمعروف – والاحسان وأمضيت في الرعية أحكام القرآن ، وأرغمت بطاعتك الله انف الشيطان ، وإن كان يجب عليك في سعة وكثرة علمك ومعرفتك بآداب الله ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ، فان المكافي ليس بالواصل وإنما الواصل ، من اذا قطعتة رحمة وصلها ، فصل رحمك يزد الله في عمرك ، ويخفف عنك الحسلب يوم حشرك ( لقد صدق الصادق رحمه الله تعالى فان للعلماء مع الحكام ما امر الحكام بالمعروف والاحسان وأمضوا في الرعية أحكام القرآن وأرغموا لطاعتهم لله انف الشيطان ومن هذه المعصية مشاركة العلماء للحكام في تولى المسؤولية ) .

قال المنصور : قد صفحت عنك لقدرك ، وتجاوزت عنك لصدقك ، فحدثني عن نفسك بحديث اتعظ به ويكون لي زاجر صدق عن الموبقات . قال الصادق : عليك بالحلم ، فانه ركن العلم . واملك نفسك عند اسباب القدرة ، فانك ان تفعل ما تقدر عليه ، كنت كمن شفى غيظاً ، او تداوى حقداً او يحب ان يذكر بالصلوة ، واعلم انك ان عاقبت مستحقاً لم تكن عناية ما توصف به الا العدل ، والحال التي توجب الشكر افضل من الحال التي توجب الصبر ، قال المنصور : وعظت فأحسننت وقلت فما وجزت (١) ...

وهذا الامام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي قال محدثاً عن نفسه ، بعث اليّ ابو جعفر المنصور امير المؤمنين وأنا بالساحل ، فأتيته ، فلما وصلت اليه سلمت عليه بالخلافة ، فرد علي واستجلسني ، ثم قال لي : ما الذي ابطأ بك

---

(١) ص ١٢ بحار الانوار ج ١ في احوال الصادق ص ٢٦٠ او ١٢٧ الامام الصادق لمحمد حسين المظفري .

عنا يا اوزاعي ؟ قلت : وما الذي تريد يا امير المؤمنين ؟ قال اريد الأخذ  
عنكم والاعتباس منكم قلت : انظر يا امير المؤمنين ان لا تجهل شيئاً مما اقول ،  
قال وكيف اجهله وأنا اسألك عنه ، وفيه وجهت اليك ، وأقدمتك له ،  
قلت أخاف ان تسمعه ثم لا تعمل به . قال الاوزاعي فصاح بي الربيع وأهوى  
بيده الى السيف فانتهره المنصور ، وقال هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة ،  
فطابت نفسي وانبسطت في الكلام ، فقلت : يا امير المؤمنين حدثني مكحول  
عن عطية بن بشر قال : قال رسول الله ﷺ : ( ايما عبد جاءته موعظة من  
الله في دينه فانها نعمة من الله سبقت اليه فان قبلها بشكر وإلا كانت حجة  
من الله عليه ليزداد إثماً ويزداد الله بها سخطاً عليه ) .

يا امير المؤمنين : من كره الحق فقد كره الله إن الله هو الحق المبين ..  
إن الذي لين قلوب امتمكم لكم حين ولاكم امورهم ، لقرابتكم من رسول  
الله ﷺ ، وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً ، مواسياً لهم بنفسه من ذات يده ،  
محموداً عند الله وعند الناس ، فحقيق بك ان تقوم له بالحق ، وأن تكون  
بالقسط له فيهم قائماً ، ولعوراتهم سائراً ، لا تغلق عليك دونهم الابواب ،  
ولا تقيم دونهم الحجاب ، تبتهج بالنعمة هندهم وتبتشس بما اصابهم من سوء ..

يا امير المؤمنين : قد كنت من شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس  
الذين اصبحت تملكهم ، احمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم . وكل له عليك نصيب  
من العدل ، فكيف بك اذا انبعث منهم فتام وراء فتام ، وليس منهم احد  
إلا وهو يشكو بلمية ادخلتها عليه ، او ظلامة سقتها اليه .

يا امير المؤمنين : حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال : كانت في يد  
رسول الله ﷺ جريدة ببستاك ويروع بها المنافقين فأناه جبرائيل عليه  
السلام فقال له : يا محمد ، ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب امتك ،  
وملأت قلوبهم رعباً ، فكيف بمن شقق استارهم وسفك دماءهم وأجلاهم عن  
بلادهم وغيبهم الخوف منه ...

يا أمير المؤمنين : إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل اليك ، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك ، يا أمير المؤمنين : بلغني ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لو ماتت سحرة على شاطئ الفرات ضيعة لخشيت ان اسأل عنها ، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك ...

يا أمير المؤمنين: قد سأل جدك العباس النبي ﷺ امارة مكة او الطائف او اليمن ، فقال النبي عليه السلام : يا عباس يا عم النبي ( نفس تحييها خير من امارة لا تحييها ) نصيحة منه لعمه وشفقة عليه ، وأخبره انه لا يغني عنه عن الله شيئاً إذ اوحى الله اليك ، ( وانذر عشيرتك الاقربين ) فقال : ( يا عباس ويا صفية عمي النبي ويا فاطمة بنت محمد اني لست اغني عنكم من الله شيئاً لي عملي ولكم عملكم ) .

وقد قال عمر بن الخطاب ، الامراء اربعة ، فأمير قوي ظلف نفسه وعمله فذلك كالمجاهد في سبيل الله ، يد الله باسطة عليه بالرحمة ، وأمير فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عمله لضعفه فهو شفا هلاك إلا ان يرحمه الله . وأمير ظلف عمله وأرتع نفسه فذلك الخطمة الذي قال فيه رسول الله ﷺ (بشر الرعاة الخطمة <sup>(١)</sup> فهو الهالك وحده) وأمير ارتع نفسه وعمله فهلكوا جميعاً . ثم قال : يا أمير المؤمنين: ان اشد الشدة القيام لله بحقه ، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى ، وانه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبه بمعصية الله اذله الله ووضعه ، فهذه نصيحتي اليك والسلام عليك ثم نهضت فقال الى اين ؟ فقلت الى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين ان شاء الله فقال : اذنت لك وشكرت نصيحتك وقبلتها قال محمد بن مصعب : فأمر له بآل يستعين به على خروجه فلم يقبله ، وقال : انا في غنى عنه ، وما

---

(١) والخطمة اسم من اسماء النار لانها تحطم ما يلقي فيها .



كنت لأبيع نصيحتي بمرض من الدنيا . وعرف المنصور مذهبه فلم يحده عليه في ذلك <sup>(١)</sup> .

هكذا كان الحكام يستمعون الى نصائح العلماء . معاهدين على تنفيذها والعمل بموجبها ، بل كانوا يسمعونها من اي وعاء خرجت ، لذلك لم نجد غرابة من الحكام الصالحين ، حينما يستمعون الى مثل هذه النصائح وهي تخرج من فم امرأة او صبي لم يبلغ الحلم ولنقرأ نصيحة امرأة لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ثم نصيحة الصبي لسيدنا عمر بن عبد العزيز . خرج رضي الله عنه من المسجد يوماً ، ومعه الجارود العبدي ، فبينما هما خارجان اذ بأمرأة على ظهر الطريق . فسلم عليها عمر فردت عليه التحية ، ثم قالت رويدك يا عمر حق أكلك كلمات قليلة ، قالت : يا عمر عهدي بك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ تصارع الفتيات ، فلم تذهب الايام حتى سميت عمر ، ثم لم تذهب الايام حتى سميت امير المؤمنين ، فأتق الله في الرعية . واعلم انه من خاف الموت خشي الفوت <sup>(٢)</sup> . قال الجارود : هيه قد اجترأت على امير المؤمنين . فقال عمر دعها أما تعرف هذه يا جارود ؟ هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سمائه . فعمر والله أحرى ان يسمع كلامها .

أراد بذلك قوله تعالى ( قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله ) <sup>(٣)</sup> . . حينما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وفدت الوفود من كل بلد ، لبيان حاجتها وللتهنئة فوفد عليه الحجازيون ، فتقدم غلام هاشمي

---

(١) روى هذه النصيحة المحدث ابن ابي الدنيا في مواعظ الخلفاء . وذكرها الامام الغزالي في الاحياء ص ٧٧ ج ٧ .

(٢) خشي الفوت : لم ينله .

(٣) الاحياء ج ٧

للكلام وكلن حديث السن ، فقال عمر : لينطلق من هو اسن منك ، فقال الغلام . اصلح الله امير المؤمنين . انما المرء باصغريه قلبه ولسانه .

فاذا منح الله عبداً لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام وعرفه فضله من سمع خطابه ولو ان الامر يا امير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو احق بمجلسك هذا منك ، فقال عمر : صدقت ، قل ما بدا لك ، فقال الغلام : اصلح الله امير المؤمنين : نحن وقد تهنت لا وفد مرزئه . وقد اتيناك لمن الله الذي من علينا بك ، ولم يقدمنا اليك رغبة ولا رهبة ، اما الرغبة فقد اتيناك من بلادنا ، واما الرهبة فقد امنا جورك بمدلك .

فقال عمر : عظمي يا غلام : فقال اصلح لله امير المؤمنين ، ان ناساً من الناس غرم حلم الله عنهم وطول املهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت بهم الاقدام فهوا في النار .

فلا يفرنك حلم الله عنك ، وطول املك وكثرة ثناء الناس عليك ، فتزل قدمك فتلتحق بالقوم ، فلا جعلك الله منهم ، والحقك بصالحهم هذه الأمة ، ثم سكت . فقال عمر : كم عمر الغلام ، فقيل هو ابن احدى عشرة سنة ، ثم سأل عنه فاذا هو من ولد سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهم ، فأثنى عليه خيراً ودعاه له .

وتمثل قائلاً :

تعلم فليس المرء يولد عالماً	وليس اخو علم كمن هو جاهل
فان كبير القوم لا علم عنده	صغير اذا التفت عليه المحافل

كتب الامام ابو حامد الغزالي رحمه الله تعالى الى مجير الدين الوزير في الدولة السلجوقية والوزراء يومئذ هم مفتاح الدولة وموجهوها والمباشرون للأمور وهم اصحاب الحل والعقد .

( ان اغاثة الخلق واجبة على الجميع ، فقد تجاوز الظلم عن الحدود ولم استطع ان اشاهد هذا الظلم ، فهاجرت من طوس ولي سنة ، حتى لا اشاهد هؤلاء الظلمة الذين لا يحملون رحمة ولا يرعون حرمة وقد ألبأتني بعض الضرورات الى زيارة البلد فوجدت الظلم مستمراً لم ينقطع (١) .

ثم يقول الى فخر الملك بعد ان ذكر المظالم وسوء اوضاع البلاد فحذره قائلاً : ( وقد نصحت للعميد كثيراً ولكنه لم يقبل النصيحة وأصبح عبرة للعالمين ونكالا للآخرين ، اعلم يا فخر الملك ، ان هذه الكلمات لاذعة مرّة قاسية لا يجرؤ عليها إلا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء ، فأقدرها قدرها فانك لا تسمعها من غيري وكل من يقول غير ذلك فاعلم ان طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق ) (٢) .

بمثل هذه النصائح القيمة التي خرجت من قلوب مؤمنة متفهمة ، ونطقتها ألسن عالمة جريئة صريحة ، لم تعرف النفاق والمداراة وسمعتها أذن واعية عاهدت الله تعالى على رهاية الأمة على اساس شرع الله وإقامة حكم القرآن . فكانوا نعم العلماء ونعم الحكام ...

---

(١) ، (٢) رسائل الامام الغزالي بالفارسية ذكرها بالعربية ابو الحسن الندوي علامة الهند في كتابه رجال في الفكر والدعوة في الاسلام .

## العلماء ومواجهة الأحكام

لعلماء السلف الصالح رحمهم الله تعالى آراء في مواجهة الأحكام، واحوال يقررونها في غشيان مجالس الأحكام تبعاً لحال الأحكام، وواقعهم من حيث عدلهم وظلمهم، او من حيث مدى تعلقهم بالاسلام وتطبيقهم له، او الاساءة والاعراض عنه.

فبالنسبة للأحكام العادلين الحريصين على تطبيق الشريعة، المنفذين لحدود الله المقيمين لشعائر الاسلام، ان هؤلاء لا خلاف بين العلماء في جواز مواجهتهم وغشيان مجالسهم، ان لم تكن مندوبة. بل واجبة، لما يترتب على هذه المواجهة من اعانة على اقامة العدل واستمرار وجوده، وتحقيق الخير وادامته لابناء الامة الاسلامية. وهو داخل في عموم قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) (١).

وهل هناك تعاون اسمي من تعاون العلماء مع الأحكام، على رعاية مصالح الأمة، على اساس احكام الاسلام، التي يحملها العلماء وينفذها الأحكام، ولذلك كان العلماء والأحكام يسارعون للاجتماع والمواجهة كل بالآخر، لتحقيق هذه الرعاية بأجلى صورها.

أما بالنسبة للأحكام الآخرين، الموصوفين بالأحكام الظلمة، وهم الذين اعرضوا عن احكام الاسلام كلياً او جزئياً في حكمهم، وهم بنفس الوقت يدعون الايمان بالاسلام، ويشهدون شهادة الحق، وربما ادوا العبادات مع المسلمين. فهؤلاء يقسم الامام الغزالي رحمه الله احوال مواجهتهم الى ثلاثة:

---

(١) الآية ٢ المائدة.

الحالة الأولى وهي الدخول عليهم : ( فهو مذموم جداً في الشرع وفيه تغليظات وتشديدات وردت الاخبار والآثار فيها ، ننقلها لتعرف ذم الشرع له ، ثم نتعرض لما يحرم منه وما يباح وما يكره على ما تقتضيه الفتوى في ظاهر العلم ) .

ثم يمضي حجة الاسلام في سرد الاخبار المتعلقة بالحكم الظلمة نذكر منها قوله صلى الله عليه وسلم .

( فمن نابذهم نجاً ومن اعتزلهم سلم او كاد ان يسلم ، ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم ) (١) .

وذلك لأن من اعتزلهم سلم من اثمهم ولكن لم يسلم من عذاب يعمه معهم ان نزل بهم ، لتركه المنابذة والمنازعة ، وقوله عليه الصلاة والسلام : ( سيكون بعدي امراء يكذبون ويظلمون ، فمن صدقهم بكذبهم وأهانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد على الحوض ) (٢) الخ ...

ثم يقول : الحالة الثانية : ان يدخل عليهم السلطان الظالم زائراً فجواب السلام لا بد منه ، وأما القيام والاكرام له فلا يحرم ، مقابلة له على اكرامه ، فانه باكرام العلم والدين مستحق للاحباد ، كما انه بالظلم مستحق للابعاد ، فالاكرام بالاكرام ، والجواب بالسلام ، ثم يجيب عليه ( على العالم ) بعد ان وقع اللقاء ان ينصحه ويرشده الى طريق المصلحة ان كان يعرف طريقاً على وفق الشرع . الخ .

ثم يقول : الحالة الثالثة : ان يعتزلهم فلا يراهم ولا يرونه ، وهو الواجب ، اذ لا سلامة الا فيه ، فعليه ان يعتقد بغضهم على ظلمهم ، ولا يحب بقاؤهم ، ولا يشني عليهم ولا يستغبر عن احوالهم الخ ...

---

(١) رواه الطبراني .

(٢) رواه الترمذي والنسائي والحاكم .

ثم يجيب الغزالي على سؤال متوقع فيقول : فان قلت فقد كان علماء السلف يدخلون على السلاطين فأقول : نعم . تعلم الدخول منهم ثم ادخل ، ثم حكى مستشهداً على ذلك :

ان هشام بن عبد الملك . قدم حاجاً الى مكة فلما دخلها ، قال : ائتوني برجل من الصحابة ، فقيل يا امير المؤمنين قد تفتانوا ، فقال : من التابعين . فأتى بطاوس الياني - العالم الجليل رحمه الله - فلما دخل عليه ، خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بأمره المؤمنين ولكن قال : السلام عليك يا هشام ، ولم يكنه ، وجلس بازائه وقال : كيف انت يا هشام ، فغضب هشام غضباً شديداً ، حتى همّ بقتله ، فقيل له : انت في حرم الله وحرم رسوله ، ولا يمكن ذلك ...

فقال : يا طاوس ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعت ؟ فازداد غضباً وغيظاً . قال هشام : خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تقبل يدي ، ولم تسلم بأمره المؤمنين ولم تكنني ، وجلست بإزائي بغير اذني ، وقلت كيف انت يا هشام .

فقال : اما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك ، فاني اخلمها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ، ولا يغضب عليّ ، وأما قولك لم تقبل يدي . فاني سمعت امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه يقول : لا يحل لرجل ان يقبل يد احد إلا امرأته من شهوة ، او ولده من رحمة ، وأما قولك لم تسلم بأمره المؤمنين ، فليس كل الناس راضين بأمرتك فكرهت ان اكذب ، وأما قولك لم تكنني فان الله سمى انبياءه وأوليائه فقال : يا داود ، يا يحيى ، يا عيسى ، وكفى اعداءه فقال : تبت يدا أبي لهب ، وأما قولك جلست بإزائي ، فاني سمعت امير المؤمنين علياً رضي الله عنه يقول : اذا اردت ان تنظر الى رجل من اهل النار فانظر الى رجل جالس وحوله قوم قيام .



فقال هشام : عظمي ، قال : سمعت من امير المؤمنين علي رضي الله عنه ، يقول : ان في جهنم حيات كالقلال <sup>(١)</sup> وعقارب كالبنغال تلدغ كل امير لا يعدل في رهيته . ثم قام وهرب . ثم ان الامام الغزالي يذكر في هذا الفصل من كتابه احياء علوم الدين ، فيقول : ( ولا يجوز الدخول عليهم إلا بعذرين ، احدهما ان يكون من جهتهم امر الزام لا امر اكرام ، وعلم انه لو امتنع اوذي ، او فسد عليهم طاعة الرعية ، واضطربت عليهم امر السياسة . فيجب الاجابة ، لا طاعة لهم ، بل مراعاة لمصلحة الخلق حتى لا تضطرب الولاية .

الثاني : ان يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواء ، او عن نفسه ، اما بطريق الحسبة او بطريق التنظيم وذلك رخصة بشرط ان لا يكذب ولا يثني عليهم ، ولا يدع نصيحة يتوقع قبولها فهذا حكم الدخول <sup>(٢)</sup> .

فعلماء السلف الصالح كان بعضهم يتخرج من مواجهة هؤلاء الحكام تعففاً وزهداً ، وإبعاداً من الوقوع في الشبهات او لاطهار صلابتهم وقوتهم ومن اولئك الامام سعيد بن المسيب مع عبد الملك بن مروان .

فقد روي ان عبد الملك بن مروان لما حج وقدم المدينة ، وقف على باب المسجد المبارك ، ثم ارسل الى سعيد بن المسيب رجلاً يدعوهُ ولا يحركه . فأثاه الرسول وقال : امير المؤمنين واقف بالباب يريد ان يكلمك ، فقال سعيد : ما لأمر المؤمنين الى حاجة ، وما لي اليه حاجة ، وان حاجته اليّ لغير مقضية ، فرجع الرسول وأخبر عبد الملك بذلك ، فقال ارجع اليه انما اريد ان أكلمه ولا تحركه ، فرجع اليه ، وأعاد الكلام ، فقال له سعيد ما قال أولاً ، فقال له الرسول ، لولا انه تقدم اليّ قبلك ما ذهبت اليه إلا

---

(١) القلال : رؤوس الجبال .

(٢) ملخص من الباب السادس ( فيما يحل من غطاة السلاطين الظلمة وحكم غشيان مجالسهم ) من كتاب احياء علوم الدين ج ٥ .

برأسك ، يرسل اليك امير المؤمنين يكلمك وتقول مثل هذه المقالة ، فقال سعيد ان كان يريد ان يصنع بي خيراً فهو بك ، وإن كان غير ذلك ، فلا أحل موتى حتى يقضي ما هو قاضي ، فرجع الرسول وأخبره بذلك فقال عبد الملك : رحم الله ابا محمد ابي إلا صلابة <sup>(١)</sup> .

وكان الآخرون من علماء السلف يواجهون هؤلاء الحكام ولكن كانت مواجعتهم يحدث فيها ما يحدث كما هو آت او شبيه به ..

فهذا الامام الغزالي يدخل على السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقي ، ليدفع الظلم عن المسلمين في اموالهم وأرواحهم ، ومن قوله له : ( .. أسفاً ان رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب ، ورقاب خليك كادت تنقض بالاطواق الذهبية <sup>(٢)</sup> ) .

وهذا الامام ابن قيمية ، شكاه اليه رجل من المسلمين فطلبوك الكبير وظلمه له ، - وكان المذكور فيه جبروت ، فدخل شيخ الاسلام وتكلم معه في ذلك ، فقال فطلبوك : انا كنت اريد ان اجيء اليك لأنك عالم زاهد .

قال ذلك مستهزئاً ، فأجابه : لا تعمل عليّ دركوان ، هكذا بخط المصنف ولعلها تعني لا تستهزئ ففقد كان موسى خيراً مني وفرعون كان شراً منك ، وكان موسى يجيء الى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ويعرض عليه الايمان <sup>(٣)</sup> .

وهذا عمرو بن عبيد العالم المعتزلي ، يدخل على المنصور ، وقال : يا امير المؤمنين ان الله عز وجل يقفلك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر ،

---

(١) ص ١٢٩ ج ٥ الاحياء .

(٢) من رسائل للامام بالفارسية ذكرها بالعربية الاستاذ الندوي في كتابه رجال الفكر والدعوة في الاسلام .

(٣) ص ٧٦ و ٧٧ ج ١ فوات الوفيات .

وان الامة خصماؤك يوم القيامة ، وان الله عز وجل لا يرضى منك الا بما  
ترضاه لنفسك ، الا وانك لا ترضى نفسك الا بأن يعدل عليك - وان الله  
عز وجل لا يرضى منه إلا بأن تعدل في رعيتك ، وان وراء بابك خيراً  
تتأجج من الجهور .

فقال سليمان بن مجالد وهو واقف على رأس المنصور : يا عمرو قد شققت  
على امير المؤمنين ، فقال عمرو : يا امير المؤمنين ، من هذا ؟ قال : اخوك  
سليمان بن مجالد ، قال عمرو : ويلك يا سليمان ، ان امير المؤمنين يموت وان  
كل ما تراه يفقد ، وانك جيفة غداً بالفناء ، ولا ينفعك إلا عمل صالح قدمته ،  
ولقرب هذا الجوار انفع لأمر المؤمنين من قربك ، وان كنت تطوي عنه  
النصيحة ، وتنهى من ينصحه ، يا امير المؤمنين ان هؤلاء اتخذوك سلفاً الى  
شهواتهم ، قال المنصور : فاصنع ماذا ؟ ادع لي اصحابك اوليهم ، قال :  
ادعهم انت بعمل صالح تحدثه ، ومر بهذا الخناق فليرفع عن اعتناق الناس  
واستعمل في اليوم الواحد عمالاً كلما رابك منهم ريب ، او انكرت على رجل  
عزلته ووليت غيره ، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ، ليقهرن به اليك  
من لانية له فيه <sup>(١)</sup> .

وهذا الليث بن سعد عالم مصر يدخل على الرشيد ، فيسأله الرشيد : ما  
صلاح بلدك ؟ فقال : يا امير المؤمنين صلاح بلدنا اجراء للنيل ، وصلاح امره  
ومن رأس العين يأتي الكدر ، فاذا صفا رأس العين صفت العين ، قال :  
صدق يا ابا الحارث <sup>(٢)</sup> .

تلك صورة ما يحدث في مواجهة العلماء للحكام ، وفيها العبرة ...

أقول : ان مواجهة الحكام فيها ما فيها ، لأن النية قد تحسن في اول

---

(١) ص ٢٨ ج ٢ المحاسن والمساوي للبيهقي .

(٢) الرحمة الغيثية .

الدخول عليهم ، ثم تتغير بإكرامهم او بالطمع فيهم ، ولا يتأسك العالم المواجه  
عن مدامنتهم او السكوت عن الانكار عليهم ، وقد كان الامام سفيان الثوري  
رحمه الله تعالى يقول : « ما أخاف من إهانتهم لي وانما أخاف من إكرامهم  
فيميل قلبي اليهم » (١) .

ولكن اذا كان العالم بصيراً بحاله ، متمكناً من ايمانه ، واثقاً بنفسه ،  
وقد دعت الحاجة الشرعية لذلك ، فلا أرى مانعاً من هذه المواجهة ، وقد  
كان علماء سلفنا يدخلون بهذه النية ، فنجد الامام مالك بن انس رحمه الله  
تعالى يصرح بذلك ويفعله فيقول : حق على كل مسلم او رجل جعل الله في  
صدره شيئاً من العلم والفقه ان يدخل على كل سلطان ويأمره بالخير وينهاه  
عن الشر ، حق يتبين دخول العالم من غيره ، فاذا كان فهو الفضل الذي  
لا بعده فضل (٢) .

وعلى هذا الاساس ينبغي ان يواجه علماء اليوم الحكام ، وما اشد الحاجة  
الى ذلك ، لتحقيق هذه المقاصد السامية التي أمر بها الاسلام ، سيما وان حكام  
المسلمين قد أحيطوا بحاشية اقل ما يقال فيهم ، انهم ليسوا من العلماء ، بل  
ليسوا من اولئك الذين يدركون واجب المرافقة وحقوق الصحبة ، التي توجب  
النصح والتذكير الى كل خير وتقوى ، هذا ما نريده من السادة علمائنا ،  
ولكن يتبادر الى الذهن هذا السؤال : هل يسمع الحكام بهذه المواجهة ؟  
وهل الحكام مستعدون لاستقبال العلماء في مجالسهم ؟ والى اي مدى يكون  
الاستعداد ؟ وهل يمكن للعلماء قول ما يريدون ؟؟

---

(١) ص ١٢٢ تلبيس ابليس .

(٢) ص ٣٥٤ المدارك ذكرها صاحب من اخلاق العلماء ص ٩٥ .

## العلماء ومنح الحكماء

اخلف العلماء في قبول منح الحكماء او أعطياتهم ، تبعاً لاختلاف آرائهم في ذلك لذلك كانوا أقساماً .

القسم الأول : كان يرفض أخذ المال من الحاكم ، ويبتعد عنه ، ومن هؤلاء ابو حنيفة وسفيان الثوري ، والفضيل بن عياض ، وأحمد بن حنبل ، وعمر بن عبيد والطبري وابن المسيب واضراهم لأن أعطيات الحكماء ومنحهم ، كانت يومئذ بمثابة امتحان يجربه بعض الحكماء للعلماء ، لمعرفة مقدار الولاء لهم .

لذلك كان الامام ابو حنيفة رضي الله عنه يرفض كل منحة وعطاء ، وهو يعلم ان رفضه هذا يعرضه للأذى والمضايقة . فقد روى ابو طالب المكي في مناقبه ( انه ارسل اليه ابو جعفر المنصور بجائزة عشرة آلاف درهم وجارية ، — كانت الأعطيات والمنح تسمى جوائز — وكان عبد الملك بن حميد وزير ابي جعفر فيه كرم وجودة في الرأي ، فقال لأبي حنيفة عندما رفضها : أنشدك الله ، ان امير المؤمنين يطلب عليك علة ، فإن لم تقبل صدق على نفسك ما ظن بك ، فأبى عليه ، فقال — الوزير — اما المال فقد أثبتته في الجوائز وأما الجارية فاقبلها أنت مني ، او قل عذرك ، حتى اعذرک عند امير المؤمنين فقال ابو حنيفة : اني ضعفت عن النساء وكبرت ، فلا استحل ان اقبل جارية لا أصل اليها ولا أجرؤ ان ابيع جارية خرجت من ملك امير المؤمنين ) .

وفي الوقت الذي كان رحمه الله تعالى يرد جوائزهم ومنحهم برفق كان يرد هداياهم كذلك . ( لقد وقع بين المنصور وزوجه الحرة شقاق بسبب ميله عنها ، وطلبت العدل منه ، فقال لها بمن ترضين في الحكومة — التحكيم —

بيني وبينك ، قالت : بأبي حنيفة ، فرضي هو ايضاً ، فأحضره وقال له :  
يا أبا حنيفة ، الحرية تخصني فانصفني منها ، قال : ليتكلم امير المؤمنين ،  
قال : يا أبا حنيفة ، كم يحل للرجل ان يتزوج من النساء فيجمع بينهن ؟  
فقال : اربع ، قال : وكم يحل له من الإماماء ؟ فقال : ما شاء ليس لمن  
عدد ، قال : أيجوز لأحد ان يقول خلاف ذلك ؟ فقال لا . قال المنصور  
قد سمعت ، فقال ابو حنيفة : انما أحل الله هذا لأهل العدل ، فمن لم يعدل  
او خاف ألا يعدل فينبغي ان لا يجاوز الواحدة ، قال الله تعالى ( فإن  
خفتم ألا تعدلوا فواحدة ) فينبغي ان نتأدب بأدب الله ، ونتعظ بمواعظه ،  
فسكت ابو جعفر وطال سكوته ، فقام ابو حنيفة وخرج ، فلما بلغ منزله  
أرسلت اليه زوج المنصور الحرة - خادماً ومعه مال وثياب وجارية وحمار  
مصري ، فردها وقال للخادم : اقرئها السلام وقل لها : انما ناضلت عن ديني وقمت  
بذلك المقام لله ، لم أرد بتلك تعرباً الى احد ولا التمسيت به دنياً <sup>(١)</sup>

أما سفيان الثوري ، والفضيل بن عياض ، فقد وضع موقفها هذا  
برفض العطاء ، حين سقنا حادثة جوابها على سؤال هارون الرشيد في  
فصل الحكماء يسألون العلماء .

أما عمرو بن عبيد ، فقد دخل على ابي جعفر المنصور يوماً فلما نصحه  
ووعظه وأراد الخروج قال المنصور : قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم ، قال  
لا حاجة لي فيها ، قال المنصور : والله تأخذها ، قال عمرو والله لا آخذها ،  
وكان المهدي ولد المنصور حاضراً ، فقال : يحلف امير المؤمنين وتحلف انت ؟  
فالتفت عمرو الى المنصور وقال : من هذا الفتى ؟ قال هو ولي العهد ابني  
المهدي ، فقال : أما والله لقد ألبسته لباساً ماهراً من لباس الأبرار ، وسميته  
باسم ما استعقه ، ومهدت له امراً : أمتع ما يكون به ، أشغل ما يكون

---

(١) ص ٣٧ ابو حنيفة للاستاذ ابي زهرة .



عنه ثم التفت عمرو الى المهدي فقال : نعم يا ابن اخي اذا حلف ابوك حنثه  
عملك لأن ابا اباك اقوى على الكفارات من عمك . فقال له المنصور : هل من  
حاجة ؟ قال لا تبعت الي حق آتيك . قال اذن لا تلاقاني ، فقال هي حاجتي ،  
ومضى فاتبعه المنصور طرفه وقال :

لكم يمشي رويداً ، لكم يطلب صيداً ، غير عمرو بن عبيد<sup>(١)</sup> . اما  
احمد بن حنبل رضي الله عنه ، فقد كان تافراً من اعطيات الحكام ومنحهم  
اشد النفور ، زاهداً فيها حتى انه كان يرفضها ولو جاءت عن طريق تولية عمل  
من اعمال الدولة .

عندما جاء الامام الشافعي الى بغداد للمرة الثانية التي اقام فيها لنشر  
مذهبه وكان الامام احمد يلتزم مجالس الشافعي . وما كان يفارقه إلا لسفر  
من اجل طلب حديث نبوي ، ولقد لاحظ الشافعي ان احمد ينوي السفر  
الى اليمن لأخذ الحديث من عبد الرزاق بن همام . ومشقة السفر هذه بعيدة  
وانها تحتاج الى اتفاق مال وأحمد لا يجد ذلك ، وكان الأمين قد كلف الشافعي  
ان يختار قاضياً الى اليمن فوجد الشافعي ان من تسهيل مهمة احمد ان يكون  
قاضياً فيها ، فيجتمع الى عبد الرزاق بن همام ، ويأخذ ما يريد من غير مشقة  
مضنية ، ولكن الامام احمد رفض طلب الشافعي هذا وقال له وهو شيخه  
الذي يكن له كل الاحترام والتقدير ، يا ابا عبد الله ان سمعت منك هذا ثانية  
لم ترني ثانية عندك<sup>(٢)</sup> .

ويروى كذلك ، ان المأمون دفع الى شيخ من شيوخ الحديث في عصره  
مالاً ليقسمه على رجال الحديث والمشتغلين فيه ، لأنه علم ان فيهم من يحتاج  
الى النفقة فأراد ان يعينهم على ما خصصوا انفسهم له ، وأخذ هؤلاء المال ،

---

(١) ص ١٩١ من اخلاق العلماء .

(٢) ص ٢٧١ المناقب لابن الجوزي .

اما احمد بن حنبل فقد رفض العطاء ، وقد عرف انه المعوزين <sup>(١)</sup> .

ولكن الامام احمد اضطر مرة لأخذ هذه الاعطيات ولكن انظروا هل لمستها يده ؟ وماذا فعل بها ، فقد روي ان وزير المتوكل كتب له : ان امير المؤمنين قد وجه اليك جائزة ويأمر بك بالخروج اليه ، فالحق ان تستغني ، وترد المال فيتسع القول لمن بغضبك <sup>(٢)</sup> . فأحمد يبدد ظلمات السعاية الى القبول ولكنه لا يمس . ويأمر ولده صالحاً بأخذه ثم يوزعه في اليوم الثاني على ابناء المهاجرين والانصار وغيرهم من اهل التجميل والحاجة وكأنه يرى انهم اولى بمال المسلمين منه وحرّموا عظامهم <sup>(٣)</sup> . وهذا الامام الطبري . عرضت عليه الجوائز فرفض وعرضت عليه ولاية المظالم والقضاء فرفض . وأشار عليه صعبه قائلين في هذا الثواب وتحبي سنة قد درست . فهزمهم قائلًا : أظن اني لو رغبت في ذلك نهيتوني عنه <sup>(٤)</sup> . وهذا سعيد بن مسيب . قد كان له في بيت المال بضعة وثلاثون ألفاً عطاءه ، فكان يدعى اليها فأبى ويقول لا حاجة لي فيها حتى يحكم الله بيني وبين بني مروان <sup>(٥)</sup> .

القسم الثاني : كان يأخذ اعطيات الحكام ، بقصد انفاقه وتوزيعه على طلبة العلم وعلى اخوانه من العلماء ، الذين اصابوا بالفاقة والعوز ليعيش هؤلاء في حياة كريمة تليق بمكانة العلم ومنزلة العلماء . والجدير بالذكر ان هذا القسم في الوقت الذي يقبل اخذ الاعطيات من الحكام . كان هذا الاخذ لا يشنهم عن محاسبتهم والانكار عليهم وإبداء النصيح الكريم لهم . ومن هؤلاء الحسن البصري والامام مالك بن انس رضي الله عنهما . فمالك كلن

(١) ص ١٨١ ج ٩ حلية الاولياء .

(٢) ص ٣ المناكير لابي الجوزي .

(٣) ص ٧٧ احمد بن حنبل للاستاذ ابي زهرة .

(٤) ص ١٨٨ ابو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الاسلام .

(٥) ص ١٢٩ ج ٥ طبقات ابن سعد الكرى .

لا يتحوب ( لا يتأثم ) من الاخذ من الخلفاء لأنه مال المسلمين ، ومن احق به من اهل العلم الذين وقفوا انفسهم على تعليم الناس امور دينهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وهم بذلك كالجند وقفوا انفسهم لحماية الثغور من الاعداء لكيلا يثلموا فيها ثلثة ينفذون منها الى الأمة ، فانه اذا كان الجند كذلك . فالعلماء لمنع الضلال ولئلا يثلم الدين الثلم الذي يصل الى قلوب الأمة فتزل القدم بعد ثبوتها وتذرق السوء <sup>(١)</sup> ...

القسم الثالث : كان يأخذ الحظ المقسوم له من الحكم ، وفي نفس الوقت يقوم بواجب الشرع نحوهم من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن هؤلاء بعض أئمة اهل البيت الكريم كالامام جعفر الصادق ، فقد كانوا يأخذون من الحكم حظ بني هاشم من الأموال ، وكذلك الامام الشافعي كان يأخذ حظه من سهم بني المطلب من الغنيمة ، وكان هؤلاء رحمهم الله تعالى ينفقون هذا المال على العلماء وطلبة العلم .

تلك أقسام العلماء في موقفهم من أعطيات الحكم ومنحهم ، في ذلك الزمان الذي كانت اموال اكثر الحكم من الحلال الطيب .

أما اذا تغيرت مصادر اموال الحكم وتبدلت ، فما موقف السادة العلماء منها . فالإمام الغزالي يقول فيها حكماً : ولنسمعه ( .. إن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها : وكيف لا ، والحلال هي الصدقات والفهي والغنيمة : ولا وجود لها ، وليس يدخل منها في يد السلطان ولم يبق إلا الجزية ، وإنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به ، فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه ، والوفاء له بالشرط . ثم اذا نسب ذلك الى ما ينصب اليهم من الخراج المضروب على المسلمين ، ومن الصادرات

---

(١) ص ٧٦ ابن حنبل لابي زهرة .

والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيرة (١) .

ثم يرد الامام الغزالي على بعض علماء عصره ، من الذين يقبلون منح الحكام وأعطياتهم . وقد استدلوا في ذلك ، بأن علماء السلف كانوا يقبلونها ولا يرون بأساً في ذلك . مبيناً الفرق بين الاوضاع الاولى ، وأوضاع عصره فيقول :

( ان الظلمة في العصر الاول - لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين - كانوا مستشعرين من ظلمهم ، ومتشوقين الى استمالة قلوب الصحابة والتابعين ، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم . وكانوا يبعثون اليهم من غير سؤال وإذلال ، بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ، ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم ولا ينفشون مجالسهم ، ولا يكثررون جمعهم ولا يحبون بقاءهم ، بل يدعون عليهم ، ويطلقون الألسنة ، وينكرون المنكر عليهم ، فما كان يحذر ان يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم . ولم يكن بأخذهم بأس .

أما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم ، والتكثر بهم والاستعانة بهم في أغراضهم ، والتجمل بغشيان مجالسهم ، وتكفيهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبيهم ، فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً ، وبالتردد في الخدمة ثانياً ، وبالثناء والدعاء ثالثاً ، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً ، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً ، وبإظهار الحب والولاء والمناصرة له على أعدائه سادساً ، وبالتستر على ظلمه ومقابجه ومساوئ أعماله سابعاً ، لم ينعم عليه بدرهم واحد ، ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً ، فاذاً لا يجوز ان يؤخذ منهم هذا الزمان . ما يعلم انه حلال لأفضائه الى هذه المعاني ، فكيف

---

(١) ص ١١٢ ج ٢ الاحياء .

يعلم انه حرام ، او لا نشك فيه . فمن استجراً على اموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدادين ( ١ ) .

وواقع حالنا اليوم في جميع البلاد الاسلامية ، كحال اولئك الحكام الذين حكم النفرالي بحومه منحهم واعطيائهم . ان لم نقل اشد سوءاً وأعظم اثماً .

أما ما يأخذه العلماء اليوم من أموال . مقابل قيامهم بالوظائف المعروفة من امامة وخطبة وتدريس ووعظ وافتاء .. فهو لتفرغهم عن العمل الذي يكسبون به . لذا كان أخذهم لهذا المال جائزاً . حتى لو كان من غير الاوقاف التي اوقفها اصحابها من المسلمين لصرفها بهذا الشأن .

إلا ان الذي يريده الاسلام هو ان هذه الاجمال والمرتببات التي يأخذها العلماء اليوم ، مقابل وظائفهم المعروفة . لا يجوز بأي حال من الاحوال ان تكون اداة للسكوت عن منكر الحكام ، والتفاعس عن بيان ما يروونه خطأ وضلاً حق لو اغضب الحكام ، لأن هؤلاء الحكام ان تجرأوا او زادوا انما على اثمهم ، فمنعوا العلماء عن اداء حقهم في المال فان الرزق بيد الله وحده . والعلماء اعلم الناس في ذلك .

ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ينقص وزناً كما نطق به الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ..

والله وحده هو الذي يتولى الصالحين .

---

( ١ ) ١٢٢ - ١٢٣ هـ ٢ الاحياء .

## العلماء ومحن الحكماء

لقد جرت سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه ان يفتنهم ويختبرهم ، ليميز الخبيث من الطيب .

( ألم . أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ) (١) .

ولقد اعتاد الظالمون من الحكماء ، ان يضطهدوا الذين يخالفونهم في سلوكهم المنحرف ، ويناهضونهم في افكارهم الباطلة ، ولم يسايروهم في اهوائهم ، وينزلوا بهم ، انواع المحن ، بعد ان اعرضوا عن اشكال المنح التي قدمها الحكماء اليهم ، في ذلة وصغار ، ولكن انى للنفوس الكريمة ، ذات المعدن الطيب ان تغرى بمال ، او يسيل لعابها على فتات الدنيا ، او تستال بعرض زائل من الحياة .

اما المحن فقد استعدوا لها . وتحملوا نارها بصبر وجلد ، وصابروا شدة بأسها بعزم واحتساب لأنهم فقهوا قول الله تعالى : ( قل نار جهنم اشد حراً لو كانوا يفقهون ) وآمنوا بقول الخالق العظيم :

(ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد)(٢) .  
وكان ائمة المسلمين من السادة العلماء الذين اشرأبت الاعناق اليهم اجلاً وتقديراً وولاءاً ، في مقدمة الذين اصابتهم المحن ونزلت بهم الشدائد الصعاب فخرجوا منها ظافرين ظاهرين ، مصداقاً لقول النبي الكريم ﷺ .

---

(١) الآية ٢ المنكبات .

(٢) ٢٠٧ من سورة البقرة .



( لا تزال طائفة من امتي على امر الله ، يصرها من خالفها ) (١) .

وقوله (لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) (٢)  
نعم انتصروا بعد ما ظلموا . وظفروا من بعد محنتهم وظهر الحق الذي آمنوا  
به . ولو استشهد بعضهم في سبيل ذلك ، لأن النصر الحقيقي هو ، نصر  
العقيدة او ظهور الحق جلياً للعيان، الذي كان سبباً في تلك المحن ولأن البقاء  
في الدنيا هو للعقيدة والحق اما المتحذون فلهم بقاء الذكر الجميل لهم على  
مر الدهور . وهذا كائن ولو لم يخطر ببالهم لأنهم اخلصوا العمل والتضحية  
لله وحده ، بل البقاء الاكبر الذي يرجونه هو بقاء السعادة واستمرار النعم  
في دار الخلد والتفويض بظلال الجنة ونوال رضوان الله في الآخرة وهذا هو  
البقاء الحق وللنصر المبين والظفر المنشود .

ولقد صدق الامام ابن القيم في نوقته حيث يقول : الحق منصور  
ومستحسن فلا تعجب فهذه سنة الرحمن وبذاك يظهر حزبه من حربه لا  
شك ذاك ، الناس طائفتان .

ان المراد بهذا الفصل - العلماء ومحن الحكم - هو بيان المحن التي انزلها  
الحكام بالعلماء ظلماً وعدواناً ، اما بتعريض منهم ، لأن الحكم يزعمهم  
وتكرب نفوسهم ان يكون بين ظهرائهم علماء لهم من الاحساس المرفف ،  
والتفكير المستنير ما يجعلهم واقفين بالمرصاد لكل من تصرفاتهم ، قادرين على  
كشف تلك التصرفات للامة لتعرفها ، فتحدد موقفها من ذلك ، فينزل  
الحكام بهم المحن ، للقضاء على جانب المعارضة والانكار . واما ان يسمع  
العلماء ، مقالة الاسلام بكل جرأة وشجاعة ، فتضييق بذلك صدورهم ،  
ويبطشون بهم . واما الحكام يحملون العلماء على شيء ، فيأبى ايمانهم ذلك ،

---

(١) رواه ابن ماجه .

(٢) رواه الحاكم بسند صحيح .

فيكون العقاب ويقع الأذى . واما العلماء يعلنون مخالفتهم لنهج معين من سلوك الحكام ، فيغضب الحكام وتثور ثائرتهم ، وتنتهي هذه الثورة بالحبس او الضرب المبرح . واما العلماء يرفضون منحة حاكم ، او قربا دعوا اليه فيحصل التعذيب لأن طلب الحكام لا يرد منها كان ، ذلك هو فهمهم السقيم .

ومحن الحكام لعلمائنا الابرار التي سنذكرها هي من هذه الانواع ، وهي التي يحتاجها اليوم الصنفان من الناس العلماء والحكام ، لأخذ العبرة . وهل هناك عبرة اعظم من ان نذكر علماءنا الابرار الذين ضحوا بأنفسهم وتحملوا العنت والسوء ، فنترحم عليهم ونذكرهم بخير كلما مرت اسمائهم ، اما اولئك الحكام الذين ساءوا علماءنا سوء العذاب ، فلمهم الحزني وعليهم الائم .. . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » . ان العلماء الذين امتحنوا في دينهم ومن اجل إسلامهم كثيرون ، فذكر بعضهم يغني ، وان كانت النفس والفكر تتوقان الى تعدي البعض والمزيد فيه ...

لذا فقد اخترت - أولاً - ذكر المحن التي أصابت الائمة الكرام الذين اجتمعت الامة الاسلامية على اتباع نهجهم في فهمهم الاسلام ، وهم الامام جعفر الصادق ، الامام ابو حنيفة النعمان ، الامام مالك بن انس ، الامام محمد ابن ادريس ، الشافعي ، الامام احمد بن حنبل ، الامام البخاري ، الامام احمد بن تيمية ، ليرى المعتقدون بصحة نهجهم ، والسالكون طريقهم في الفهم ، ما كان عليه أئمتهم الكرام رضوان الله عليهم ، ليكون الايمان بنهجهم كله ، ويجمع جوائبه ، وذلك هو الاقتداء الحق ، والاتباع الصحيح .

ثم اني - ثنيت - بذكر محنة امامين من الذين سبقوهم بالايمان وهما سعيد ابن مسيب وسعيد بن جبير ومثلها من الذين اتبعوهم بإحسان العز بن عبدالسلام واحمد السرهندي لتكمل العبرة ، وتحسن الذكرى ، وان كانت المحن بقيت قائمة يصيبها الظالمون من الحكام على علمائنا ( الرجال ) اذ لم يخل منها تنصر مسافات ، ولعلمنا ان تنقطع حتى قيام الساعة والخروج من هذه الدنيا ،

ما دام في الحياة علماء ابرار يقولون الحق ولا يخافون في الله لومة لائم ، وما دام الحكام ظالمون ، يعملون لإضلال الامة ويفسدون في الارض .

وأرى من الامانة العلمية للتاريخ الاسلامي ان أؤكد المعنى الذي أشرت اليه ، واني على ذكر حوادث مهمة من التاريخ الاسلامي ، اذ انها تتعلق برؤساء الدولة الاسلامية وعلمائها ابرار ، في فترات من عصورها الزاهرة ، هي ان الحكام الذين انزلوا المحن الشديدة بالسادة العلماء ، ما كانوا بالحقيقة ، وواقع الأمر ، يكرهون الاسلام ، ولا يأبون السير وفق مداه ، اذ انهم لم يطبقوا غيره . وان أساء بعضهم فيه ، ولكن قد اصابتهم فتنة الحكم والسلطان وما اعظمها وما اكثرها ..

وان الانسان سوى الانبياء غير معصوم من الوقوع في الخطأ ، وارثكاب الاثم ، لذلك فقد تعثر هؤلاء في سيرهم وأصابهم بعض التنكب في سلوك النهج الصحيح ، والعلماء تجاه هذا انكروا عليهم تعثرهم ، وعارضوا تنكبهم اذ قاسوم بالخلفاء الراشدين ، الذين هم المثل الاعلى للحكام المسلمين بعد الرسول الاعظم ﷺ ، فظهر البون بينهما ، فكان الصراع بين الحكام والعلماء وكانت المحن ...

فعلى كل فهم حكام مسلمون ، ودولتهم التي كانوا عليها دولة اسلامية ، ولم تشقى الامة الاسلامية ، ولم يتمكن اعداء الاسلام من النيل منه إلا حين ذهبت دولة الاسلام ، وانطمست معالمها من الوجود .

والعلماء مأجورون على مواقفهم الصلبة تجاه الاسلام ، ومشكورون على توضيحهم في سبيل إعزاز الدين ورفع لوائه خفاقاً بالنصر المبين .

والحكام الذين اساءوا اليهم وظلموهم نكل امرهم الى الله تعالى مرددين قوله الكريم: « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » (١) .

---

(١) آية ١٤١ سورة البقرة .

## — محنة سعيد بن المسيب —

لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا  
بانكار من قلوبكم لكي لا تحبط أعمالكم .  
— ابن المسيب —

.. عجز عبد الملك بن مروان بما أوتي من دهاء ، أن يجر إلى صفوفه سيد  
التابعين ، من جمع بين العلم والعبادة ، والتقوى والورع ، سعيد بن المسيب  
رضي الله عنه .

قال سعيد : ( حججت أربعين حجة .. وما فاتتني التكبيرة الأولى منذ  
خمسین سنة وما نظرت إلى قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة ) ..

وهو القائل : ( ما أعزت العباد نفسها بمثل طاعة الله . ولا أهانت نفسها  
بمثل معصية الله ) ..

ان دهاء عبد الملك وشراكه لم توقع سعيداً فيها . وإن وده .. وتذلل لم  
تنطل على سعيد لينال رضاه ، وكلما التمس عبد الملك قرباً أو كسب وداً  
من سعيد كان الأعراض نصيبه ، والانكار على أفعاله حليفه .

( دعي إلى نيف وثلاثين ألفاً ليأخذها فقال : لا حاجة لي فيها ولا في  
بني مروان حق القى الله فيحكم بيني وبينهم ) .

مرت الأيام .. فتقدم عبد الملك إليه يرجو منه أن يزوج ابنته لابنه  
الوليد حين استخلفه ، ولكن سعيد يرفض ، ويأبى هذا القرب ! وينفر  
من هذه المصاهرة بإباء وشتم ، إباء العلماء وشتم الأتقياء .. غير مبال بما يجلب  
عليه هذا الرفض من بأس وأذى . لأنه قرب ومصاهرة لم يرد بها وجه الله  
والدار الآخرة ، وعصمة النفس من الشهوات الفاسقة .

وأمام هذا الرفض لابن امير المؤمنين ، فانه يزوج بنفسه طالب العلم في حلقته بمسجد الرسول الكريم ﷺ أبا وداعة من ابنته الفقيهة العابدة .. وإليكم الحادثة كما جاءت عن الزوج الكريم ..

( قال ابو وداعة كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياماً ، فلما جئته قال : اين كنت ؟ قلت : توفيت أهلي فاشتغلت بها ، فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ، ولما اردت ان اقوم قال : هلا حدثت امرأة غيرها . فقلت : يرحمك الله ، ومن يزوجني وما املك إلا درهمين او ثلاثة ؟ قال : ان انا فعلت تفعل ؟ قال نعم . ثم حمد الله وصلى على نبيه ﷺ وزوجني ( ابنته ) على درهمين ... وفي مساء ذلك اليوم وإذا بالباب يقرع فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد . ففكرت في كل انسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ، فانه لم ير منذ اربعين سنة إلا ما بين بيته والمسجد ، فقممت وفتحت . وإذا بسعيد بن المسيب ، فظننت انه بدا له - أي ظهر له رأي غير الذي رآه فجاء يعتذر - فقلت فما تأمرني ؟ قال : رأيتك رجلاً عزباً قد تزوجت فكرهت ان تبیت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك ، فاذا هي قائمة خلفه في طوله ثم دفعها في الباب ورد الباب ) ...

هذا فعل سعيد مع احد افراد المسلمين ، مع طالب علم ، وذلك فعله مع حاكم المسلمين بسطوته وسلطانه ، فتأمل يا اخي .

وحين ذاك عجز عبد الملك وأسقط في يده ، فلم ينفعه دهاؤه ، بل لم ينفعه اصطناع تقربه او تزلفه .

ولكن ماذا فعل عبد الملك مع سعيد بعدئذ . هنا جاءت المحنة وحلت الزكبة بسعيد ولكنه صبر عليها واحتسب ذلك عند الحي القيوم .

( .. قال يحيى بن سعيد ، كتب هشام بن اسماعيل والي المدينة الى عبد الملك بن مروان ان اهل المدينة قد اطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب .

فكتب : ان عرضه على السيف فان مضى فاجلده خمسين جلدة وطف به في اسواق المدينة - فلما قدم الكتاب على الوالي دخل سليمان بن يسار وعروة ابن الزبير وسالم بن عبدالله ، على سعيد بن المسيب ، وقالوا : جئناك في أمر ، قد قدم كتاب عبد الملك ان لم تبائع ضربت عنقك ، ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثاً ، فاعطنا احداً من . فان الوالي قد قبل منك ان يقرأ عليك الكتاب فلا تقل لا ولا نعم ، قال : يقول الناس بايع سعيد بن المسيب ، ما أنا بفاعل ، وكان اذا قال لا لم يستطيعوا ان يقولوا نعم ، قالوا : تجلس في بيتك ولا تخرج الى الصلاة أياماً ، فانه يقبل منك اذا طلبك من مجلسك فلم يحدك ؟ قال : فأنا اسمع الأذان فوق اذني حيّ على الصلاة حيّ على الصلاة . ما أنا بفاعل ، قالوا : فانتقل من مجلسك الى غيره فانه يرسل الى مجلسك فان لم يحدك امسك عنك ، قال : أفرقاً من مخلوق - أخوفاً من مخلوق الله - ما أنا متقدم شبراً ولا متأخر ، فخرجوا وخرج الى صلاة الظهر فجلس في مجلسه الذي كان فيه ، فلما صلى الوالي بعث اليه ، فأتى به فقال : ان امير المؤمنين كتب يأمرنا ان لم تبائع ضربنا عنقك ، قال نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين - بيعة الوليد ومثلها لسليمان في وقت واحد - فلما رآه لم يجب اخرج الى السدة فمدت عنقه وسلت السيوف . فلما رآه قد مضى امر به مجرداً فاذا عليه ثياب من شعر .

فقال لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن . فضربه خمسين سوطاً ثم طاف به أسواق المدينة فلما ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال : ان هذه الوجوه ما نظرت اليها منذ اربعين سنة <sup>(١)</sup> .. ومنعوا الناس أن يجالسوه . فكان من ورعه اذا جاء اليه احد يقول له قم من عندي ، كراهية ان يضرب بسببه <sup>(٢)</sup> ) ..

---

(١) لانه كما مر كان لا ينظر الى قفا رجل في الصلاة . اذ كان يصلي في الصف الاول ولم تفته تكبيرة الاحرام رضي الله عنه .  
(٢) ص ١١٧ ج ٢ وفيات الاعيان .



( .. عندما ضرب هشام بن اسماعيل والي المدينة لعبد الملك بن مروان الامام سعيد بن المسيب لامتناعه عن اعطاء البيعة لوليّ عهده ( الوليد وسليمان ) ضرباً مبرحاً خمسين سوطاً وطاف به تبان من شعر حتى بلغ رأسه الثانية . ظمأ كروا به قال أين تكرون بي ؟ قالوا الى السجن قال : والله لولا اني ظننت انه الصلب ما لبست هذا التبان أبداً ) ..

وفي رواية ( أما والله لو علمت انهم لا يزيدونني على الضرب ما لبست لهم التبان ، انما تخوفت أن يقتلونني فقلت تبان أستر من غيره . وفي رواية دخل ابو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث فجعل يكلم سعيداً ويقول انك خرقت به فقال : يا أبا بكر اتقى الله وآثره على من سواه ، قال : فجعل ابو بكر يردد عليه انك خرقت به ولم توفق ، فجعل سعيد يقول : انك والله أعمى البصر أعمى القلب ، قال : فخرج ابو بكر من عنده ، وأرسل اليه هشام بن اسماعيل فقال : هل لأن سعيد بن المسيب منذ ضرباه ؟ فقال ابو بكر .. ما كان أشد لساناً منه منذ فعلت به ما فعلت فاكفف عن الرجل .. ثم أدخل سبيله .. وفي السجن ايضاً يقول عبد الله بن يزيد الهذلي ( دخلت على سعيد بن المسيب السجن فإذا هو قد ذبحت له شاة فجعل الأهاب على ظهره ، وجعلوا له بعد ذلك قضيباً رطباً وكان كلما نظر الى عضديه قال اللهم انصرني من هشام (١) ) ..

تلك من إساءات الحكام في تطبيق الاسلام ، إن البيعة لا تؤخذ من الأمة بالقوة او الاكراه ، ولا بضرب السياط على الظهر ، ولا باعتقال وحبس المعرضين عنها ، وإنما تؤخذ عن رضا الأمة وموافقتها ، لأن البيعة هي الطريقة الشرعية في نصب الحاكم وهي طريقة التعبير عن رضا الأمة عن الحاكم المنتخب فاذا قرر هذا شرعاً ومثله قد قرر ان الحاكم هو نائب عن

---

(١) ص ١٢٧ ج ٥ الطبقات الكبرى لابي سعيد .

الامة في تنفيذ الاسلام ووكيل عنها في الحكم ، فكيف يبساح استعمال القوة بأشكالها وألوانها في سبيل إقرار هذه البيعة لتحقيق شرعية النيابة والوكالة .

( اللهم انصرني من هشام ) تلك دعوة مظلوم على ظالم . ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب . فاستجاب الله تعالى هذه الدعوة ، وأزال سلطان هشام ومن ولاء . فليحذر الظالمون من دعوة المظلومين ، بذاك نطق الصادق الصدوق عليه السلام .

ولكن هل انتهت محنة الامام الورع ؟ لا لا . فقد جاءته محنة اخرى ، فصبر عليها كما صبر على اختها من قبل ..

( .. استعمل عبد الله بن الزبير جابر الأسود الزهري على المدينة المنورة فدعا الناس الى البيعة لابن الزبير فقال سعيد بن المسيب لا حق يجتمع الناس ف ضرب ستمين سوطاً فبلغ بذلك ابن الزبير فكتب الى جابر يلومه ويقول ما لنا ول سعيد دعه <sup>(١)</sup> ) ..

... ( وكان جابر هذا قد تزوج الخامسة قبل ان تنقضي عدة الرابعة ، فلما ضرب سعيد بن المسيب صاح به سعيد والسياط تأخذه : ) والله ما ربعت على كتاب الله ، يقول الله « وانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وانك تزوجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة ، وما هي إلا ليال فاصنع ما بدا لك فسوف يأتيك ما تكره ) .

وقد صدق سعيد ، فما مكث جابر إلا يسيراً حتى قتل ابن الزبير ، وكانت نهاية جابر السوداء المظلمة ، وتلك عاقبة الظالمين .

وهكذا عاش سعيد ممتحناً في دينه وهكذا شأن المتقين الابرار ، رحم الله سعيداً فقد جاد بنفسه في سبيل الحق وإقامة العدل فلم تزعزع ايمانه المحن بل

---

(١) ص ١٢٢ ج ٥ الطبقات الكبرى .

زادته ايماناً و يقيناً بأن للدين صولة وللإسلام قوة ولا غرو في ذلك لأنه من العلماء الرجال ...

أعلنت اخي القاريء ان كل ( جرم ) سيد التابعين ابن المسيب في نظر عبد الملك بن مروان انه لم يبايع ولي عهده ، ولأنه امتنع عنها لوجود نص شرعي يحفظه ، فهو حجة عليه يوم القيامة .

وتلك اساءة عبد الملك ومظلمة سجلها عليه التاريخ وأذكرتها عليه الامة وغضب عليه رب العالمين ، ومن ينجو من عقاب هذه المظالم ، وسيقال له يوم القيامة : « وَقِفْهُمْ انهم مسؤولون » نعم سيسأل كل حاكم عما اجتريه من سيئات ومظالم في حق امته ، ولو كان (عموماً) مطبقاً للإسلام منفذاً لأحكام القرآن حامياً للثغور مدافعاً عن بيضة المسلمين كعبد الملك .

وكيف تكون المسؤولية والمحاسبة حين لا يكون الأحكام كذلك؟ لا شك ان المسؤولية اليوم اعظم والمحاسبة يجب ان تكون اشد ، إذ أحكام الامس الذين ذكرتهم في هذا الكتاب كالملائكة بالنسبة لحكام اليوم !!

( مات سعيد سنة احدى وتسعين هـ وله من العمر ٧٤ عاماً ) .

### — محنة سعيد بن جبير —

وشى بي واشى في بلد الله الحرام  
أكله الى الله تعالى .

— ابن جبير —

قال خصيف يوماً : كان اعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب ، وباللحج عطاء ، وبالحلال والحرام طاوس ، وبالتفسير ابو الحجاج مجاهد بن جبير ، واجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير .

تلك شهادة عالم حصيف هو الشيخ خصيف ... في امامنا الممتحن .

كان ابي جبير من الذين يناوئون حكم عبد الملك بن مروان، لاساءة الاخير في حكم الرعية المسلمة، ولوقوع مظالم في عهده .

وكان الحجاج بن يوسف ، فاسق بني ثقيف ، والياً لعبد الملك ، يأخذ بالشبهات ، ويتحرى المناوئين في جميع البلاد الاسلامية ، لحكم اميره وسيده .. فيصب المحن عليهم ، دون هوادة ، ولا خوف من الله ، المقتدر الجبار ، وكان خالد بن عبد الله القسري والياً على مكة المكرمة - زادها الله مثابة وأمناً - وقد علم بوجود ابن جبير في ولايته ، فالقى القبض عليه ، واعتقله ، ثم اراد ان يتخلص منه ، لمعرفته بان سعيداً ، قد اوتي لساناً ناطقاً ، وقلباً حافظاً ، وسرعة بديهة بالقضاء الحجة القوية لاسكات خصمه . اذ هو ليس من اولئك الذين يخشون رهبة حاكم ، ولا بطش سلطان في سبيل معتقده غير مبال بالنتائج مهما كانت . ودفعاً للوقوع في لجة المخاصمة وخضم المنافسة التي لا تضمن نصره وخوفاً من مس شعور اهل مكة . الذين يدينون بالولاء والاحترام لابن جبير ، ارسله مخفوراً مع اسماعيل بن واسط البجلي ، الى الحجاج بن يوسف .

وهنا تبدأ الهنة ، ثم تشتد سورتها مع لقاء الحجاج طاغية العراق ، وفي هذا اللقاء ، غير الكريم ، جرت المناقشة والمخاصمة الفكرية ، كان سعيد فيها فارس الميدان ، وصاحب لواء النصر والظفر ، حيث كان فيها جريئاً ، لا تلين قناته ، صلباً لا يضعف سيف لسانه ، يقول الحق ، وهو يعلم انه مفارق الدنيا ، بسبب ذلك .

( قال الحجاج : ما اسمك ؟

سعيد : سعيد بن جبير .

الحجاج : بل انت شقي بن كسير .

سعيد : بل كانت امي اعلم باسمي منك .

الحجاج : شقيت امك وشقيت انت .  
سعيد : اللغيب يعلمه غيرك .  
الحجاج : لا بد لك بالدنيا ثاراً تلتطى .  
سعيد : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك الها .  
الحجاج : فما قولك في محمد ؟  
سعيد : نبي الرحمة وامام الهدى .  
الحجاج : فما قولك في علي اهو في الجنة ام هو في النار ؟  
سعيد : لو دخلتها وعرفت من فيها ، عرفت اهلها .  
الحجاج : فما قولك في الخلفاء ؟  
سعيد : لست عليهم بوكيل .  
الحجاج : فايهم اعجب إليك ؟  
سعيد : ارضاهم لخالقي .  
الحجاج : فايهم ارضى للخالق ؟  
سعيد : علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم .  
الحجاج : احب ان تصدقني .  
سعيد : ان لم احبك لن اكذبك .  
الحجاج : فما بالك لم تضحك ؟  
سعيد : وكيف يضحك مخلوق خلق من طين والطين تأكله النار .  
الحجاج : فما بالنا نضحك ؟  
سعيد : لم تستو القلوب . (

ذلك هو المشهد الاول من هذه المناقشة ، أو قل الفصل الاول من المحنة ، وقد بدا فيها للحجاج انه غير قادر على إخضاع سعيد اليه ، أو حمله على اعطاء الولاء لأمره وسيدته ، ولو بالإشارة أو التلميح .. ولم ينفعه التهديد بالقتل ، كما لم تفده غلاظة الكلام ، وقبح الاتهام ..

وهنا يسلك الحجاج طريقاً آخر ، لعله يصل فيه الى ما يريد ويحصل على مبتغاه من سعيد .

( ثم امر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، فجمعه بين يديه ، فقال سعيد : ان كنت جمعت هذا لتتقي به فزع يوم القيامة فصالح ، وإلا ففرعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، ولا خير في شيء الدنيا إلا ما طاب وزكا ) ..

وهكذا ينتهي المشهد الثاني من هذه المحنة ، فلم ينفع الحجاج هذا الاغراء بالمال والذهب ، كما لم تسعفه منعه التي أومأ بها ، فليس ابن جبير من عباد المال ، ولا من الذين يبيعون دينهم بدنياهم ، لذا فقد لقنه درساً لن ينساه ، في ان المال ، اعظم وسيلة لإصلاح الأعمال ، وصلاح الآخرة ، ان جمع بطريق الحلال الطيب .. لاتقاء فزع يوم القيامة ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » (١) .

ثم يسلك الحجاج سبيلاً آخر .

( ثم دعا الحجاج بالعود والناي ، فلما ضرب بالعود ونفخ بالناي ، بكى سعيد ، فقال : ما يبكيك ؟ أهو اللعب ؟ قال سعيد : هو الحزن ، أما النفخ فذكرني يوماً عظيماً يوم نفخ في الصور ، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق ، وأما الاوتار فمن الشاة تبعث يوم القيامة .

---

(١) آية ٨٨ - ٨٩ سورة الشعراء .



فسعيد ليس من هواة الطرب ولا من رواد الناي والعود، وإنما من هواة الحق ورواد الاسلام الذي وهب حياته له، فإعراضه عن ذلك وإظهار حزنه حين تذكر الآخرة وشدة عذابها، فكان درساً آخر لقننه إياه، وإدراك المسلم ذلك دائماً، لما عصى الله، أو خالف أمراً من أوامره، وبعد ان اسقط في يده، وفشلت جميع تلك السبل، هنا اشتدت المحنة قليلاً، فعلا غضب الحجاج، وفقد اعصابه، وكاد ينهي هذه المحنة بمشاهدتها، أو يصل الى نهايتها، ولكن تريت الى حين، لعله يحظى بشيء من سعيد.

( قال الحجاج ويلك يا سعيد : فقال لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة . قال الحجاج : اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك ؟ فقال اختر أنت لنفسك، فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة ؟. فقال : أتريد أن أعفو عنك ؟ فقال : ان كان العفو فمن الله وأما انت فلا براءة لك ولا عذر )..

عند ذاك ضاق الحجاج ذرعاً بسعيد، ولم يطق صبراً عليه، وهو يتلقى منه هذه الأجوبة الجريئة والتي كانت سهاماً تصيب قلبه.. فأمر بانهاء المحنة.

( قال الحجاج : اذهبوا به فاقتلوه، فلما خرج ضحكك، فأخبر الحجاج بذلك، فردوه اليه، وقال : ما أضحككك ؟ فقال : عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك، فأمر بالنطع فبسط . وقال : اقتلوه، فقال سعيد : وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين .

قال الحجاج : وجهوا به لغير القبلة .

قال سعيد : فأينما تولوا فثم وجه الله .

قال الحجاج : كبوه على وجهه .

قال سعيد : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى .

قال الحجاج : اذبحوه .

قال سعيد : أما انا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة .. اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي ) .

فذبح من الوريد الى الوريد . ولسانه رطب بذكر الله .. وبهذا انتهت محنة سعيد بن جبير باستشهاده . وبقيت المحن تصيب أمثاله ، من الذين أعرضوا عن الحكم بكليتهم . لإعراض الحكم عن الله وعن دينه وشريعته .

ومكذا شأن الله مع عباده المؤمنين الصابرين . فلم يُضَيَّع إيمانهم ، أولم ينسهم ذكره في أوقات محنتهم ، وهم قادمون اليه ، وكيف ينساهم .. او يضيعهم .. ومحنتهم كانت في سبيله ، ومن اجل إعزاز دينه . لذا قيل لهم : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

قيل للحسن البصري رحمه الله تعالى : ان الحجاج قد قتل سعيد بن جبير . فقال : اللهم أنت على فاسق ثقيف . والله لو ان من بين المشرق والمغرب اشتركوا في قتله لكبهم الله عز وجل في النار ) .

( وقال احمد بن حنبل قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الارض احد إلا وهو مفتقر الى علمه .. (١) ) .

---

(١) اعتمدنا في كتابة هذه المحنة من كتب المناقب والسير وأخذنا النصوص من وفيات الأعيان لابن خلكان ص ١١٢ ج ٢ . مات رحمه الله سنة ٥٩ هـ وله من العمر ٧٤ سنة.

## — محنة جعفر الصادق —

من عذر ظالماً بظلمه سلط الله عليه من يظلمه  
— الصادق —

.. الصبر على ظنون الحكام من المهن — واستدعاء الحكام للصابرين ،  
للتحقيق معهم في هذه الظنون يحو ارهابي عنيف من المهن ايضاً ، وإرسال  
عيون الدولة لمراقبة التصرفات ، وإحصاء الانفاس وإرصاد الكلمات من المهن  
كذلك . ثم أليس من المحنة ان يوصي الانسان اهله قبل كل استدعاء . لأنه  
لا يعلم مصيره ولا ما يجري له خلال هذا الاستدعاء . لأنه استدعاء ليس  
للتكريم ..

تلك هي محنة إمامنا الجليل جعفر الصادق رضي الله عنه . مع ابي  
جعفر المنصور .

لقد حدث الصادق آباؤه الأئمة الطيبون ، حدثوه عن خذلان الناس لجده  
ابي عبد الله الحسين — رضي الله عنه — في ساعة العسرة ، كما حدثوه عن الخيانة  
التي كانت سبباً بإنزال الفاجعة العظمى بأهل البيت ، بيت النبوة والرسالة ،  
تلك التي سوّدت وجه تاريخ الأمة الاسلامية ، حيث قتل ابن دعيها ابن  
نبيها ... ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كما رأى الصادق عمه الامام زيداً ، كيف كانت نهايته ونهاية اولاده ،  
حين اعتمد على من اعتمد ، فخالوا الامام ونكثوا العمود ، فعلت النكبة  
وكانت المصيبة ، حيث قتل الامام زيد قتلة آئمة ، ثم نبش قبره من بعد ما  
وري عليه التراب ، فصلب جثمانه الطاهر ، وذبح ابنائه البررة .

وقد مرت تلك الفاجعة ولكنها تركت ندوباً في نفس الامام الصادق  
صفي زيد ورفيق صباه ، وزادته بحال الشيعة في عصره ، الذين كانوا يغرون

ولا ينصرون ويتكلمون ولا يفعلون - ويحرضون وعند الشديدة يفرون ،  
وان المفرور من يخدع بهم . ( كما قال امام الهدى عليّ كرم الله وجهه في  
اخوان لهم قبل <sup>(١)</sup> ) .

وكما قال الامام السبط الحسين يوم فاجعته بالطف .

ثم رأى - رضي الله عنه - اخيراً فعل المنصور بأولاد عمومته الأخوين  
الكريمين محمد بن عبدالله بن الحسن وأخيه ابراهيم حين خرج الاول في المدينة  
والثاني في العراق على حكم ابي جعفر المنصور .

وشاهد بأم عينيه حوادث المحن . ووقائع المصائب ، من مطاردة وملاحقة  
وتشريد وسجون ومصادرة اموال بأهل البيت النبوي الكريم حتى لم تنج من  
ذلك ، تلك الشيبة الطاهرة عميد هذا البيت الرفيع العماد عبدالله بن الحسن  
المثنى بن الحسن السبط ، فمات في السجن مكوماً سنة ١٤٥ عقيب هذا الخروج .

.. في هذا الجو الارهابي الفظيع ، عاش الامام الصادق ، فكان لا بد ان  
يصيبه شيء من ذبول ذلك الارهاب العنيف ولو انه وقف بعيداً عن ذلك  
الخروج . ولو ان المنصور كان يصانعه الود والاحترام .

فالمنصور كان يتوجس خيفة من الامام الجليل ، وهذه الهواجس تدفعه الى  
الشك احياناً ، وهناك من يجعل الشك عنده يقيناً بالتزوير والدس اللثيم . فكان  
يرسل عليه العيون والجواسيس ، لارصاد كلماته ، التي كان يلقيها في ملقاة  
درسه ، كما يرصد حركاته وتصرفاته .

إلا ان هذه المراقبة الشديدة ، التي كان المنصور فيها بارعاً ، بحيث كانت  
تقع دون ان يشعر الامام بثقلها ، وإن كان يعلم بوجودها .

---

(١) ص ١ ، الامام الصادق لابي زهرة .

ولكن عندما تبلغ هذه الشكوك منزلة الظن الغالب على التصديق ، التي كان يأتي بها رجال دائرة مباحثه ، فإنه يستدعيه بغير تكريم ، وهو ذلك الامام الصابر على فواجع اهل بيته ونكبات بني عمومته .

حين حصل خروج الاخوين الكريمين ، همس رجال المباحث في اذن المنصور ان الامام الصادق ، يؤيد خروجهما . بل هو من ورائهما ، والحقيقة خلاف ذلك فاستدعاه للتحقيق معه ، وقد استعمل المنصور في هذا غلظة القول ، وسلك سبيل الاساءة في هذا التحقيق ، ولم يراع نور الهدى ، وطيب الارومة ، ووقار الشيخوخة ، التي بلغت السبعين ، ولا حرمة القربى أو صلة الرحم او مكانة العلم .

ومن ذلك مناقشته وتحقيقه حين كان في الكوفة بعد ان بلغ الصادق وصيته لاهله ( قال المنصور : انت يا جعفر ما تدع حسدك وبغيتك وفسادك على اهل البيت من بني العباس ، وما يزيدك الله بذلك الا شدة حسد ونكد ، وما تبلغ به ما تقدره ) .

فقال الامام الصادق ، والله يا امير المؤمنين ما فعلت شيئاً من ذلك : هذا ولقد كنت في ولاية بني امية وانت تعلم انهم اعدى الخلق لنا ولكم ، وانهم لا حق لهم في هذا الأمر ، فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عني شيء مع جفائهم الذي كان لي ، وكيف اصنع هذا الآن وانت ابن عمي ، وامس الخلق بي رحماً ، واكثر عطاء وبراً ، فكيف افعل ذلك ، فاطرق المنصور ساعة ..

ثم قال : يا جعفر ما تستحي مع هذه الشبهة ومع هذا النسب ان تنطق بالباطل وتشق عصي المسلمين ؟ تريد ان تريق الدماء وتطرح الفتنة بين الرعية والاولياء ؟ ..

قال الصادق : لا والله يا امير المؤمنين ما فعلت ، ولا هذه كتبي ولا خطي لا خاتمي - كان المنصور قد اخرج له كتباً الى اهل خراسان تدعوهم الى نقض البيعة .

فانتضى من السيف ذراعاً فما زال يعاقبه وجعفر يعتذر اليه ، ثم اغمد السيف واطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال أظنك صادقاً ( ١ ) .

هذه اجوبة الصادق برقتها وصدقها ، وذاك كلام المنصور بخشونته وقسوته وكل منهما يعتز بسلطان يعتمد عليه .

فامامنا الصادق يعتز بسلطان الله الذي يغلب كل سلطان ولو بعد حين : والمنصور يعتز بسلطان الحكم وقوة الجند . وهو زائل ولو بعد حين وما ان انتهت مسألة الخروج اخروج الكريمين : انتهت حقي استدعى المنصور الامام جعفر من المدينة المنورة ، مرة اخرى الى بغداد .

فكذب الى واليه وابن عمه داود بن علي ان يسير اليه جعفر بن محمد ولا يرخص له في التلوم ( التمكن ) والبقاء وكان القصد من ذلك ، هو التحقيق معه في التهمة الموجه اليه بانه يجمع الزكاة من جميع الافاق وانه مد بها محمد بن عبد الله بن الحسن فكان التحقيق التالي .

( المنصور : يا جعفر ما هذه الاموال التي يجبيها لك المعلى بن خنيس ؟ ) ( ٢ )

الصادق : معاذ الله من ذلك يا امير المؤمنين .

المنصور : الا تحلف على براءتك من ذلك بالطلاق والعتاق ؟

الصادق : نعم احلف بالله انه ما كان شيء من ذلك .

المنصور : بل تحلف بالطلاق والعتاق .

الصادق : اما ترضى بيمينني بالله الذي لا اله الا هو .

---

( ١ ) ص ١١٠ الامام الصادق لمحمد بن الحسين المظفري وص ٤ ، الامام الصادق لأبي زهرة ذكرها الاستاذ باختصار .

( ٢ ) المعلى بن خنيس مولى الامام الصادق .

المنصور : لا تتفقه عليّ ؟

المصادق : وابن يذهب الفقه مني .

المنصور : دع عنك هذا فاني اجمع الساعة بينك وبين الرجل الذي رفع عليك هذا حق يواجهك . فأتوه بالرجل وسألوه بحضرة جعفر فقال نعم هذا صحيح . وهذا جعفر بن محمد الذي قلت فيه ما قلت :

المصادق : اتخلف ايها الرجل ان الذي رفعته صحيح ؟

الرجل : نعم : ثم ابتدأ باليمين فقال : والله الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب الحي القيوم .

المصادق : لا تعجل في يمينك فاني استعطفك .

المنصور : ما انكرت من هذا اليمين ؟

المصادق : ان الله تعالى حي كريم يستحق من عبده اذا اثنى عليه ان يعاجله بالعقوبة لمدحه له ولكن قل ايها الرجل : ابرأ الى الله من حوله وقوته وألجأ الى حولي وقوتي لمصادق بر فيما أقول .

المنصور : احلف بما استعطف ابو عبد الله به .

( قال راوي هذا الخبر فحلف الرجل بهذه اليمين ، فلم يستتم الكلام حتى خر ميتاً فراع المنصور وارتعدت فرائصه ، وقال للمصادق يا أبا عبد الله سر من عندي الى حرم جدك ان اخترت ذلك ، وان اخترت المقام عندنا لم نأل في اكرامك وبرك ، فوالله لا قبلت قول احد بعدها ابداً ) .

على هذه الأحوال المضطربة ، والنفوس القلقة التي لا تعرف مصيرها المحتوم . وبهذه الظنون المريبة التي عقوبتها الاعداء ، او السجن المؤبد .

وتلك العيون المهدقة والأحاسيس المرفهة التي تحصي الانفاس ، وترصد الكلام :



وتلك التحقيقات التي تعدت هذا العدد الذي ذكرناه والتي أبى الحكام فيها ان يتركوا امامنا العظيم ، في هداية العلم يعلم الناس الطيب من القول والمأثور من جوامع الكلم النبوي ، وهو الامام في فقه الكتاب والسنة .

كما لم يتركوه وشأنه ، يسبح الله في محرابه ، مناجياً بذكر الآخرة ، ويدعو على أولئك الظالمين ، الذين فتكوا بالعترة النبوية الطاهرة ، وقطعوا أغصان الدوحة النبوية المحمدية ، مات الصادق مودة للصديقين والشهداء ، فعليه سلام الله ورضوانه في الخالدين <sup>(١)</sup> .. ) .

### — محنة ابي حنيفة النعمان —

خذ العفو وامر بالمعروف وتغافل عما لا  
يعنيك وبادر في اقامة الحقوق .  
— ابو حنيفة —

.. كان الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه ، غير راض على سياسة ابي جعفر المنصور بشكل عام ، وخصيصاً قسوته وشدته مع خصومه ، وخصوم آبائه العباسيين ، وكانت الخاصمة شديدة والقسوة عنيفة مع العلويين ، ومن يظهر التودد اليهم او الترحم عليهم .

والامام ابو حنيفة كغيره من أئمة المسلمين وأجلاء العلماء ، يحبون العلويين ولهم مكانة طيبة في قلوبهم .

---

(١) يراجع ص ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ من كتاب الامام الصادق لابي زهرة . و ص ١١٩ / من وما بعدها الامام الصادق للشيخ محمد بن الحسين المظفري .

مات الامام الصادق رضي الله عنه سنة ١٤٨ وله من العمر ٦٨ سنة.

ثم ان الامام رحمه الله تعالى جريء في فتاواه ، صريح في أجوبته ، شديد في محاسبته لأبي جعفر ، كثير النقد لأحكام قضااته ، وتصرفات ولاته ، تمثلت به رجولة العالم وشجاعة المؤمن ، وصلابة الفقيه المتمسك بأحكام الشرع ، لا يعرف نفاقاً ولا يسلك طريقاً منحرفاً في دعوته ، ولا يهاب سطوة سلطان ولا يخشى قوة حاكم في قولة الحق ، والمنصور ابو جعفر عرف هوى الامام وأدرك نزعته السياسية والروحية ، وتلك نزعة لم تنل رضاه ، وهوى يفضيه وسلوك لا يريده ، ولكن .. ماذا يفعل مع رجل عالم أوتي لساناً صادقاً وتأثيراً روحياً دفاقاً ، يعمل ما لا يعمل الحسام .

لأن السنة العلماء وهي غضاب تعمل ما لا تعمل السيوف العضاب . ثم في أي درب يسير عليه المنصور مع امام أحبه الناس وملك قلوبهم . فمنه تؤخذ الفتوى وبه يقتدى . لسلامة قلبه وحسن سيرته وسعة علمه ، ومزيد تقواه ، وكلما تقرب منه شبراً ابتعد عنه الامام ذراعاً ملتصقاً بذلك إسكاته او جره الى صفوفه فكان قريباً لم يرد به وجه الله تعالى والدار الآخرة .

لذلك فليس من السهولة والحالة هذه أن ينزل بإمامنا محنة او يوقع به أذى . دون ان يلمس المبررات التافهة ، والذرائع الباطلة لتكون سبباً ظاهرياً لها . فعمل ذلك في الوقت الذي عجز ان يؤاخذ امامنا الجليل على مولاته لآل سيدنا علي رضي الله عنهم تلك التي نعتقد انها السبب الخفي المباشر لمحنته .

ولا حير في هذه المولاة بل هي مما دعا اليها الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام .

فلاحق لحاكم مثل ابي جعفر ان يؤاخذ أحداً بسببها . ولكنها العصبية العائلية وحب السلطان التي تعمي البصائر والأبصار عن رؤية الحق الواضح .

ومن الاسباب الظاهرة التي اتخذها المنصور ذريعة لمحنته الجائرة ، أن أبا حنيفة كان جريئاً في بيان خطأ حكم القضاة في المسائل التي تعرض عليهم

خصوصاً اذا خالفت رأيـه الذي يعتقده صواباً ، فيشكوه القضاة ليمتنع عن ذلك .

( فقد روي أن ابن ابي ليلى القاضي ، نظر في امر امرأة مجنونة قالت لرجل يا ابن الزانيين ، فأقام عليها الحد في المسجد قائمة وحدها حدين حداً لقذف ابيه ، وحداً لقذف امه ، فبلغ ذلك ابا حنيفة ، فقال أخطأ فيها في ستة مواضع . أقام عليها الحد في المسجد ، ولا تقام الحدود في المساجد ، وضربها قائمة والنساء يضربن قعوداً ، وضرب لأبيه حداً ولأمه حداً ولو ان رجلاً قذف جماعة كان عليه حد واحد ، وجمع بين حدين ولا يجمع بين حدين ، حتى يخف احدهما ، والمجنونة ليس عليها حد ، وحد لأبويه وهما غائبان ولم يحضرا فيدعيا ، فبلغ ذلك ابن ابي ليلى فدخل على الامير فشكاه إليه ، وحجر على ابي حنيفة . وقال لا يفتي فلم يفت أياماً ) (١) .

وهكذا بدأت المحنة تدنو منه شيئاً فشيئاً وهو صابر مصابر محتسب ، المحنة أخذت بالتتابع سريعة تنذر بوقوعها حيث سلك المنصور سبلاً اخرى ، فأرسل اليه هدية ثمينة وهو يعلم أنها مردودة عليه لا محالة . ولكنه فعل ذلك ليضيف سبباً آخر وحجة أخرى .

ولعل من المناسب اعادة ذكرها هنا لتسلسل الموضوع ( ارسل اليه ابو جعفر بجائزة عشرة آلاف درهم وحارية ، وكان عبد الملك بن حميد وزيره .. فقال لأبي حنيفة عندما رفضها : أنشدك الله ان امير المؤمنين يطلب عليك علة فإن لم تقبل صدق على نفسك ما ظن بك فأبى ... ) (٢) .

وحين أراد المنصور أن يخرج أبا حنيفة ويتخذ من رفضه لمنحه وعطاياه ممسكاً ارسل اليه وقال له : ( فلم لا تقبل صلاتي فقلت ( أي قال ابو حنيفة )

---

(١) ص ١٦٦ ج ١ المناقب لأبي البراري ، ص ٣٥١ ج ١٣ تاريخ بغداد .

(٢) راجع فصل العلماء ومنح الحكام .

ما وصلني امير المؤمنين في ماله بشيء فرددته ولو وصلني بذلك لقبيلته انما وصلني امير المؤمنين من بيت مال المسلمين ولا حق لي في بيت مالهم ، اني لست ممن يقاتل من ورائهم ، فأخذ ما يأخذه المقاتل ، ولست من ولدانهم فأخذ ما يأخذ الولدان ، ولست من فقرائهم فأخذ ما يأخذه الفقراء ... (١) .

ثم هاك سبباً آخر .

لقد مر بنا ان إمامنا المتمحن ، ابان وجهة نظره في قتال اهل الموصل . وكان جوابه ذاك الذي اغاظ المنصور ، فأسرّها في نفسه واحتفظها عنده . وهنا برر للمنصور سبباً آخر وطلباً قد يكون وجيهاً ، وذريعة ظنها بحكمة ليجعل منها في انزال المحنة بإمامنا الجليل ، والمنصور يعلم مسبقاً ان طلبه مردود عليه أيضاً .

ذلك هو توليه رئاسة القضاة في الدولة الاسلامية ، فان امتنع اخذه بهذا المنع ، جهرة وامام الناس ، ملتتمساً بذلك عذراً عند العوام - وهم سواد الناس - الذين لا يدركون بواطن الامور ولا دوافع المطالب ، مطالب الحكام ، ثم ان أبا حنيفة وهو شيخ الفقهاء في العراق ، وهو بحر في العلم لا تكدره الدلاء ، فمن الصواب ان يكره على تولي القضاء لرفع منار العدل والحق في ارجاء الدولة ، وليس في الاكراه ظلم ظاهر عند العوام ... وان رضي بهذه التولية تم الصلح بينهما وحسم النزاع ، وآمن الانكار ، وانتهت المناوأة ، وأنى له عند ذاك ان ينكر وينأوى ويعترض وقد اصبح من رجالات الدولة ، ومن المسؤولين في الحكم والمشاركين فيه .

بهذا سولت للمنصور نفسه ، فأقدم عليه بحزم .

استدعى المنصور ابا حنيفة وعرض عليه تولي هذا المنصب الخطير ، فامتنع وأعرض ولتسمع الحادثة من امامنا نفسه :

---

(١) ص ٢١٥ ج ١ المناقب لأبي طالب المكي .

( .. ان هذا دعائي للقضاء فأعلمته اني لا اصلح ، واني لا اعلم ان البينة على المدعي واليمين على من انكر ، ولكنه لا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نفس يحكم بها عليك ، وعلى ولدك وقوادك ، وليست تلك النفس لي ، انك لتدعوني فما ترجع نفسي حتى افارقك ) (١) .

وجاء في هذا الرفض في مجلس آخر عن الربيع بن يونس : ( رأيت امير المؤمنين ينزل ابا حنيفة في امر القضاء وهو يقول له : اتق الله ولا تدع امانتك إلا من يخاف الله ، والله ما انا بأمون الرضا ، فكيف اكون مأمون الغضب ؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني ان تغرقني في الفرات او الى الحكم لاخترت ان اغرق . لك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك فلا اصلح لذلك ، فقال : كذبت انك تصلح . فقال : قد حكمت على نفسك ، كيف يحل لك ان تولي قاضياً على امانتك كذاباً (٢) ؟

وهنا حصل المنصور على ما يريد، ونال ما بيت في نفسه، فأنزل به المحنة...  
أذكرها بروايتها كما رويت في كتب المناقب .

روي عن داود بن راشد الواسطي ، انه قال : ( كنت شاهداً حين عذب الامام ليتولى القضاء ، كان يخرج كل مرة فيضرب عشرة اسواط حتى ضرب عشرة ومائة سوط ، وكان يقال له : اقبل القضاء ، فيقول : لا أصلح فلما تتابع عليه الضرب ؟ قال خفياً : ( اللهم ابعد عني شرهم بقدرتك ) فلما أبى دسوا عليه السم فقتلوه ) (٣) .

( وروي ان ابا جعفر المنصور حبس ابا حنيفة محلي ان يتولى القضاء ويصير

---

(١) ص ٢١٥ ج ١ المناقب للمكي .

(٢) ص ٣٢٨ ج ١٣ تاريخ بغداد .

(٣) ص ٣٢٨ ج ١٣ تاريخ بغداد .

قاضي القضاة فأبى حتى ضرب مائة وعشرة أسواط وأخرج من السجن على أن يلزم الباب ( ١ ) .

( وروي أن المنصور حبسه وضيق عليه مدة ، وكلم المنصور بعض خواصه فأخرج من السجن ومنع من الفتوى والجلوس للناس والخروج من المنزل ، فكانت تلك حالته إلى أن توفي ) ( ٢ ) .

تلك محنة الإمام أبي حنيفة ، منعاً عن التدريس والافتاء . وإقامة جبرية في الدار ، وضرباً بالسياط ، وحبساً في السجن ثم قتلاً بالسهم أن صدقت الرواية ، كل ذلك لأنه أبى أن يساير الحكام في أهوائهم وأن يوافق على أعمالهم وأن يستجيب لطلباتهم ... وهكذا ينبغي أن يكون العلماء في كل حين أن كانوا علماء حقاً ...

( .. مات أبو حنيفة كما يموت الصديقون والشهداء وكان ذلك سنة ١٥٠ هـ وكان في الموت راحة لذلك الضمير المضيء ولذلك الوجدان الديني المرهف ، ولذلك القلب القوي ، ولذلك العقل الجبار ، ولتلك النفس الصبور ، التي لاقت الأذى فاحتملته ، لاقتة من المخالفين له في الآراء ورميت في كل رمية ، فتحملتها مطمئنة راضية مرضية ، ولقيت الأذى من السفهاء ثم لقيته من الأمراء والخلفاء .

وما ضعفت وما وهنت ، وإذا كان للنفوس جهاد ، ولجهادها ميادين ، فأبو حنيفة رضي الله عنه كان أعظم أبطال ذلك النوع من الجهاد ، ومن انتصر في كل ميادينه .

وكان جلدأ في جهاده قوياً في جلاده ، حتى وهو يلفظ النفس الأخير فهو يوصي بأن يدفن في أرض طيبة لم يحجر عليها غضب ، وألا يدفن في أرض اتهم أمير

---

(١) ص ١٨ ج ٢ المناقب لأبي البزازی .

(٢) ص ١٥ ج ٢ المناقب لأبي البزازی . مات رضي الله عنه سنة ١٥٠ هـ وله من العمر ٧٠ سنة .

بأنه غصبها حتى يروى ان أبا جعفر عندما علم ذلك قال : ( من يعذرني من ابي حنيفة حياً او ميتاً <sup>(١)</sup> .. ) .

وبموته رضي الله عنه انتهت محنته ثم تتابعت المحن تنزل بأقرانه من أئمة المسلمين ...

### — محنة مالك بن أنس —

سئل عن الخارجين على الحطام أيجوز قتالهم ؟ قال :  
نعم ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز . قالوا :  
فان لم يكونوا مثله ؟ قال دعهم ينتقم من ظالم  
لظالم ثم ينتقم من كليهما .

— مالك —

في البلد الطيب وفي مركز الاشعاع الفكري والروحي ، وفي موطن النور  
المحمدي وفي حرم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وفي جوار المصطفى  
حبیب الرحمن ، وبين القبر الشريف والمنبر العظيم ، القبر الذي يضم تربة سيد  
الخلق وإمام المرسلين ﷺ والمنبر الذي رفعت عليه كلمة الاسلام عالية  
المنبثقة من كلمة التوحيد ، حيث اخذت تدوي في المشرقين . لتمهدي الضال  
وتبصر العمي وتنير درب المظلومين والمحرومين ، وتحدد سبيل تحرير الشعوب  
من ربقة عبودية البشر . وطريق التخلص من سيطرة الطغاة ، وحكم الجائرين

---

(١) ص ٥١ ابو حنيفة لأبي زهرة .

ليس من العدل الذي اوجبه الاسلام على الحاكم ان يؤخذ العالم لطلب يرفضه او لرأي يبديه ،  
ولو كان يتعلق بوجوده حاكماً على البلاد ، لأن ابداء الرأي من حق الامة وفي مقدمتهم العلماء  
والمنصور يعلم هذا ، لذلك لم يجرؤ ان يؤخذ امامنا النعمان على كل ما يبديه ولكنه التمس اسباب  
للنيل منه ، وتلك اساءة بليغة وجرم عظيم يبوء المنصور بأثمها وعليه وزرها ، ولو انه حقق  
للاسلام في جوانب عدة ما حقق من نشر له في الارض ورفع لواء الاسلام في العالم .



ومن على هذا المنبر كان العلماء ينهلون من معينه الذي لا ينضب ومنه يستلم القادة العسكريون وأمرأه الاجناد اوامر السير نحو الفتوحات .

ويأخذ الحكام والولاة نصيبهم من التعليقات والتوجيهات هناك بين القبر والمنبر . الروضة المباركة التي ما جلس احد فيها هنيهة بروحه وجسده إلا وشعر انه حقاً في الجنة من ذاك الرحاب الطاهر . كان الامام مالك بن انس يأخذ كامل زيفته من طيب ولباس . ووافر حظ من حسن الادب جالساً على منصة متواصفة يبين للناس ويعلم ، هدى رسول الله ﷺ .

قائلاً : حدثني فلان بن فلان ان صاحب هذا القبر قد قال : والناس يسمعون ، وكأننا على رؤوسهم الطير ، وهم بين ناصت بكل جوارحه ليصن قلبه ويحفظ عقله ، وبين كاتب يسجل على قرطاس . وكان مما حدث به هذا الامام الجليل قوله ﷺ . ( ليس على مستكره طلاق ) .

... وما ان نطق بهذا الحديث الصحيح . وإذا بالألسن تتداوله ذائعة امره ، حتى شاع وانتشر بين الخلق في مدينة سيد الخلق عليه الصلاة والسلام . ثم اخذت التأويلات لهذا الحديث تجري على قدم وساق . كل طائفة وجدت فيه بغيتها وعضت عليه بالنواجذ لأن فيه مستنداً شرعياً لما عزمته عليه من امر مما بيتت من فعل .

فالمناوئون لحكم ابي جعفر المنصور وجدوا فيه مستنداً قوياً على التحلل من بيعة المنصور لأنها جاءت - كما اعتقدوا - عن طريق الاكراه . اذ قاسوا البيعة على الطلاق فقالوا : وليس على مستكره بيعة ) .

وأنصار محمد بن عبدالله بن الحسن رضي الله عنهم وجدوا فيه متكناً حين خروج هذا الامام الجليل .

أما الحكام من ابي جعفر وولاته فقد وجدوا في نشر هذا الحديث خطراً عليهم وعلى كيانههم ، لذلك حاولوا ان يمنعوا الامام مالكا من التحدث به .

ولكنه لم يفعل ، وهددوه فلم يسمع . لأنه يؤمن بأن الله اوجب على العلماء ان يبينوا للناس ما نزل على رسوله محمد ﷺ ، ولا يكتمونونه ولم يكن الامام مالك من الجبناء الذين يكتمون احكام الاسلام . ارضاء لهوى الحكام ، او خوفاً من بطشهم وجبروتهم او اسواطهم وأغلاهم ، عند ذاك نزلت المحنة ووقع الاذى ، والسؤال الذي يرد ؟ من انزل بإمامنا هذه المحنة فباء بأثمها وتولى كبرها ، وحصد شرها ؟ .

الروايات التاريخية تشير الى ما يلي :

.. ان ابا جعفر ( نهاه ان يحدث بهذا الحديث ثم دس اليه من يسأله عنه فحدث به على رؤوس الناس فضربه <sup>(١)</sup> ) .  
ومثل هذا روى ابن عبد البر في الانتقاء .

( لما دعى مالك بن انس وشور وسمع منه وقبل قوله شنف له الناس <sup>(٢)</sup> )  
وحسدوه ونعتوه بكل شيء ، فلما ولي جعفر بن سليمان على المدينة سعوا به اليه وكثروا عليه عنده ، وقالوا لا يرى ايماناً ببيعتم هذه شيء .

وهو يأخذ بحديث رواه : ( ثابت بن الاحنف في طلاق المكره لا يجوز ) <sup>(٣)</sup> .  
( بعد ان ذكر هياج اهل المدينة على المنصور في اول امره ، انه ارسل اليهم ابن عمه ( جعفر بن سليمان ) . فاشتد في اهل المدينة الخلاف واخذت البيعة للخليفة ، فسعى حسدة الامام مالك الى الامير انه يفتي باليمين على مكره فيحل بهذا ما ابرمتموه مما قام على الاستكراه ، فاراد ان يبدر فيه فقميل لا تبدر فانه اكرم الناس على الخليفة فدس الى مالك بعض ثقاته فأفتاه على طمأنينة منه ،

---

(١) ص ٨٤ ج ١٠ تاريخ ابن كثير .

(٢) شنفوا له اي تنكروا له .

(٣) ٤٤. الالتقاء لأبي عبد البر .

فلم يشعر إلا ورسول جعفر فيه فأتوا به فتنهك الحرمة وضربه سبعين سوطاً  
اضجعت به بعد انتهاء الفتنة ( ١ ) .

والذي يبدو في هذه الروايات ان الذي تولى كبر هذه المهنة ونفذها هو ابن  
عم المنصور - جعفر بن سليمان - وكان المنصور على علم بذلك وان لم يكن من  
ظاهر الواقع ضارباً او آمراً بالضرب .

( ونحن لا نستطيع ان ننفي ان يكون ذلك بعلم ورضا من المنصور الداهية  
الذي كان على علم بما يجري داخل دولته وخاصة من كبارها وان الذي كان على  
علم بداخل بيت مالك حتى يعرف انه كان يأمر خادمه بإدارة الرحى حتى لا  
يسمع الجيران صوت ابنته من البكاء جوعاً ما كان يجهل بما يجري ) ( ٢ ) .

ولكن الخبث السياسي الذي يحمله اصحابه من الحكام يجعلهم يحملون اثم  
الافعال وكبر المحن غيرهم لتكون لهم فرصة البراءة لأنفسهم عند اللزوم بين  
الناس اذا وجدوهم قد انكروا هذا الاثم وسخطوا من تلك المحن لظهور الظلم  
فيها ، اما الله فلا تخفى عليه خافية فهو يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور  
وهذا ما اتبعه المنصور مع مالك ، عندما برأ الاخير من جراحه وطلب اليه  
الاجتماع بمنى في موسم الحج . يقول مالك ( لما وصلت على ابي جعفر وقد عهد اليّ  
ان آتيه في الموسم قال لي : والله الذي لا إله إلا هو ما امرت بالذي كان ولا  
علمته ، انه لا يزال اهل الحرمين بخير ما كنت بين ظهرهم واني اخالك اماناً لهم  
من عذاب ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة ، فانهم اسرع الناس الى الفتن ،  
وقد امرت بعمدو الله ان يؤتى به من المدينة الى العراق على قتب وامرت بضيق  
محبسه والاستبلاغ في اتهامه ولا بد ان انزل به من العقوبة اضعاف ما نالك منه ،

---

( ١ ) الامامة والسياسة لأبي قتيبة .

( ٢ ) ص ٦٠ مالك لأبي زهرة .

فقلت عافى الله امير المؤمنين واكرم مثواه قد عفوت عنه لقرابتهم من رسول الله ﷺ وقرايته منك قال : فعفا الله عنك واوصلك (١) .

ومثل هذا روى ابن قتيبة في الامامة والسياسة .

تلك عظمة مالك من تسامحه واحتسابه السبعين سوطاً لله ، له بها ثواب الصابرين ومثوبة المؤمنين ...

( وبهذا انتهت محنته وعاد الى دروسه وصنف كتابه الموطأ بعد ذلك ولكن المحن لم تزل قائمة باقرانها (٢) ) ...

### — محنة احمد بن حنبل —

اذا اجاب العالم تقية والجاهل يحبل  
فمتى يتبين الحق .

— ابن حنبل —

قيدت الدولة الاسلامية في اواخر حكم المأمون سنة ٢١٨ هـ الفكرة القائلة  
بخلق القرآن الكريم ، واستعملت قوة سلطانها وصرامة جندها في تنفيذها .

---

(١) ص ٢٩٣ المدارك .

(٢) مات سنة ١٧٩ هـ وله من العمر ٨٦ سنة .

هذا ما نرجعه من موقف المنصور من الامام مالك ( بالحنة ) من انه على علم بها راض عنها  
او ان أردنا تحسين الظن بهذا الموقف بناء على اليمين المنعقدة التي حلف بها المنصور للامام مالك  
كما ذكرها صاحب المدارك ومن باب التوفيق بين الروايات فنقول ان ابا جعفر امر واليه على  
المدينة ان يراقب مالكا وان يحول بينه وبين عمله وتحذره ضده وضد حكمه ولكن الوالي فسر  
طلب المنصور بالذي فعله وقام به من ضرب وانتهاك حرمة هذا الامام الجليل وعلى كل حال فان  
المنصور مسؤول عما اصاب امامنا من محنة واذى ..

( الامام راع وهو مسؤول عن رعيته ) وكيف لا يسأل والخليفة العادل عمر رضي الله عنه  
يقول : والله لو ان سحرة عثرت بأرض العراق لكنت مسؤولاً عنها يوم القيامة لم اعدل لها  
الطريق ..

وأنزلت المحن الشداد بالمعارضين والمخالفين لها ، بل والساكنتين من الذين توقفوا فيها .

واستمر هذا التبني حتى حكم المعتصم والواثق الى ان جاءت سنة ٢٣٤ هـ ، فآن للدولة في بداية حكم المتوكل ان ترفع هذا التبني وتبطله وبذلك خلصت الامة من شروره ومحنه .

وتبني الدولة في ذلك خاطيء حتى لو كانت الفكرة المتبناة صحيحة لأنها مما يتعلق بفروع العقيدة الاسلامية لا بأصولها .

وفروع العقيدة لا يكون فيها التبني من قبل الدولة الاسلامية وذلك بإلزام الناس بها وجبرهم على اعتناقها . ولكيلا تخرج رعيتهما ما دامت هذه الفروع لا تناقض اصول العقيدة ، تلك التي تجعل الفرد مسلماً ويكون معتنقوها مسلمين ، وبدون الايمان بأصول العقيدة يكون الكفر والخروج من حضيرة الاسلام .

وكيف وان تلك الفكرة - خلق القرآن الكريم - خاطئة وحمل الناس على اعتناقها بالقوة - قطعاً للرؤوس وضرباً بالسياط واغلاًلاً بالأسار وحبساً بالسجون - جريمة يتولى اثمها اصحابها والمنفذون لها .

ولكن هكذا رغب المأمون فسلك هذا الطريق غير المأمون !!

والذي يهمننا من محنة هذا الامام الجليل واقارانه الذين شاركوه فيها ان نذكر مواطن المحنة ونسجلها كما وردت في كتب الثقات من المؤرخين . اما فيما يتعلق بها ويدور في فلكها فسيكون نصيب ذكرها الايجاز لا التفصيل .

اصحاب هذه الفكرة هم المعتزلة . والمعتزلة قالوا ان القرآن الكريم مخلوق لأن الله تعالى خلقه وأنزله على رسوله سيدنا محمد ﷺ .

وقال جمهرة الفقهاء والمحدثين ، ومنهم الامام احمد رحمه الله تعالى بأن القرآن غير مخلوق لأنه كلام الله وكلامه غير مخلوق .

وتوقف آخرون عن بيان رأيهم في ذلك لأسباب اعتقدوا بها .

ولكن المعتزلة استطاعوا لقربهم من المأمون واستوزارهم له ان يحملوا المأمون على اعتناق فكرتهم هذه وتنفيذها بقوة سلطانه ، وذلك عن طريق تبنيها من قبل الدولة .

واستمر هذا التبني الى حكم المعتصم والواثق وبداية حكم المتوكل بوصية يوصي بها الحاضر اللاحق .

ونفذ المأمون هذه الفكرة بأربع مراحل .

المرحلة الاولى : استعمل المأمون اسلوب حرمان العلماء والفقهاء والمحدثين من وظائف الدولة وعدم قبول شهادتهم في القضاء ، وذلك في حالة معارضتهم لهذه الفكرة وعدم قبولهم اياها .

يوضح هذا ما جاء في كتابه الاول الى هامله على بغداد اسحاق بن ابراهيم ، وهذا نصه :

( ... فاجمع من بحضورك من القضاء واقراء عليهم كتاب امير المؤمنين هذا اليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وأحداثه ، وأعلمهم ان امير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظ من امور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده وبقينته وترك اثبات شهادة من لم يقر انه مخلوق محدث ، ولم يره ، والامتناع عن توقيعها عنده ) (١) .

المرحلة الثانية : حرمان المخالفين من إعطيات الدولة من الذين يتولون التعليم والارشاد ويتصدون للفتوى ، أمثال عفان بن مسلم ، اذ يقول :

---

(١) ص ١١١٢ ج ٢ الطبري طبعة ليدن .

( فقال لي اسحق : ان امير المؤمنين أمر إن لم تجبه يقطع عنك ما يجري عليك وان قطع عنك امير المؤمنين قطعنا نحن ايضاً ، فقلت له : قال الله تعالى ( وفي السماء رزقكم وما توعدون ) فسكت عني اسحاق ) (١) .

المرحلة الثالثة : وفيها اشتدت المحنة ضراوة ، اذ جعل عقاب المخالفين والمعارضين الضرب بالسياط ، والاسار بالأغلال والطرح بزنزانات السجون ثم إرسالهم اليه مخفورين . وأمر بتنفيذ ذلك حاكم بغداد كما جاء في كتابه الثالث اليه :

( .. فاحملهم أجمعين موثقين الى عسكر امير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في الطريق حتى يؤديهم الى عسكر امير المؤمنين ويسلمهم الى من يؤمر بتسليمهم ، لينطقهم امير المؤمنين ، فان لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف ان شاء الله ولا قوة إلا بالله ) (٢) .

المرحلة الرابعة : وقد بلغ العقاب أوجه وهو الاعدام بقطع الرؤوس هن الهامات وأمر بتنفيذ هذا العقاب واليه على بغداد اسحاق بن ابراهيم ، فجاء بكتابه الرابع اليه :

( .. فإن امير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته ، اذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك المحض عند امير المؤمنين ، فإن تاب منها فاشهر امره وامسك عنه وإن أصر على شركه ودفع ان يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده فاضرب عنقه بالسيف وابعث الى امير المؤمنين برأسه ) (٣) .

وبهذا انتهى تعيين أساليب التنفيذ ، فدخلت المحنة مرحلتها الأخيرة وسارع اسحاق حاكم بغداد الى طاعة اميره . فاجتمع بكبار علماء بغداد وكان من

---

(١) ص ١٣ المقضي للمقريري .

(٢) الطبري ج ٢ .

(٣) ص ١١٢٥ وما بعدها ج ٢ الطبري .



جملتهم إمامنا احمد لمناقشتهم وجرى الامتحان . وكانت الأجوبة متفاوتة في الصراحة والجرأة ، فمنهم الموفق بين رأيه الخاص ورأي الدولة ، ومنهم المتأول ، ومنهم الآخذ بقاعدة التقية ؟؟ ولكن أربعة منهم في هذا المجلس ربط الله تعالى على قلوبهم فثبتتهم ورضوا بحكم الله تعالى فيهم ، فأعلنوا رأي الاسلام كما يعتقدونه في هذه الفكرة بوضوح متحملين كل مشقة في هذا السبيل ، وهم إمامنا احمد ومحمد بن نوح وعبيد الله القواريري ، وسجادة .

عند ذاك اخذ هؤلاء الأربعة الكرام مصفدين في الأغلال وأدخلوا زنزانات السجن .. ينتظرون .. وفي اليوم التالي جيء بهم الى حاكم بغداد لإعادة السؤال عليهم . وأعطوا فرصة الاجابة ، فأجاب سجادة بما تريد الدولة ، فأطلق سراحه ... ثم أتيحت لهم الفرصة ثانية ، فلحق القواريري بصاحبه وبقي اثنان الله ثالثها ابن حنبل وابن نوح رضي الله عنهما .

وسجادة والقواريري قد أخذوا بالرخصة ، وامامنا وصاحبه قد أخذوا بالمزيمة فكانا أفضل من أخويهما . وكان سلوكهما هو السلوك الأصح وهو الطريق الأحق وهو المفروض على أمثالهما من الأئمة الذين يهتدى بهداهم ويقتدى بهم . لأنها رضي الله عنهما لو سلكا سبيل اخويهما . لضل الناس واعوج الطريق بهم وكان الفساد ولظن الناس - وليس لهم علم بما في الصدور - ان ذلك هو الحق وهو الذي ارتضاه ائمتهم وعلمائهم دنيا وعقيدة .

ولذلك يقول امامنا احمد ( اذا جاب العلم تقية والجاهل يحمل فمق يتبين الحق ) فحق على العلماء الرجال ان يثبتوا في الحق ويجهروا بالحق ليحفظوا على الناس دينهم . ويأمن الاسلام شر الطعن به وتكون محنتهم طريقاً الى نشره وسبيل العض عليه بالنواجذ .

وهذا ما نطق به احمد واقرانه . وهذا ما اراده واعتقده . وهذا ما تحقق ووقع ..

وسيجد القارىء الكريم ذلك واضعاً من خلال تفصيل هذه المحنة .  
نفذ حاكم بغداد امر الخليفة . فحمل الفقيهين على الابل موثقين في الاغلال .  
ليواجهوا المأمون في طرسوس .

وفي الطريق ، وقع ما حدث به المؤرخون الثقات بما هو آت ، جاء في طبقات  
الشافعية وذكر ابن الجوزي بسنده الى ابن جعفر الانباري انه قال : لما حمل  
احمد الى المأمون ، اخبرت ، فعبرت الفرات فاذا هو جالس فسلمت عليه ،  
فقال : ( اي احمد بن حنبل ) - يا ابا جعفر تعنيت ، فقلت ليس في هذا عناء .  
وقلت له انت اليوم رأس والناس يعتقدون بك . فوالله لئن اجبت الى خلق  
القرآن . ليجيبن باجابتك خلق من خلق الله . وان انت لم تحب ليمتنعن خلق  
من الناس كثير ، ومع هذا كان الرجل - يعني المأمون - ان لم يقتلك تموت  
ولا بد من الموت ، فثق بالله ولا تجبهم الى شيء . قال : فجعل - احمد يبكي  
ويقول ما شاء الله ما شاء الله <sup>(١)</sup> وفي الطريق ايضاً .

ذكر ابو نعيم وغيره <sup>(٢)</sup> ان احمد بن غسان المكلف بإشخاص ابي حنبل الى  
المأمون قال : فلما صرنا الى ( اذنه ) ورحلنا منها وذلك في جوف الليل فتح  
نابها فلقينا رجلاً ونحن خارجون من الباب وهو داخل فقال : البشرى ؟  
قد مات الرجل - يعني المأمون - .

وقال ابو الفضل صالح بن احمد بن حنبل : فصار ابي ومحمد بن نوح الى طرسوس  
وجاء نعي المأمون من ( البذندون ) فردا في اقيادهما الى الرقة وأخرجنا من  
الرقة في سفينة مع قوم محبسين فلما صارا بعافات ( وتسمى اليوم عانه ) توفي  
محمد بن نوح رحمه الله تعالى وتقدم ابي فصلى عليه ، ثم صار ابي الى بغداد وهو  
مقيّد ، فكث باليامرية أياماً ثم صير الى الحبس في دار اكثريت هند دار عمارة ،

---

(١) ص ١٤٦ طبقات الشافعية للسبكي .

(٢) ص ١٤٧ الحلية لأبي نعيم و ١٣٩ ص الطبقات للسبكي و ٤ المقضي للمقرئزي .

ثم نقل بعد ذلك الى حبس العامة في درب الموصلية . نعم مات محمد بن نوح في الطريق . فكان شهيداً مصداقاً لقوله ﷺ .

( ... ومن مات في سبيل الله فهو شهيد .. ) فاستراح وذهب الى ربه راضياً مرضياً وقد ادى الذي عليه وبقي الذي على اخوانه العلماء ..

وانتهت بذلك محنته ولكن صاحبه ابن حنبل ، لا زال في المحنة منتظراً .. ( من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً (١) ) .

وفي سجن احمد الذي طرح فيه ثمانية وعشرين شهراً . بقي صامداً فلم يغير رأيه ولم يبدل موقفه .

وكما ازدادت المحنة ويلات ازداد ايماناً وثقة بربه وبكتابه الذي يكافح من اجله .

ورغم محاولات اقناعه بالعدول عن رأيه ، واستجابة أمر الدولة اتسمت المحنة واشتدت وبلغت اقصاها ، رغم شفاعات الشافعين الذين قاموا بها متبرعين من انفسهم ...

قال اسحاق بن حنبل - عم إمامنا احمد - « كنت اتكلم مع اصحاب السلطان والقواد في خلاص ابي عبد الله ، فلم يتم لي الامر ، فاستأذنت على اسحاق بن ابراهيم فدخلت عليه وكلمته . فقال لحاجبه : اذهب معه الى ابن اخيه . ولا يكلم ابن اخيه بشيء إلا أخبرني به . »

قال اسحاق بن حنبل : فدخلت على ابي عبد الله ومعي حاجبه ، فقلت : يا ابا عبد الله قد أجاب أصحابك وقد اعذرت فيما بينك وبين الله ، وبقيت انت

---

(١) سورة الاحزاب .

في الحبس والضيق . فقال ابو عبد الله : يا عم ، اذا أجاب العالم تقية والجاهل  
يجهل ، متى يتبين الحق ؟ قال : فأمسكت عنه . ثم قال : فذكر ابو عبد الله  
ما روي في التقية من الاحاديث . فقال : كيف تصنعون بحديث خباب ؟ ان  
كان قبلكم ينشر احدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه . قال :  
فيئسنا منه .

ثم قال : لست ابالي بالحبس ، ما هو إلا ومنزلي واحد ، ولا قتلاً بالسيف ،  
انما أخاف فتنة السوط ، وأخاف ان لا اصبر . فسمعه بعض اهل الحبس وهو  
يقول ذلك . فقال : لا عليك يا ابا عبد الله . ما هو إلا سوطان ثم لا تدري اين  
يقع الباقي . فلما سمع ذلك سري عنه <sup>(١)</sup> .

وذكر ابو نعيم ومثله المقرئ : (حدثنا محمد بن جعفر وعلي بن احمد والحسين  
ابن محمد قالوا : حدثنا محمد بن اسماعيل ، حدثنا أبو الفضل صالح بن احمد  
ابن حنبل قال : قال ابي رحمه الله لما كان في شهر رمضان لليلة سبع عشرة خلت  
منه ، حولت من السجن الى دار اسحاق بن ابراهيم ( حاكم بغداد ) وأنا مقيد  
بقيد واحد يوجه إلي في كل يوم رجلان سنامهم ابي قال ابو الفضل صالح هما احمد  
ابن رباح وشعيب الحجام يكلماني ويناظرانني فاذا ارادوا الانصراف دعي بقيد  
فقيدت به ، فمكثت على هذه الحالة ثلاثة ايام ، وصار في ارجلي اربعة  
أقياد ) <sup>(٢)</sup> .

ثم ماذا حدث لإمامنا بعد ذلك . هذا ما يحدثنا به الامام نفسه ، فقال  
حاكياً حاله :

---

(١) ص ٥ المقضي للمقرئ .

(٢) ص ١٤٣ الحلية لأبي نعيم .

هذا هو ايمان عوام المسلمين وهذه المقالة من الرسول التركي ان دلت على شيء فانما تدل على  
التهكم اللاذع في تبني الدولة لهذه المفاهيم التي استدق فهمها على عموم المسلمين وهم لا يحتاجون اليها  
في دينهم واسلامهم .

( ... ) فلما كانت الليلة الرابعة بعد العشاء الآخرة وجه المعتصم ببغا - وهو رسوله - الى اسحاق بن ابراهيم يأمره بحملي ، فأدخلت على اسحاق ، فقال : يا احمد ، انما والله نفسك . انه قد حلف الا يقتلك بالسيف ، وان يضربك ضرباً بعد ضرب ، وان يلقىك في موضع لا ترى فيه الشمس . أليس قد قال الله تعالى : ( انا جعلناه قرآناً عربياً ) أفيمكنون مجمولاً الا وهو مخلوق ؟ فقلت له : قد قال الله تعالى : ( فجعلهم كعصف ما كول ) أفخلقهم ؟ فقال : اذهبوا به ، فأنزلت الى شاطئ دجلة واحدرت الى الموضع المعروف بباب البستان ، ومعني ببغا الكبير ورسول من قبل اسحاق فقال ببغا لمحمد المحاربي بالفارسية : ما تريدون من هذا الرجل ؟ قال : يريدون أن يقول القرآن مخلوق . فقال : ما اعرف شيئاً من هذا إلا قول لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله وقرابة امير المؤمنين من رسول الله .

ولما صرنا الى الشط اخرجت من الزورق ، فجعلت على دابة والأقياد عليّ . وما معي أحد يمسكني . فجعلت أكاد أخرج على وجهي ، حتى انتهى بي الى الدار ، فدخلت ثم عرج بي الى حجرة فصيرت في بيت منها ، وغلق عليّ الباب ، وأقعد عليه رجل وذلك في جوف الليل وليس في البيت سراج ( ١ ) . ثم ماذا فعل في تلك الزنانة الضيقة المظلمة ؟؟ وكيف كان ينهي ليله البهيم ؟؟ أسمعه يقول ( فاحتجت الى الضوء فمددت يدي اطلب شيئاً فاذا انا بإناء فيه ماء وطست فتيات للصلاة فقممت أصلي ) ( ٢ ) .

بالصلاة قضى امامنا احمد ليله ، وهل هناك أحب اليه من الصلاة ومن مناجاة ربه الذي يمتحن من أجل قرآنه وذكره المجيد ، وكم للصلاة خشوع ولها قبول إن كانت في وقت السحر ، وفي ساعات الشدة والمحن ؟

---

( ١ ) المصدر السابق بصحائفه .

( ٢ ) ص ١٤٨ وما بعدها الحلية لأبي نعيم و ص ٥٧٩ ج ٢ تاريخ اليعقوبي و ص ١٦٨

ج ٢ ابو الفداء في تاريخه و ص ٦ المقرئزي و ٤٨ تاريخ الاسلام للذهبي .

وفي الصباح جرت المحاكمة الأولى للامام على الوجه الذي يرويه هو رضي الله عنه :

( فلما أصبحت جاءني الرسول فأخذ بيدي فأدخلني الدار وإذا هو جالس ( المعتصم ) وابن أبي دؤاد حاضروا وقد جمع اصحابه ، والدار غاصة بأهلها ، فلما دنوت منه ، سلمت فقال ادنه ادنه ، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه ثم قال لي : اجلس ، فجلست وقد أثقلتني الاقياد . فلما مكثت هنيهة ، قلت ، تأذن في الكلام ؟ فقال : تكلم . قلت : إلام دعا إليه رسول الله ﷺ ( أي الى أي شيء دعا اليه ﷺ ) فقال : الى شهادة أن لا إله إلا الله . فقلت أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم قلت : ان جدك العباس يحكي ان وفد عبد القيس ، لما قدموا على رسول الله ﷺ أمرهم بالإيمان بالله . فقال : أترون ما الايمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال ﷺ ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من المغنم .

قال المعتصم : ما تقولون في القرآن؟ قلت له : ما تقول في علم الله ؟ فسكت فجعل يكلمني هذا وهذا فأردت على هذا وأكلم هذا . ثم قلت : يا امير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أقول به ما أراه . فقال ابن أبي داود : أنت تقول الا ما في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ؟

فقلت له : تأولت تأويلاً ، فأنت أعلم وما تأولت ما يحبس عليه ويقيده عليه ، فقال ابن أبي داود هو والله يا امير المؤمنين ضال مضل مبتدع وهؤلاء قضاتك والفقهاء ، فسلمهم . فقال لهم ( المعتصم ) ما تقولون ؟ فيقولون يا امير المؤمنين هو ضال مضل مبتدع ) .

تلك مقالة علماء السوء وطلاب الدنيا وعبيد أهوائهم . حينما يخاضعون قرناءهم في المعتقد ، ويخالفونهم في الرأي في كل زمان .

ثم قال الامام احمد : ( ولا يزالون يكلمونني وجعل صوتي يعلو على اصواتهم .

فقال لي انسان منهم : قال الله تعالى - ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ( أف يكون محدث إلا مخلوق ؟ فقلت له : قال الله تعالى ( ص والقرآن ذي الذكر ) والذكر هو القرآن وتلك ليس فيها ألف ولا لام . فجعل ابن سماعة ( وهو من قضاة المعتصم ) لا يفهم ما أقول . فجعل يقول لهم ما يقول ؟ فقالوا انه يقول كذا وكذا . فقال لي انسان منهم حديث خباب يا هذا تقرب الى الله بما استطعت فانك لن تتقرب اليه بشيء هو أحب اليه من كلامه . فقلت له : نعم هكذا هو ( ١ ) .

فجعل ابن ابي دؤاد ينظر اليه ويلمحظ متغيظاً عليه . فكان اذا انقطع الرجل منهم اعترض ابن ابي دؤاد فتكلم . فلما قارب الزوال قال لهم : قوموا .

وهكذا انتصر الامام عليهم بفكره وقوي حجته وخاب المبطلون ؟

فالمعتصم يستمع الى تلك المناقشة او المحاكمة التي علا فيها صوت الحق المتمثل بحجج احمد وبرايمنه من الصباح حتى قاربت صلاة الظهر .

ثم اتبع المعتصم اسلوباً آخر لعل به يزحزح احمد عن ايمانه ومعتقده . يقول الامام احمد : « ثم احتبس ( اي المعتصم ) عبد الرحمن بن اسحاق فخلا بي وبعبد الرحمن ، فجعل يقول لي : أما تعرف صالحاً الرشيدي ؟ كنت مؤدبي وكان في هذا الموضع جالساً ، وأشار الى ناحية من الدار ، فتكلم وذكر القرآن فخالفتني فأمرت به فسحب ووطىء . ثم قال : ما اعرفك ؟ ألم تكن تأتينا ؟ فقال له عبد الرحمن : يا امير المؤمنين : اعرفه منذ ثلاثين سنة ، يرى طاعتك والحج والجهاد معك ( ٢ ) . وهو ملازم لمنزله . فجعل يقول ( المعتصم ) : والله انه

---

( ١ ) وحديث خباب قد مر ذكره وهو قوله صلى الله عليه وسلم ( ان من كان قبلكم ينشر أهدم بالمنشار لا يصدده ذلك عن دينه ) وتلك مقالة جريئة نطق بها احد الحاضرين من العلماء فصدقه امامنا ولعل هذا الامام الجليل اخذ عقابه فيما بعد .  
( ٢ ) يقصد بقوله طاعتك : طاعة بني العباس لأن المعتصم منهم .



لفقيه وانه لعالم ، وما يسرني ان يكون مثله معي ، يرد على اهل الملل ، ولئن اجابني الى شيء ، له فيه ادنى فرج ، لأطلقن عنه بيدي ولأطأن عقبه ، ولأركبن اليه بجندي . ثم يلتفت إلي ويقول : ويحك يا احمد ما تقول ؟ قلت : يا امير المؤمنين ، اعطوني شيئاً من كتاب الله او سنة رسوله ﷺ . فلما طال بنا المجلس فوجر فقام فرددت الى الموضوع الذي كنت فيه .

رجع الامام الى سجنه الضيق المظلم وهو مقيد بالأغلال مرفوع الرأس ثابت الايمان ، قوي الجنان ، شاكر ربه على توفيقه إياه ونصره في تلك المناقشة وفي تلك السبيل ذات التهديد المرعب والاغراء العريض .

ثم يقول الامام احمد رضوان الله عليه : « ثم وجه إلي برجلين هما صاحب الشافعي (عبد الرحمن بن اسحاق) وغسان من اصحاب ابن ابي داود ، فيناظراني فيقيمان معي حتى اذا حضر الافطار وجه الينا بمائدة عليها طعام . فجعلنا يأكلان وجعلت اتمل حتى ترفع المائدة . وأقاما الى غد ، وفي خلال ذلك يجيء ابن أبي داود فيقول لي : يا احمد يقول امير المؤمنين ما تقول ؟ قلت له : اعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى اقول به . فقال لي ابن ابي داود : والله لقد كتب اسمك في السبعة فمحوته ولقد ساءني اخذهم اياك ، وانه والله ليس السيف انه ضرب بعد ضرب . ثم يقول لي : ما تقول ؟ فأرد عليه نحواً مما رددت عليه . »

هكذا يدعى شيخ المعتزلة وهو صاحب فكرة المحنة ؟ محاولة منه لإرجاع الامام عن معتقده لينتصر مذهبه ، ولكن محاولاته باءت بالفشل الذريع . ورجع ابن ابي داود الى منزله ليستعد للمناقشة في اليوم الثاني .

ثم يقول الامام احمد :

« وفي اليوم الثاني دخلت على المعتصم فقال : ناظروه واكلوه ، فجعلوا يتكلمون ، هذا من هنا وهذا من هنا . فأرد على هذا او هذا . فاذا جاءوا بشيء

من الكلام بما ليس في كتاب الله وسنة رسوله ولا فيه خبر ولا أثر ، أقول لهم :  
ما ادري ما هذا . فيقول : يا امير المؤمنين اذا توجهت له الحجة علينا وثب ،  
واذا كلمناه بشيء يقول ما ادري ما هذا . فيقول : ناظروه . ثم قال : يا احمد  
اني عليك شفيق ...

وكان اذا انقطع الرجل ( اي اذا لزمته الحجة فأفحم ولا يستطيع ردا )  
اعترض ابن ابي دؤاد .

ثم يقول الامام احمد : « ثم أمرهم بعد ذلك بالقيام وخلأ بي وبعبد الرحمن  
ابن اسحاق ، فيدور بيننا كلام كثير ، ومن خلال ذلك قال : قدعو احمد  
ابن ابي دؤاد فأقول ذلك اليك ، فيوجه فيجىء فيتكلم ، فلما طال بنا المجلس قام .  
ورددت الى الموضع الذي كنت فيه ، وجاءني الرجلان اللذان كنا بالأمس فجعلنا  
يتكلمان فدار بيننا كلام كثير . فلما كان وقت الافطار جيء بالطعام على نحو  
ما أتى به في اول ليلة فأفطروا وتعللت وجعلت رسله تأتي احمد بن عمار ( وهو  
الواسطة بين الامام والمعتصم ) فيمضي اليه برسالة على نحو ما كان في اول الليلة ،  
حتى اذا كدت ان اصبح اخرجت تكفي من سراويلي فشددت بها الاقياد احملها  
بها اذا توجهت اليه ، فقلت لبعض من كان معي المتوكل بي : أريد خيطاً ،  
فجاءني بخيط ، فشددت به الاقياد وأعدت التكة في سراويلي ، ولبستها  
كراهية ان يحدث شيء من أمري فاتعري . »

بقي الامام يومين بلا طعام .. لأنه صائم فاستعد بذلك روحياً على استعداده  
فكرياً . اذ قد رفض ان يأكل من طعام القوم ... لأنه في ضيافة الله .

نعم استعد لذلك روحياً وفكرياً . للجلسة الثالثة من محامته ، التي سيكون  
فيها اعطاء القرار النهائي ... ولم ينس احتياطه لعورته ان تكشف ، لأنه قرر  
الصمود والثبات لكل ضرب او سيف حتى يلقي العلم الخبير . أما خصومه فقد  
استعدوا ايضاً ولكن غير استعداد .

وجاء اليوم الثالث وتأيدت ظنون الامام . قال الامام : ( فلما كان في اليوم الثالث أدخلت عليه ( المعتصم ) والقوم حضور . فجعلت ادخل من دار الى دار . وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط وغير ذلك من الزي والسلاح . وقد حشيت الدار بالجند ولم يكن في اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء حتى صرت اليه . قال : ناظروه وكلوه ، فعادوا بمثل مناظرتهم . فدار بيننا وبينهم كلام كثير ، حتى اذا كان في الوقت الذي كان يخلو بي فيه نحاني ثم اجتمعوا وشاورهم ثم نحام ودعاني . فخلا بي وبعبد الرحمن بن اسحاق ، فقال لي ويحك يا احمد ، انا والله عليك شفيق واني لأشفق عليك مثل شفقتي على هارون ابني فأجبنى ؟ .

فقلت ( يا امير المؤمنين اعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله ) وهنا ضاقت نفس المعتصم كما ضاق لسانه عن النطق الجميل كما سيضيق عليه قبره ، يوم قيامته ، فأصدر أوامره الجهنمية بانزال العقاب الذي ما بعده عقاب .

قال الامام احمد : ( فلما ضجر ( المعتصم ) وطال المجلس ، قال : عليك لعنة الله . لقد كنت طمعت فيك . خذوه : خلعوه ثيابه ؟ اسحبوه : فأخذت فسحبت ثم قال : العقابين والسياط ، فجيء بالعقابين والسياط . وقد كان صار الى شერთان من شعر النبي ﷺ ، فصررتها في كم قميصي .

فنظر اسحاق بن ابراهيم الى الصرة في كم قميصي . فوجه اليّ ما هذا مصرور في كم قميصك ، فقلت شعر من شعر النبي ﷺ . وسعى بعض القوم الى القميص ليخرقه في وقت ما أقمت بين العقابين فقال لهم : لا تخرقوه انزعوه عنه . فظننت انه درى عن القميص الخرق لسبب الشعر الذي كان فيه ، ثم صيرت بين العقابين وشدت يدي وجيء بكرسي فوضع لي ، وابن ابي داود قائم على رأسه ( المعتصم ) والناس أجمعون قيسام ممن حضر ، فقال لي ممن شدني خذ نابي الخشبتيين بيدك وشد عليهما ، فلم أفهم ما قال : فتخلعت يدي بما شددت ولم أمسك الخشبتيين .

ويقول ولده صالح « ولم يزل ابي رحمه الله يتوجع منها من الرسغ الى ان توفي » ثم قال : للجلادين تقدموا . فنظر الى الشياطين فقال ائتوا بغيرها ، ثم قال تقدموا فقال لأحدهم : ادنه اوجع قطع الله يدك . فتقدم فضربني سوطين ثم تنحى - وكان الامام يذكر كلاماً عند كل ضربة سوط ، قال المقرئ في المقضى فلما ضرب ( احمد ) سوطاً قال بسم الله فلما ضرب الثاني قال لا حول ولا قوة إلا بالله . فلما ضرب الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق . فلما ضرب الرابع قال : ( قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ) فضربه تسعين وعشرين سوطاً وكانت تكة سراويله قد انقطعت فنزل السراويل الى عانته . فتلست الساعة ينتهك فرمى ابو عبد الله ( امامنا ) طرفه الى السماء وحرك شفتيه فما كان اسرع من ان بقي السراويل لم ينزل . قال ميمون :

فدخلت على ابي عبد الله بعد سبعة ايام فقلت يا ابا عبد الله رأيتك يوم ضربوك قد انحل سراويلك فرفعت طرفك الى السماء ورأيتك تحرك شفتيك فأني شيء قلت ؟ قال : اللهم اني اسألك باسمك الذي ملأت به الورش ان كنت تعلم اني على صواب فلا تهتك لي سرأ ) .

وبعد تلك الشياطين الشداد وامامنا صابر محتسب يذكر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، والناس قيام ينظرون .

قال الامام ثم قام ( المعتصم ) حتى جاءني وهم محدقون به . فقال ويحك يا احمد تقتل نفسك . ويحك اجبني اطلق عنك بيدي . فجعل بعضهم يقول لي : ويحك امامك على رأسك قائم ، وجعل عجيف ( وهو من رجاله ) ينخس بقائم سيفه ويقول : تريد ان تغلب هؤلاء كلهم ؟

وجعل اسحاق بن ابراهيم يقول : ويلك الخليفة على رأسك قائم ، ثم يقول بعضهم يا امير المؤمنين دمه في عنقي ، ثم رجع فجلس على الكرسي ، ثم قال

---

تلك مقالة المنافقين حين التخاصم ( واذا خاصم فجر الحديث ) .

للجلاد : ادنسه شد قطع الله يدك ثم لم يزل يدعو جلاداً بعد جلاد فيضربني  
سوطين ويتنحى وهو يقول : شد قطع الله يدك .

ثم قال اليّ الثانية فجعل يقول : يا احمد اجبني فجعل عبد الرحمن بن  
اسحاق يقول لي ، من صنع بنفسه من اصحابك في هذا الامر ما صنعت ؟ هذا  
يحيى بن معين وهذا ابو خثيمة وابن ابي اسرائيل وجعل يعدد من اجاب ،  
وجعل هو (المعتصم) يقول ويحك اجبني فجعلت اقول نحواً مما كنت اقله لهم .

في هذا البحران من الضغط والارهاب يغفر فاه بالموت الزؤام وسيدنا  
الامام صامد كالجليل الاشم . والجلادون الذين يتناوبون على ضربه بالسياط  
الضرب المبرح وقد بلغوا مائة وخمسين جلاداً لا يستطيعون ان يحركوه عن  
اعتقاده قيد انملة .

وهنا تشتد النفوس حماقة والقلوب غيضا وأيدي الجلادين قوة فيعلن  
المعتصم من يقتله ؟ فجاء الجلاد ابو الدن فقال : انا ، قال : المعتصم بكم تقتله ؟  
قال : بخمسة عشر او عشرين فقال شد قطع الله يدك .

يقول الامام : ( ثم جعل يقول للجلاد شد قطع الله يدك . فذهب عقلي وما  
عقلت الا وانا في حجرة مطلق القيد ، فقال انسان ممن حضر . انا كبيناك على  
وجهك وطرحنا على ظهرك بارية<sup>(١)</sup> ودسناك . قلت ما شعرت بذلك ) .

نعم كيف يشعر . وقد تعهد ابو الدن الجلاد الاحمق . ان يزهد روح امامنا  
بضربات معدودات . وان ذهب شعور عقله فان قلبه الكبير بقي حياً ذا حراك  
وشعور تامين يلهمج بذكر الله .

قال الامام ( فجاءوني بسويق فقالوا لي : اشرب وتقياً . فقلت : لا افطر .

---

(١) البارية : الحصير .

ثم جيء بي الى دار اسحاق بن ابراهيم فنودي بصلاة الظهر . فصلينا الظهر فقال ابن سماعة ( قاضي المعتصم ) صليت والدم يسيل من ضربك فقلت : قد صلى عمر رضي الله عنه وجرحه يشغب دماً . فسكت ثم خلى عنه فصار الى المنزل ووجهه اليّ برجل من السجن ممن يبصر الضرب ويعالج منها . فنظر اليه فقال انما والله لقد رأيت من ضرب الف سوط ما رأيت ضرباً اشد من هذا لقد جر عليه من خلفه ومن قدامه . ثم ادخل ميلاً في بعض تلك الجراحات فقال لم يشغب فجعل يأتية ويعالجه ) .

كل ذلك الضرب وكل هذه الجراحات وكل تلك السجن المظلمة والزناات الضيقة ، وكل تلك القيود والاغلال ثم الركل بالافدام وهو فاقد الشعور . وكل هذه المحنة التي ما بعدها محنة ، امامنا صابر مصابر بين صلاة وصيام . من اجل الحفاظ على عقيدة الاسلام ، وحماية القرآن من القول المريب فيه . نعم ، كل هذا تحمله الامام بشبات وشجاعة ثم نسمعه يقول : والله لقد اعطيت المجهود من نفسي ولوددت ان انجو من هذا الأمر كفافاً لا عليّ ولا لي .

وبعد هذا الضرب وبعد تلك المعالجة الطبية لجروحه ، ماذا حدث لإمامنا ؟ وهل انتهت محنته ؟

هاج الناس وماجوا لأنهم رأوا صدق إمامهم ، وازدادوا وثوقاً بصحة معتقدهم . وان ما عليه احمد هو الحق ، وكادت ان تحدث ثورة تعصف بالمعتصم . فأدرك المعتصم ذلك ، وسارع الى قطع دابرها بهذه الحيلة الماكرة .

قال ابن ابي حاتم : سمعت ابا زرعة يقول : دعا المعتصم اسحاق عم احمد ابن حنبل ، ثم قال للناس : تعرفونه ؟ قالوا : نعم ، فانظروا اليه ثم قال لاسحاق : أليس صحيح البدن - ويشير بذلك الى الامام احمد - فقال برأسه نعم ، ولو انه فعل ذلك لوقع شر لا يقدر على دفعه . فلما قال قد سلمته اليكم

صحيح البدن هداً الناس وسكتوا ) (١١) .

ولولا هذا الهياج وهذه البوادر للثورة لكان المعتصم قد اخذ باقتراح ابن ابي  
دؤاد وطرح امامنا في السجن ...

يقول الامام : ( وكان ابن ابي دؤاد يبحث الخليفة على حبسي ويقول له يا امير  
المؤمنين احبسه فانه فتنة . فلا يجد بداً ان يخلي عني ولولا ذلك لكان قد  
حبسني وقال المعتصم لهم : ليس هذا كما وصفتم ) ..

وعاد الامام الى بيته لا يقوى على السير مكلاً بالنصر المبين ، مرتدياً تاج  
العز والفخار . وقد اثبت للملأ اجمع ان لله تعالى رجالاً يفضبون له .

وان للقرآن حماة يذودون عنه . وان للدين انصاراً يحودون بأنفسهم حين  
يعز الناصر ويكثر الوتر بتسلط الظلمة على رقاب الامة .

.. ثم عاد الامام الى درسه ووعظه بعد ان التأمت جروحه وشفيت  
اوجاعه . وذهبت عنه وعشاء المحنة .

ولكن هل ذهبت عنه المحنة وعن قرنائه الى غير رجعة ، لا ، لا .

فقد عادت اليه المحنة عندما تولى الواثق الحكم بعد المعتصم ، فاستمرت المحن  
تصب على اقرانه من السادة العلماء .

قلنا ان الامام احمد عاد الى درسه ووعظه فالتف الناس حوله ، ووجدوا  
فيه العالم التقى والفقيه المحنك الذي تراح اليه النفوس ، تستمع الى وعظه القلوب  
وانه امام العصر الذي تتمثل فيه الرجولة بأسمى معانيها .

ولما علم الواثق بذلك كله . ضاق صدره فأنزل به محنة ولكنها ليست ضرباً  
بالسياط وحبساً بالسجون وتضييقاً وملاحقة كما فعل ابوه المعتصم . اذ رأى ان  
هذا النوع من المحنة زادت امامنا محبة عند سواء الناس وجمهرة الامة .

---

(١) ص ٨ المقضي للمقريري .



ورفعت منزلته وعظم احترامه ، وانتشر معتقده ، وفشى فكره وكان نصيب ما تبذته الدولة ومما يعتقده رئيسها التراجع والضمور . فأصدر امره الجائر الآتي :

( لا تجمعن اليك احداً ولا تساكني في بلد انا فيه ) .

فأقام الامام احمد في داره لا يخرج الى صلاة ولا يشهد جنازة ولا يلقي درساً ، حتى مات الواثق ، أليس في ذلك محنة له ...؟؟

اما قرناء الامام احمد فقد انزل بهم الواثق اشكال الحن . فهذا احمد بن نصر الخزاعي ، قد تأثر بسلوك الامام احمد فحقد اشد الحقد على الدولة وأخذ يلزمها في دروسه ويعلن بصراحة اعتقاده الذي هو اعتقاد الامام ابن حنبل .

قال المقرئ وغيره : فأما احمد بن نصر فكان من اهل الدين والصلاح والامارين بالمعروف ... دعاه الواثق الى القول بخلق القرآن فأبى ، فأمر بضرب عنقه فضرب . وحمل رأسه الى بغداد فنصب في الجانب الشرقي ايما . ومثلها في الجانب الغربي . أما جسده فصلب بسر من رأى ( مدينة سامراء ) وفي رواية اخرى : وامتنع الواثق بالقرآن فأبى ان يقول انه مخلوق وشتمه الواثق فرد عليه . فضرب عنقه وصلب بسر من رأى ووجه برأسه فنصب ببغداد<sup>(١)</sup>

فهل هناك فظاعة في القتل وتمثيل في الجسم أشد من ذلك وأعظم ؟

وحين سمع ذلك الامام احمد قال : رحم الله احمد بن نصر ما كان أسخاه لقد جاد بنفسه !

وهذا نعيم بن حماد وكان رحمه الله من كبار علماء مصر ، مشهوراً بالصدق وغزارة المعرفة ، ناطقاً بالحق ، جريئاً في دحض الباطل ، لذا فقد اعلن صحة المعتقد في مسألة خلق القرآن ، مخططاً الدولة فيما ذهبت اليه .

---

(١) ص ١٠ المقضي للمقرئ وص ٣٤٦ تاريخ الخلفاء للسيوطي وص ٨٩ ج ٢ تاريخ اليعقوبي.

قال المقرئ في المقضي : ( واما نعيم بن حماد فكان من اهل مرو طلب الحديث بالحجاز والعراق . ثم نزل مصر ، ثم أشخص منها في خلافة الواثق ، وسئل عن القرآن فلم يوافقهم على ما ارادوا منه ، يعني القول بخلق الله فحبس حتى مات ) (١) .

وهذا ابو يعقوب البويطي ، تلميذ الامام الشافعي الذي تولى خلفه درسه بعد موته . وكان الربيع بن سليمان من أقران البويطي ، فقد حكى عنه : ( لقد رأيت البويطي مصفداً في اغلاله وسمعته يقول : والله لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون انه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم ، ولئن دخلت عليه ( يعني الواثق ) لأصدقنه ، فمات في السجن ) (٢) .

وهكذا أنزلت المحنة بأقران احمد من فضلاء الأمة وعلماء دينها ، وجيء بهم مصفدين في الاعلال من ارجاء الدولة الى الواثق ، ليأخذوا نصيبهم من هذه المحنة حتى ان عوام الأمة من الذين اتبعوا أئمتهم واعتقدوا رأيهم ، ولم ينجوا من هذه المحنة .

وذلك ان أسارى المسلمين الذين وقعوا في أيدي البيزنطيين . رأت الدولة بأمر الواثق ان تفاديههم وتفك أسرهم . ولكن من هؤلاء الأسارى تخلص من هذا الأسر ونجا من عذاب الروم وهو بين أيدي العلوج أسير ؟؟ .

هذا ما يحدثنا به المسعودي .

( وحضر هذا الفداء مع خاقان رجل يكنى أبا رملة . من قبل احمد بن ابي دؤاد قاضي القضاة يمتحن الأسارى وقت المفاداة فمن قال منهم بخلق التلاوة فودي به وأحسن اليه - بدفع دينارين له - ومن أبى ترك بأرض الروم .

---

(١) ص ١٠ وما بعد المقضي وص ٣٤٦ تاريخ الخلفاء للسيوطي . ص ٨٩ ج ٢ تاريخ اليعقوبي .

(٢) ١١ المقضي للمقرئ وص ٣٥٠ تاريخ الخلفاء وص ١٣٢ ج ٢ تاريخ ابي الفداء .

فاختار جماعة من الاسارى الرجوع الى ارض النصرانية على القول بذلك وأبى ان يسلم الانقياد الى ذلك فنالته محن ومهانة الى ان تخلص<sup>(١)</sup> .

وبهذا تعاظمت البلوى ، واشتدت المحن ، وبلغ الاضطهاد منها ، وسمت هذه الاحوال ، حتى صارت مسألة خلق القرآن حديث كل الناس من أفراد الرعية في الدولة ، وهم بين ماذح ومثني على من وقعت عليهم المحن وأصيب بشرورها ومترحم على شهدائها ، وبين منكر تصرف الدولة في ذلك . للقسوة التي استعملتها والاضطهاد الذي قامت به بل صارت هزلاً يتندر بها البعض . ومن ذلك ما يروى ان عبادة المضحك دخل يوماً على الواصل فقال : يا امير المؤمنين اعظم الله اجرک في القرآن ؟ فقال : ويلک القرآن يموت ، قال : يا امير المؤمنين کل مخلوق يموت ، بالله يا امير المؤمنين بم يصلي الناس التراويح فضحك الواصل وقال : قاتلك الله امسک .

ولما وصل الحال الى هذا الحد ، خفف الواصل من غلوائه .. ورفع كل اضطهاد جديد بشأن ذلك . ولكن أمر تبني المسألة هذه ، لا زال باقياً في الدولة ، وكان ذلك في اواخر حياته ، وقد روي ان سبب هذا التخفيف يعود الى سماعه تلك المناقشة التي يحدثنا عنها صاحب النجوم الزاهرة وغيره<sup>(٢)</sup> ..

أشخص شيخ من اذنه الى الواصل فأمره ان يناظر احمد بن دؤاد في هذا الموضوع . قال الشيخ : يا احمد خبرني عن مقالاتك هذه ، أهي واجبة داخلية في عقد الدين ، فلا يكون الدين كاملاً حتى يقال فيه ما قلت ؟ فقال احمد نعم : قال الشيخ ، اخبرني عن رسول الله حين بعثه الله هل ستر شيئاً مما أمر به ؟

---

(١) ص ١٦١ و ١٦٢ التنبيه والاشراف للمسمودي وص ١٣٥١ ج ٣ تاريخ الطبري و ١٤٠٦ الطبقات للسبكي .

(٢) ص ٦٩١ ج ١ النجوم الزاهرة . و ٣٤٧ تاريخ الخلفاء للسيوطي و ٢٦٦ الطبقات للسبكي .

لم يرد احمد عليه ، فقال الشيخ : يا امير المؤمنين هذه واحدة . فقال الواصل  
واحدة . ثم قال الشيخ : اخبرني عن الله حين قال ( اليوم اكملت لكم دينكم )  
أكان الله وهو الصادق في إكمال دينه أم انت الصادق في نقصانه ؟ حتى يقال  
مقالتك ؟ فسكت ابن ابي دؤاد فقال الشيخ اثنتان فقال الواصل نعم : ثم قال  
الشيخ ، عن مقالتك هذه أعلمها رسول الله ﷺ أم جهلها ؟ فقال ابن ابي دؤاد  
علمها . فقال الشيخ : فدعا الناس اليها ؟ فسكت . فقال الشيخ يا امير المؤمنين  
ثلاث فقال الواصل : نعم

ثم قال الشيخ ، فاتسع لرسول الله ﷺ أن علمها ان يمسك عنها ولم يطالب  
أمتة بها . فقال ابن ابي دؤاد نعم . فقال الشيخ واتسع لأبي بكر وعمر وعثمان  
وعلي ذلك فقال نعم . فقال الشيخ : أفلا وسعك ما وسعه ووسع الخلفاء بعده؟

وفي رواية للدميري في كتاب حياة الحيوان ، شيء لم يدع اليه رسول الله  
ﷺ ولا ابو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي تدعو أنت الناس اليه ، ليس يخلو  
ان تقول علموه أو جهلوه فإن قلت علموه وسكتوا وسعني وإياك من السكوت  
وأوسع القوم . وان قلت جهلوه وعلمته انت فيما كلع بن كلع يجهل النبي ﷺ  
والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم شيئاً وأنت تعلمه ..

بهذا انتهت المناقشة فأمر الواصل بإطلاق سراح الشيخ الادنى في الحال ،  
ذلك من أسباب التخفيف ولكن التبني في الدولة كما ذكرنا لم يرفع وان رفع  
الاضطهاد وإنزال الحن بالمخالفين .

وما ان تولى المتوكل الحكم في الدولة بعد الواصل ومضت على حكمه سنتان (١)  
وهو يرى ما جر هذا التبني من سوء على الامة والدولة معاً . فأمر بإلغاء هذا  
التبني وهدد بانزال العقاب بمن يتحدث في هذه المسألة ، وفك المسجونين ، وأكرم  
المتضررين وبذلك انتهت المحنة الى غير رجعة .

---

(١) تولى المتوكل الحكم سنة ٢٣٢ هـ .

قال السبكي : وقد طال امر الفتنة وطال شرها واستمر من سنة ثمان عشرة ومائتين ٢١٨ هـ الى سنة اربع وثلاثين ومائتين ٢٣٤ هـ فرفعها المتوكل في مجلسه ونهى عن القول بخلق القرآن وكتب بذلك الى الآفاق (١).

---

(١) ص ١٤٣ الطبقات للسبكي .

توفي الامام احمد بن حنبل رحمه الله سنة ٢٤١ هـ وله من العمر ٧٧ سنة هـ .  
الخروج على الحاكم بالثورة المسلحة قضية شدد الاسلام فيها وأحاطها العلماء بالعناية اللازمة ، من البحث والدراسة لما يحدث من نتائج سيئة بالغة الخطورة على كيان الدولة ووحدة الامة .  
وصفوة القول فيها : ان الاسلام لم يحز الخروج على الحاكم لمجرد اساءة يرتكبها او مظالم يفعلها في البلاد :

فمعالجة هذه الناحية تكون بالموعظة والمناقشة والانكار بآثاره روح الامتعاض عند الامة ضد مظالمه وسيئاته اذا اصر على تلك المظالم والاساءات بحيث لا تبلغ حد الخروج عليه .  
اما اذا تعدى الحاكم فعل السيئات وارتكاب المظالم فنشر الكفر البواح وقام بأفعال الكافرين فأحل ما حرم الله وحرم ما أحل الله . فمعالجة هذه تكون بطريقتين تنفذ بالتتابع .  
الاولى : مناقشته من قبل علماء الامة وذوي الرأي فيها لعل شبهة دفعته الى عمل ما وان اصر بعد ازالة الشبهة واستكبر ولم تكن له اذن واعية فهنا تنفذ الطريقة الثانية وهي وجوب الخروج عليه ومنابدته بالسيف لانه يصبح حينئذ مرتدأ خارجاً من حضيرة الاسلام ومثله لا يصح شرعاً ان يكون حاكماً على الامة الاسلامية . والدليل الشرعي على ذلك فقد روى البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعنا ، فقال فيما اخذ علينا ان بايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا واثرة علينا وان لا ننازع الامر اهل الا ان تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان ) .

قال العيني في عمدة القاريء شارح صحيح البخاري ج ٢٤ ص ١٧٨ وما بعدها .  
( هذا الحديث أخرجه مسلم من المغازي عن احمد بن عبد الرحمن ... وقوله الا ان تروا كفراً بواحاً بايعنا قائلًا الا تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه في قواعد الاسلام ، اذ عند ذلك تجوز منازعتهم بالانكار عليهم ، والمراد من النزاع القتال . قوله بواحاً اي ظاهراً بادياً من قولهم باح بالشئ يبوح به بواحاً اذا اذاعه وأظهره قوله ( برهان ) الى نص آية او خبر صحيح لا يحتمل التأويل أ هـ . )

والذي عليه جمهور العلماء ان حكام الجور من الذين فعلوا الكفر البواح الصراح وهو الفعل او الرأي المخالف لنصوص الكتاب والسنة القطعتين ان قـدر المسلمون على خلصهم بغير قتال ومنازعة حربية كان هذا السبيل هو الافضل حفظاً من اراقة دم مصوم او سلب مال او انتهاك

وهكذا أثبت الأئمة من علماء المسلمين انهم دائماً المنار الوضاء والسراج المنير في مداهم الاحداث ، والخريجون الماهرون في مجاهل الوقائع ، والصابرون المصابرون في المحن والنوائب من أجل دينهم واسلامهم .  
دين الحق الذي اكرمهم الله بحمل لوائه وتحمل تبعاته .

### — محنة الشافعي —

ان كان رفضاً حب اهل محمد فليشهد  
الثقلان اني رافضي .  
— الشافعي —

... ان تسعة من العلوية تحركوا واني اخاف ان يخرجوا وان هاهنا رجلاً من  
ولد شافع المطلبي لا أمر لي معه ولا نهى ، يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل  
بسيفه <sup>(١)</sup> .

تلك هي قولة والي اليمن ، من كتابه الى الرشيد يستعديه فيه على اولئك  
النفر التسعة وعلى رأسهم الشافعي . وتلك بداية المحنة التي أنزلت بإمامنا الشافعي  
العظيم رضوان الله عليه .

---

= عرض واذا لم يقدرُوا من التخلص من هؤلاء الحكام الا بالقتال ، فيجب القتال والخروج  
عليهم ومنازعتهم ، ولو ادى الى قتله ونحوه و ( قالوا يجب الخروج على الحاكم الكافر ) .  
لأن ظهور الكفر اعز عند الله وأكرم من الدماء والاموال اذ بازالته وتنصيب غيره من  
الرجال العدول يقام الشرع وتنفذ احكام الاسلام .  
ولان الحاكم اذا عمل الكفر وأصر عليه كان مرتدّاً ومن اصبح مرتدّاً لا يجوز ان يبقى  
لحظة واحدة يحكم المسلمين .  
ولان ظهور الكفر في البلاد وطغيانها على احكام الاسلام تجعل هذه البلاد دار كفر ومق  
اصبحت ذلك يحرم على المسلمين ان يبيتوا فيها ليلتين لقوله صلى الله عليه وسلم :  
( لا يحل لمؤمن ان يبيت ليلتين في دار الكفر ) .

(١) ص ٢٢ الشافعي للاستاذ ابي زهرة وقد ذكر في الهامش ان صاحب توالي التأسيس  
والرازي في مناقب الشافعي ابن عبد البر في الانتقاء وصاحب معجم الادباء قد اتفقوا على ان  
هذا ( اتهام بالعلوية ) هي سبب المحنة .

ان الرواة جميعاً قد اتفقوا على ان سبب هذه المحنة هي ولاؤه لإمام الهدى سيدنا عليّ وأولاده رضي الله عنهم وأرضاهم ، فكان هذا الولاء هو الجريمة الكبرى ، وكان هذا الحب هو الخيانة العظمى ، التي يجب ان يعاقب عليها الشافعي بالاعدام ضرباً بالسيف ...

وان كان النفر التسعة قد عاقبهم الرشيد بالاعدام لمجرد التحرك لا الخروج فعلاً ان صدق الوالي بقوله فما ذنب الشافعي الذي لم يتحرك ؟ ولم يشرع في الخروج ؟ ولكن الاهواء اذا سيطرت على القلوب أعمتها عن رؤية الحق ، وإقامة العدل .

والشيطان - نعوذ بالله من شره - اذا اتخذ إماماً وولياً ساق اوليائه بعصاه السحرية الى الاجرام ، ودفع اتباعه الى الفساد في الارض ، وبطانة السوء الذين فقدوا التقوى ، تجعل من البريء مجرمًا ، ومن الحب والولاء .. خيانة .

ان حقيقة هذا الامر : هي ان الامام الشافعي ، عندما كان بمكة زادها الله شرفاً ، مع والدته لم يكن له عمل يعتاش به . فأشار بعض القرشيين على والي اليمن الذي مر بمكة ان يشغل الشافعي في ولايته ويستعين به في امره هناك .

يقول الشافعي : ( ولم يكن عند امي ما تعطيني ما اتحمل به فرهنت داراً فتحملت معه ( اي مع الوالي ) فلما قدمنا عملت له على عمل ) .

وفي عمله باليمن بمدينة نجران ، أقام الحق ونشر العدل فكان شخصية اسلامية بعقليتها الرائعة ونفسياتها المستقيمة حتى شاع ذكره الطيب في بطاح مكة وأطراف نجران ، ورأوا فيه مثلاً صالحاً لمن يتولى أمراً من أمور الناس .

يقول الشافعي : ( وليت بنجران وبها بنو الحارث بن عبدالله المدان وموالي ثقيف وكان الوالي اذا اتاهم صانعوه فأرادوني على ذلك فلم يجدوا عندي ) (١) .

---

(١) ص ٢١ الشافعي لأبي زهرة .



ولما لم يقبل مصانعة ، ولم يداهن واليه ورئيسه ، بل وقف له بالمرصاد يمنعه من أية مظلمة يريد ايقاعها بمن يتولى امرهم ، ولم يكتف إمامنا بذلك بل يحاسبه في كل أمر وينكر عليه كل سوء ، وهو الذي يملك لساناً كما يقول الوالي الغشوم الظلوم : ( يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه ) وبهذا وحده ضاق صدر هذا الوالي وأبت نفسه إلا أن يسيء الى الشافعي ، وكيف يستطيع ان يصيبه بسوء او يلحق به اذى ، وهو قد ملك القلوب حباً وأسر النفوس ، فدبر له أمراً بأن أشركه مع النفر التسعة بالتهمة الخطيرة المعروفة .. التي يفتح لها الرشيد أذنيه بل حواسه جميعاً ، لينزل به عقابها الصارم .

وبهذه المكيدة يتخلص الوالي من هذا الذي وقف في طريق تنفيذ امواته وإشباع نزواته .. وحال دون تسلطه على رقاب الامة .. أوثق التسعة وعاشرهم الشافعي ، وصفدوا بالآسار وأيديهم مغلولة الى اعناقهم ، وساروا من اليمن السعيد متوجهين الى بغداد لملاقاة الرشيد ، بصحبة ثلة من الجند للتحقيق معهم في هذه التهمة الخطيرة ؟؟ تهمة الخيانة العظمى ، ليأخذ المارد الخائن نصيبه من العقاب !!

دخل العشرة على الرشيد وهم مصفدون بالاغلال ، والنطع والسيوف بين يديه ، والجند شاكي السلاح قد اخذوا اماكنهم في قاعة المحكمة بقصر الخلافة ينتظرون ايماء الرشيد لهم ، لا يعصونه في أمر ويفعلون ما يأمرون .

بهذا الجو الارهابي الفظيع الذي ينطق بقطع الرؤوس عن اجسادها ويصرخ بأن النصر للقوي !! جرت المحاكمة فقتل التسعة رحمهم الله .

أما الشافعي : فقد انجاء الله ونصره . وهو الضعيف الذي طلب المدد من الحي القيوم فأمده وانقذه في ساعة عسرتة واستجاب له فكان من الناجين وحيث اتاه الله من براعة اللسان وذريه وقوى الحججة ومنطقها السليم المقنع ، وبما قذفه في قلب قاضي القضاة محمد بن الحسن من شفقة وطلب شفاعاة وتقديم شهادة ..

قال الشافعي وهو بين النطع والسيف والموت يفغر فاه . وقد وجهت اليه التهمة .

( يا امير المؤمنين ما تقول في رجلين احدهما يراني اخاه والآخر يراني عبده ايها احب اليّ . قال الرشيد الذي يراك اخاه . فقال ذلك انت يا امير المؤمنين انكم ولد العباس وهم ولد علي ونحن بنو المطلب ، فانتم ولد العباس تروننا اخوانكم وهم يروننا عبيدهم ) (١) .

أما شهادة قاضي القضاة وشفاعته ، فقد حضر محمد بن الحسن محاكمته وكان بين الشافعي وابن الحسن التقاء سابق في بغداد والتقاء العلماء يكون دائماً للعلم ومدارسة الفقه وبحث في المسائل الشرعية وادلاء كل منهم بدلوه .

فبعد ان قال الشافعي مقالته تلك . اخذ يبين ان له حظاً من العلم والفقه انه عند ذلك قال ان محمد بن الحسن يشهد على ذلك . فسأله الرشيد فأجاب ( له من العلم حظ كبير ) .

ثم اتبع قائلًا ( وليس الذي رفع عليه من شأنه ) .

وتلك شفاعته . فقال الرشيد ( فخذ اليك حتى انظر في امره ) (٢) .

---

(١) لا شك ان امامنا ذكر هذا من باب شرح واقع موجود اقتضت الحاجة الى بيانه وليس هو من قبيل مدح النفس .

(٢) ص ٢٣ الشافعي لأبي زهرة .

توفي رحمه الله سنة ٢٠٤ هـ وله من العمر ٥٤ سنة .

كثير من التهم الباطلة والاراجيف الظالمة تكون سبباً لانزال الحن ورفع الرقاب على مقاص الجلادين . وحوادث التاريخ قديماً وحديثاً شهادة ناطقة . ولكن الحاكم المسلم الذي ولي امر المسلمين ليقم عليهم العدل ويحكمهم بالقسطاس المستقيم ، عليه ان يحقق في تلك التهم ويكشف صدق الاراجيف من كذبها .

وان وجد شبهة ادرا العقوبة مصداقاً لقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ( ادروا الحدود بالشبهات ) .

وبهذا تخلص الشافعي من ذلك الاتهام الخطير ، ونجا من عقوبته ..

وتلك محنة الشافعي ، الايسدي مغلولة الى الاعناق بمعية جند الرشيد من اليمن الى بغداد ، ثم الموت يقترب منه . وقد لاح بين عينيه لولا عناية الله وحسن توفيقه . السبب الحقيقي هو قيامه بالواجب الملقى عليه باعتباره عالماً اخذ الله منه الميثاق لبيان احكام الشرع والوقوف في وجه الظالمين الطغاة ومن ثم قيامه بعمله في نجران الذي احسن فيه وقطع به الطريق على واليه وحال دون شهواته ونزواته .

ذلك السبب الذي افرغه الوالي الغشوم الظلوم بقلب آخر له دافع في حياة الشافعي هو ولاؤه للامام علي وابنائهم البررة وحسبه بذلك جريمة يعاقب عليها في دنيا الحكم اللئام ..

لقد كانت هذه المحنة محنة ساقها الله لامامنا ، ليختبره في ايمانه . ولينصرف الى العلم ومدارسة الفقه واستخراج الاحكام لمعالجة مشاكل الحياة . وليأخذ ما عند محمد بن الحسن من علم وفقه وهو صاحب الامام العظيم ابي حنيفة ورفيق الامام ابي يوسف . بدل تلك الولاية في اليمن .

وقد كان ذلك والحمد لله . ولئن واثق محنة الشافعي ونجا منها فان المحن الاخرى باشكالها لا زالت بانتظار رجالها من السادة العلماء .

### — محنة البخاري —

ليس في دنيا الاسلام مثل الامام محمد بن اسماعيل البخاري في زمانه ، فهو امير المؤمنين في حديث سيد المرسلين ﷺ كما لقب به .

ذاك ما شهد به شهود عدول من اقرانه الذين يعرفون فضله وعلمه ، ولتسمع الى شهادة أحدهم فيه :

( قال احمد بن حمدون الصفار ، رأيت مسلم بن الحجاج - وهو الحافظ المحدث صاحب صحيح مسلم - جاء الى البخاري فقبل عينيه وقال : دعني أقبل رجلك يا استاذ الاستاذين وسيد المحدثين ، وطبيب الحديث في علمه .. ثم سأله عن حديث كفارة المجلس ... فذكر له علته فلما فرغ قال مسلم لا يغضبك إلا حاسد واشهد ان ليس في الدنيا مثلك ) (١) .

نعم ليس في الدنيا مثله ، فقد وهبه الله تعالى قوة من الحظ ، وضبطاً في النقل وقدرة في فهم العمل . والتميز بين الصحيح والسقيم . وكتابه الجامع الصحيح الذي اتفق عليه جمهور علماء المسلمين . بأنه أصح كتاب بعد كتاب رب العالمين سبحانه وتعالى ، دلالة صدق على ذلك .

وكيف لا يكون كذلك . وهو الحجة الثابت والحافظ الاعظم لسنة سيدنا رسول الله ﷺ قولاً وفعلًا وتقريراً والذي لا يستطيع احد ان يجاريه في الضبط والاتقان ، سنداً ومنتناً .

( دخل مرة الى سمرقند فاجتمع باربعمائة من علماء الحديث بها . فجعلوا متون الاحاديث على غير اسانيدھا وخلطوا في الاسانيد فادخلوا اسناد الشام في اسناد العراق . ثم قرؤوها على البخاري يقصدون امتحانه فرد كل حديث الى اسناده ، وقوم تلك الاحاديث والاسانيد كلها ، ولم يقدرُوا ان يأخذوا عليه سقطه في اسناد ولا متن وكذلك وضعوا له في بغداد فاذعنوا له بالفضل والسبق ) (٢) .

لقد عرف امامنا البخاري في طيلة حياته . بأنه كان رضي الله عنه كثير الورع على درجة عظيمة من الزهد . الامر الذي كان يرى في ابتعاده عن الحكم وفي زهد الاتصال بهم . سلامة لدينه واماناً من تجريح تقواه . ولأنه اراد التفرغ اللازم للاشتغال في جمع احاديث الرسول الاعظم ﷺ . والاعتناء بها

---

(١) ٣٥٤ وما بعدها من كتاب الحديث والمحدثون لابي زهرة .

(٢) المصدر السابق .

عناية تليق بمكانها . وهي بلا ريب المصدر الثاني للإسلام . لذلك انصرف اليها بكلية ، يحوب أقطار الإسلام على راحته وفي بعض الاسفار مشياً على الاقدام . ليأخذ الحديث من ثقة رواه . قال رضي الله عنه ( دخلت الى الشام ومصر والجزيرة العربية - مرتين والى البصرة اربع مرات . واقمت في الحجاز ستة اعوام ولا احصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع المحدثين ) وانصرافه هذا جعله لا يفكر إلا بالحديث حتى في ساعات الجهاد حين كان حارساً مع صاحب له لحماية ثغر من ثغور المسلمين ، كما سيأتي في فصل قادم <sup>(١)</sup> .

ومن كان هذا حاله فأنى له ان ينشئ علاقة مع الحكام أياً كانت العلاقة سلباً او ايجاباً . لذا فقد اصبح هو في واد والحكام في واد آخر .

ولكن الظلمة من الحكام لا يرضون سلوك مثل هذا السبيل ، لأنهم يريدون من عالم المسلمين ان يكون معهم في كل حين في مرائهم وضرائهم ، يجلس مجالسهم ، ويستمع الى قولهم ، يسبح بحمدهم ويقدس أمرهم .. اما ان أبى ، منكرأ لحوالهم الشاذة ، محاسباً لأعمالهم الخاطئة واقفاً بالمرصاد ، ينصح ويرشد ، لا يقبل ظلمهم ولا يرضى سوء صنيعهم فإنهم يغضبون ويحقدون ، شافين غليلهم بالانزال عذاب الحن بهم ، ليستريحوا منهم ، ولن تستريح ضمائرهم ان كانت عندهم ضمائر .. اما ان يرفض قرباً طلبوه ، واتصالاً ارادوه ، جالساً على التل لا يريم ، مكباً على درسه وتدريسه ، وعلمه وتعليمه ، يستقبل الدارسين ويحيب سؤال السائلين ، لا يرفض متعلماً يأتيه ، ولكنه لا يأتي هو اليه ، لأن العلم يؤتى ولا يأتي اكراماً للعلم وعزة لحامله ، ان فعل ذلك العالم ، ثارت نائرة الظلمة من الحكام ، وغضبوا عليه ، منتقمين لأنفسهم كيف يرد طلبهم ؟..

وطلب الحكام منها كان لا يرد كما يزعمون ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، ومحنة إمامنا البخاري من هذا النوع الاخير . وقد يرى البعض ان هذه المحنة سهلة

---

(١) فصل العلماء والجهاد .

بسيطة ، عند قراءتها للوهلة الاولى . وربما حسبوها من قبيل الاضطهاد الخفيف او المضايقة التي ما كان ينبغي ان تقع او تصيبه ، لا من قبيل محنة اولئك الأئمة الكرام التي مر ذكرها .. ولكن الحقيقة انها محنة وانها نكبة بالنسبة لرجل تجاوز الستين عاماً ، إذ هو شيخ عاش لا لذاته ، وإنما من اجل حديث رسول الله ﷺ ، حيث قضى عمره وأفقى زهرة حياته يلتمس الحديث الشريف ويجمعه ، ناذراً نفسه لخدمة الحديث الشريف منذ كان عمره عشر سنين : ( أفهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب . قلت : وم أتى عليك إذ ذاك ؟ فقال : عشر سنين أو اقل ) (١) . في اسفار بعدت فيها الشقة ، فلا طائرات ولا سيارات انما دواب وأقدام ليسهل فهم الشريعة الاسلامية لمن يجيء بعده ، وليأخذوا من معين ما جمع ، وهو معين لا ينضب ، ويروون من بحره العذب النмир ويرتعون من ربيع رسول الله ﷺ في روضة وغدير . فرجل يعيش في أفق السنة المحمدية ، ويسمى لتنقيب الأحاديث النبوية ، بمشقة وعناء ، لا يعرفها إلا من ذاق طعمها ، ثم يقدم انتاجه هدية مسداة لطلاب الحديث في حلقة درسه او غيرها ..

وبعد هذا او ذاك يجازى مثل ما جوزي .

حقاً انها محنة ذات اهانة بالغة ، لا يتقدم على انزالها إلا من حرم طعم الايمان ، ولم يعرف لرسول الله ﷺ قدراً . ولنسمع قصة المهنة : ( فقد حدث الرواة ان امير خراسان خالد بن احمد الذهلي طلب من الامام البخاري وهو في بلده بخاري ان يحضر اليه لسمع اولاده منه ، فأبى ان يذهب قائلاً : في بيتي يؤتى العلم . فأراد الامير أن يعزف الناس عن السماع منه فلم يقبلوا من الامير ، فأمر بنفي البخاري من بلده الى بلدة ( خرتنك ) على قرسخين من سمرقند . وهناك مرض وعلى أثره مات في ليلة عيد الفطر . عن اثنين وستين سنة .

ولكن الله وهو العلیم الخبير سبحانه وتعالى ينتقم من الظالمين ويشار للمظلومين ، ولو بعد حين فهو يمهل ولا يمهل .

(١) ص ٣٥٣ الحديث والمحدثون .

قال رسول الله ﷺ ( ان الله ليمني للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ) (١) .

وصلت أنباء المحنة الى بغداد ، فقامت بغداد وقعدت وعم الاستياء ، لمحنة  
التقي الورع العدل الثبت . فأسرها الموفق بن المتوكل وهو اخو الخليفة المعتمد  
في نفسه ، متعينا الفرصة لينتقم لرسول الله ﷺ ويشأر لإمام المحدثين وأمير  
الحفاظ أجمعين .

وما هي الفرصة قد دنت فاستعد لها الموفق ، وماذا عمل ...

فقد حدثنا به ثقات المؤرخين .

حان موسم الحج ، فوصل أمير خراسان خالد بن أحمد الذهلي الى بغداد .  
وما ان سمع الموفق بقدومه ، حتى اصدر امره باعتقاله مخفورا ... ثم طرح في  
السجن حتى يذوق الموت (٢) ليأخذ جزاءه فيه فمات هناك وذلك جزاء الظالمين  
ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون .

### — محنة العز بن عبد السلام —

من أثر الله على نفسه أثره الله والمخاطرة  
بالنفوس مشروعة في اعزاز الدين .  
— العز بن عبد السلام —

انعقد اجماع كل المصادر للسير من كذب الطبقات والتراجم التي ذكرت  
سلطان العلماء العز بن عبد السلام على انه رحمه الله تعالى ، اشتهر بصفة عالية  
سامية فوق صفات هديه وسلوكه المبارك ، بل غلبت على جميع تلك الصفات .  
هي صفة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

(٢) تراجع ترجمته في وفيات الاعيان ص ٣٢٩ ج ٣ وقاربخ ابن كثير ص ٢٤ وما بعدها

ج ١١ ومفتاح السنة ص ٣٨ — ٣٩ ومقدمة فتح الباري ص ١٩٣ ج ٢ .

مات رضي الله عنه سنة ٣٥٦ هـ وله من العمر ٦٢ سنة هـ .



حق قال السبكي مفتتحاً ترجمته ( القائم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه ) ( ١ ) .

وقال الكتبي ( وكان اماراً بالمعروف نهاء عن المنكر لا يخاف في الله لومة لائم ) ( ٢ ) .

وقال ابن العماد الحنبلي ( وهذا مع الزهد والورع والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ) ( ٣ ) .

وهل يستطيع مسلم ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون ان يعرف ماهيتها وحقيقتها ومعناها . نوحز هذا المعنى بكلمات .. المعروف ما عرفه الشرع والمنكر ما نكره ، ومن هنا جاء علمه الغزير حتى لقب بسلطان العلماء ومن كان هذا شأنه وتلك صفته لا ينجو من محن واضطهاد في حياته علماً بأن انكار منكر الحكماء هو محاسبتهم . لذلك فقد تتابعت عليه المحن واصابه الاضطهاد المرير .

ان الواجب الشرعي يدعونا ان نقر هنا اقراراً متأسفين فيه ، محزونين على وقوعه . هي ان المحنة الاولى التي نزلت بهذا الشيخ الجليل والمحن التي نزلت بعده على الشيخ الجليل ابي تيمية رحمها الله تعالى ، كان سببها الاختلاف الفكري في المسائل الفقهية والقضايا الكلامية المعتمدة على النصوص الظنية في ثبوتها ودالاتها ، ذلك الاختلاف الذي رقي من رتبة الاختلاف الاجتهادي الذي يخطيء ويصيب صاحبه فيه ، فله اجران ان اصاب ، واجر واحد ان اخطأ وهو ما يقره الاسلام ، بل هو الدليل الاعظم على الحيوية الفكرية في الشريعة الاسلامية وعلى طاقسة اتساعها في الامور والمسائل ، والتي ابعدت الضيق

---

( ١ ) ص ٨٠ ج ٥ الطبقات .

( ٢ ) ص ٩٥ ج ١ فوات الوفيات .

( ٣ ) ص ٣٠٢ ج ٥ شذرات الذهب .

والاحراج عن الامة الاسلامية في مختلف العصور . اقول رقي هذا الاختلاف برحمته من هذه الرقبة الى رقبة التعصب المذهبي المقيت بشؤمه ومقته ، الذي نهى عنه الاسلام ، والذي ادى الى الفتن والاذى بين المختلفين وتفسيق وتبديع بعضهم البعض مستعينين بالحكام في بعض الاحيان ، لا يذاء الخصوم وانزال المحن بالمخالفين . مما ادى الى اضطهاد شيوخ العلماء ، والى الاضطراب الفكري والنفسي بين الامة ، في الوقت الذي كانت الامة الاسلامية بعلمائها وعامتها في غنى عن ذلك .

ولكن قاتل الله التعصب المذهبي المقيت ...

اعود فأقول: ان اول محنة نزلت بشيخنا الجليل كنت بفتنة الحنابلة الواقعة في زمن السلطان الاشرف بن الملك العادل الايوبي بدمشق .

يقول الذهبي : ( كان للاشرف ميل الى المحدثين والحنابلة وفي عصره حصلت فتنة بين الحنابلة والشافعية بسبب العقائد وتعصب عز الدين بن عبد السلام على الحنابلة وجرت خطبه ) (١) .

ويقول الكتبي ( ولما كان في دمشق سمع من الحنابلة اذى كثيراً رحمه الله ) (٢)

وكان هذا الأذى الذي أصاب شيخنا بسبب الاختلاف في مسألة كلامية ليست من اصول العقيدة الاسلامية ، ان فرضت عليه الإقامة الجبرية في داره ولا يفتي احداً من الناس ولا يجتمع بأحد منهم (٣) .

وبقي الشيخ رحمه الله في هذه ( الاستراحة ؟ ) الجبرية برهة من الزمن وتحدث اهل الشام بما حل بشيخهم المفضل ، وتهامس العلماء بينهم وتلاوموا على

---

(١) ص ٢٨٤ ج ٢ سيرة اعلام النبلاء .

(٢) ص ٥٩٦ ج ١ فوات الوفيات .

(٣) ص ٨٠ ج ٥ طبقات الشافعية للسبكي .

تفريطهم في نصرة الشيخ ومعتقده ، حق قيض الله من ينتصر له عند السلطان ذلك هو شيخ السادة الحنفية في زمانه الشيخ جمال الدين الحصري رحمه الله . وهناك في دار السلطنة قال السلطان للشيخ الحصري بعد مناقشته في المسألة .

« ونحن نستغفر الله مما جرى ونستدرك الفارط في حقه والله لاجعله اغنى العلماء ، وأرسل الى الشيخ واسترضاه وطلب محالته ومخالته » .

ولما فاز السلطان باجتماعه به في مرض اصابه طالباً محالته قال له : « أما محاللتك فاني في كل ليلة احالل الخلق وأبيت وليس لي عند احد مظلمة وأرى ان يكون اجري على الله ولا يكون على الناس » ..

ثم قدم له مائة دينار مصرية وهدية فردها قائلاً : ( هذه اجتماعة لله لا اكرها بشيء من الدنيا ) .

وقبل هذه الاجتماعة امر السلطان بالامساك عن الكلام في مسألة ( الكلام ) وان لا يفتي فيها احد بشيء سداً لباب الخصام . والسلطان الاشرف يردد ( لقد غلطنا في حق ابن عبد السلام غلطة عظيمة ) .

وما أن مرت السنون ، واذا بالشيخ العزيمتحن مرة اخرى لأنه أنكر على سلطان الشام وحاكم دمشق خيانتته السياسية للأمة الاسلامية .

وفما يلي موجز المهنة وسببها كما يحدثنا به الامام السبكي في طبقاته ، والمقريري في سلوكه (١) .

ان خلافاً نشأ واشتد ، وخصاماً طفق منذراً بالكيد والحرب بين الأخوين ، سلطان الشام الملك الصالح اسماعيل ، وسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب .

---

(١) يراجع ص ٣٠٣ وما بعدها ج ١ للسلوك وص ٥ وما بعدها - ٢٠٠ الطبقات للسبكي.

في سنة ١٣٨ هـ أوجس اسماعيل خيفة من نجم الدين، فاستعان بالصلبيين أعداء الاسلام، وتحالف معهم على قتال أخيه، وأعطاهم مقابل ذلك مدينة صيدا على رواية السبكي وكذلك قلعة صفد وغيرها على رواية المقرئ وغيره، وأمعن اسماعيل في هذه الخيانة فسمح للصلبيين ان يدخلوا دمشق ويشترى منها السلاح وآلات الحرب وما يريدون، وأثار هذا الصنيع المنكر استياء المسلمين وعلمائهم. فهب الشيخ العز واقفاً بوجه الخيانة والخائنين، وأفق بتحرير بيع السلاح لهم. وصعد على منبر جامع الأموي بدمشق في يوم الجمعة حيث كان خطيبه الرسمي وأعلن الفتوى، وشدد في الإنكار على السلطان وفعلته المنكرة وخيانتة الفظيعة للأمة الإسلامية. وقطع من الخطبة الدعاء للسلطان اسماعيل وهو بمثابة الإعلان بنزع البيعة ورفع الولاء عن السلطان يومئذ وصار يدعو بدعاء منه: ( اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد تعز فيه أوليائك وتذل فيه أعدائك ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك ... ) .

والمصلون يضحجون بالتأمين على دعائه، ولم يكن السلطان حاضراً تلك الخطبة إذ كان خارج دمشق، ولما أعلمه رجاله بذلك أمر بعزل الشيخ من خطبة الجمعة، واعتقاله مع صاحبه الشيخ ابن الحاجب المالكي لاشتراكه معه في هذا الإنكار.

وكان أنصار الشيخ العز قد أشاروا عليه بأن يغادر البلاد وينجو بنفسه من يد السلطان، وأعدوا له وسائل الهرب، ولكنه رحمه الله تعالى أبى ذلك وألحوا عليه، فأصر على الإباء، فعرضوا عليه أن يختبئ في مكان أمين لا يهتدي اليه السلطان ورجاله، فرفض هذا العرض أيضاً وقال (والله لا أهرب ولا أختبئ وإنما نحن في بداية الجهاد، ولم نعمل شيئاً بعد. وقد وطنت نفسي على احتمال ما ألقى في هذا السبيل. والله لا يضيع عمل الصابرين)<sup>(١)</sup>.

---

(١) يراجع ص ١٠٠ والإسلاماء للاستاذ احمد بكثير.

( ثم لما قدم اسماعيل الى دمشق أفرج عنها بعد الاعتقال . ولكن العز  
أبي عبد السلام أمر بملزمة داره وأن لا يفقي ولا يجتمع بأحد البتة ، فاستأذنه  
في صلاة الجمعة - مؤتماً بامامها - وأن يعير اليه طبيب او مزين ( حلاق ) اذا  
احتاج اليها وأن يدخل الحمام فأذن له في ذلك ) ..

ومرت الأيام ، والشيخ في إقامته الجبرية ، وقد منع من الافتاء والاتصال  
بأحد من اخوانه او طلابه ، وتعطلت هوايته المفضلة ، وواجبه المقدس  
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - فطلب الهجرة من دمشق قاصداً مصر .

وأفرج عنه بعد محاورات ومراجعات ، فأقام بدمشق ثم انتزع منها الى  
بيت المقدس . فوافاه الملك الناصر داود في الفور فقطع عليه الطريق . وأخذه  
وأقام بنابلس مدة . وجرت له معه خطوب ثم انتقل الى بيت المقدس حيث  
أقام مدة . ثم جاء الصالح اسماعيل والملك المنصور صاحب حصص وملوك  
الفرنج بعساكرهم وجيوشهم الى بيت المقدس .. يقصدون الديار المصرية ،  
فسير الصالح اسماعيل بعض خواصه الى الشيخ بمنديله ، وقال له : تدفع  
منديلي الى الشيخ وتتلطف به غاية التلطف وتستنزله وتعهده بالعودة الى  
مناصبه على أحسن حال ، فإن وافقك فتدخل به علي ، وإن خالفك فاعتقله  
في خيمته الى جانب خيمتي . فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته  
وملاينته ثم قال له : بينك وبين أن تعود الى مناصبك وما كنت عليه زيادة ،  
أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير ! فقال الشيخ والله يا مسكين ما أرضاه  
ان يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده . يا قوم أنتم في واد وأنا في واد .  
الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به . فقال الرسول : يا شيخ قد رسم لي ان  
توافق على ما يطلب منك ، وإلا اعتقلتك ، فقال الشيخ : افعلوا ما بدا  
لكم ، فأخذه واعتقله في خيمة الى جانب خيمة السلطان . وكان الشيخ  
يقرأ القرآن - في معتقله - والسلطان يسمعه . فقال يوماً لملوك الفرنج  
تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن ؟ فقالوا نعم . قال هذا اكبر قسوس

المسلمين ، قد حبسته لإنكاره علي تسليمي لكم حصون المسلمين ، وعزلته عن  
الخطابة بدمشق وعن مناصبه ثم أخرجته فجاء الى القدس وقد جددت حبسه  
واعتقاله لأجلكم !! فقالت له ملوك الفرنج : ( لو كان هذا قسيسنا لفسلنا  
رجليه وشربنا مرقتها ) .

تلك إجابة الفرنج الى السلطان الخائن التي كانت سهماً في قلبه وإنكاراً  
متضمناً لفعله ، والفضل ما شهدت به الأعداء . وذلك قول السلطان العبد  
لأسياده الفرنج يفتخر بخيائته !! .

ثم وقعت الحرب بين الأخوين وكانت الدولة والنصر للسلطان نجم الدين  
ايوب على رغم قلة جيشه في العدد والعدد بالنسبة لجيش اسماعيل وخلفائه .  
وتلك عاقبة الخائنين ... في كل حين .

وبذلك نجا الشيخ من أمر السلطان الخائن ، ووصل الى مصر مكرماً  
مميزاً ، وتولى فيها منصب قاضي القضاة .

وثالثة الأثافي من محنه تعرضه للقتل بسبب أمره ببيع أمراء الدولة في  
المزاد العلني .. ولكن الله تعالى حفظه وخذل خصومه .

.. كان لماليك الأتراك نفوذ في الدولة الاسلامية في اواخر حكم العباسيين .  
وامتد نفوذهم حتى أصبحوا أمراء في الدولة ايام حكم نجم الدين ايوب في مصر  
وكان الشيخ العز قاضياً للقضاة فيها ، وقام رضوان الله عليه ، مصلحاً لأمر  
القضاء ، منفذاً بحزم أحكام الشرع لا تأخذه في ذلك لومة لائم ، فنظر في  
حقيقة قضية اولئك الامراء التي أثارها هو ، ثم أصدر قضاءه الآتي :

قال السبكي<sup>(١)</sup> : ( ذكر كائنة الشيخ مع أمراء الدولة من الأتراك ...  
وهم جماعة ذكروا أن الشيخ لم يثبت عنده انهم أحرار وان حكم الرق

---

(١) ص ٨٤ ج ٥ الطبقات .

مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين . فبلغهم ذلك : فعظم الخطب فيه ، واحتدم الأمر ، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً . وتعطلت مصالحهم بذلك . وكان من جملة نائب السلطنة فاشتاط غضباً ، واجتمعوا وأرسلوا اليه ، فقال : نعقد لكم مجلساً وينادي عليكم لبيت مال المسلمين ، ويحصل عتقكم بطريق شرعي ، فرفعوا الأمر الى السلطان ، فبعث اليه فلم يرجع ، فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة ، حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر ، وأنه لا يتعلق به . فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار ، وأركب عائلته على حمير أخرى ، ومشى خلفهم من القاهرة قاصداً نحو الشام ، فلم يصل الى نحو نصف بريد ، حتى لحقه غالب المسلمين ، لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه له يتخلف ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحواؤهم ، فبلغ السلطان الخبر ، وقيل له متى راح ذهب ملكك فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه ، فرجع واتفقوا معهم على أن ينادي على الأمراء ، فأرسل نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفسد فيه ، فانزعج النائب فقال : كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض ؟ والله لأضربنه بسيفي هذا ، فركب بنفسه في جماعته ، وجاء الى بيت الشيخ ، والسيف مسلول في يده فطرق الباب ، فخرج ولد الشيخ ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى ، فعاد الى أبيه وشرح له الحال ، فما اكثرت لذلك ولا تغير وقال : يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله ، ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة فحين وقع بصره على النائب دبست يده النائب وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله ، فبكى ، وسأل الشيخ ان يدعو له ، وقال يا سيدي خير أي شيء تعمل ؟

قال أنادي عليكم وأبيعكم : قال فقيم تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين ، قال : من يقبضه ؟ قال : أنا ، فتم له ما أراد ، ونادى على الأمراء واحداً واحداً وغالى في ثمنهم ، وقبضه وصرفه في وجره الخير . وهذا لم يسمع قبله أحد ، رحمه الله ورضي عنه .



نعم لم يسمع بمثله ، ولم يقع شبيه له بعد ، فله رجال ، وللإسلام أنصار  
والمسلمين قادة هم العلماء ، وللقضاء قضاة يقيمون الحق ويحافظون على حدود  
الله ويقضون بالقسط المستقيم . لا يرهبون حاكماً ظالماً ولا يخشون سلطاناً  
جائراً . ولكن كيف نرى خلفاءهم وهم معظم قضاة اليوم يقضون بغير ما  
أنزل الله ... ويدعون أنهم مسلمون .

فيا أيها العزيز مسناً وأهلنا الضر ...

### — محنة ابن تيمية —

قال ابن الحريري: (إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن هو؟؟) (١).  
تلك شهادة عدل هو قاضي القضاة ابن الحريري رحمه الله .

حقاً انه شيخ الإسلام ، لأنه رحمه الله تعالى ، كان جبلاً في العلم ، إماماً  
في الفقه ، فقه الكتاب والسنة ، مجاهداً بقلمه ولسانه ، سهماً سلطه الله تعالى  
على المبتدعين وأصحاب الأهواء ، فضلاً عن جهاده بنفسه وسنانه في حروب  
التتار والكسرويين .

وله القدح الممل في تثبيت الأمة أيام البأساء والضراء وحين البأس ، وهو  
في مقدمتهم للذود عن كرامتهم وعزها ، كلما ادلهم الخطب ونزلات نازلة  
بالمسلمين .

يقول ابن سيد الناس (٢) : .. الى ان دب اليه اهل بلاده الحسد ،  
وأكب اهل النظر منهم بما ينتقد عليه لتبديعه سهاماً ، وزعموا انه خالف  
طريقتهم وفرق فريقهم ، فنازعهم ونازعوه ، وقاطع بعضهم وقاطعوه .

---

(١) ص ٢١ حياة شيخ الإسلام ابن تيمية للشيخ محمد البيطار .

(٢) ص ٧١ ج ١ فوات الوفيات .

وانتهت به هذه المنازعات وتلك المقاطعات الى المحن الشداد ، تحملها صابراً مصابراً محتسباً .

وان قلنا في محنة سلطان العلماء العز بن عبد السلام ان محنته الاولى كانت بسبب الاختلاف الفكري المشوب بالتعصب المذهبي المقيت ، فان جميع محن شيخ الاسلام كانت بنفس السبب مع اختلاف موضوعية الفكر والمعتقد .

والذي يهمننا من محن شيخ الاسلام هو ذكر مواطنها مع ايجاز اسبابها ، محتفظين برأينا الخاص في هذه الاسباب ، لأن موضوعنا هنا ليس تحقيقاً فقهياً ولا دراسة كلامية عقائدية ، حتى نبين صحة الاسباب او خطأها .

إلا أن الذي نود ان نؤكداه ثانية ، هو ان هذه الاسباب القائمة على الخلاف الفقهي والعقائدي ، لم تكن من اصول الشرع ولا من اركان العقيدة الاسلامية التي يكفر منكرها او منكر اصل منها ، كما لم تكن من نصوص الشرع القطعية في ثبوتها وولاتها ، التي لا اجتهاد فيها ولا خلاف .

ولما لم تكن كذلك ، فليس من التصرف الصحيح ، ان يستغلها المخالفون له في الرأي والاجتهاد ، فيفروا بها قلوب الحكام ويكبروها عندهم بالقدر الذي أغضبهم ، فاستعملوا نفوذهم لإنزال المحن بالشيخ .

والمخالفون يعرفون ، كما يعرف غيرهم ، ان حكاهم يومئذ ليس لهم حظ كبير في العلم والفقهاء ، حتى يحكوهم في هذا الخلاف ، وانما الحكماء هم جنود من الاتراك ، أهلتهم شجاعتهم وبسالتهم في الحروب ان يتولوا أمر المسلمين حيناً من الدهر .

ولكن المخالفين له ، لم يأخذوا بأقوال الأئمة المأثورة عنهم ، ومن ذلك مثلاً: قولنا صواب يحتمل الخطأ ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب . وقولهم: اذا صح الحديث فهو مذهبي واضربوا بقولي عرض الحائط . وقولهم : بكل

رجل يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب الروضة الشريفة . ولم يسلكوا نهج هؤلاء الأئمة من اصحاب المذاهب الاسلامية رحمهم الله تعالى ، في خلافاتهم في المسائل الفقهية والأمور الكلامية مع بعضهم بل ومع اصحاب المذهب الواحد وانما سلكوا ، عفا الله عنهم ، مجتهدين ، غير هذا السبيل ، فوقعت الهن ، وذلك ما قرره شيخ الاسلام في مخالفه ، فقال :

( ولا يخلو الرجل - اي من هؤلاء المخالفين - اما ان يكون مجتهداً او مخطئاً أو مذنباً ، فالأول مأجور مشكور ، والثاني مع اجره على الاجتهاد معفو عنه ، والثالث الله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين ) .

ومن محنة رحمه الله تعالى ما نقله صاحب الكواكب الدرية : ( .. انه في شهر ربيع الاول سنة ٦٩٨ وقع بدمشق محنة للشيخ الامام تقي الدين ابن تيمية وكان الشروع فيها من اول الشهر وكانت سببها ترجيحه مذهب السلف في الصفات على مذهب المتكلمين ) .

هذا هو السبب للمحنة الاولى ، أما مواطنها هي ورفيقاتها من الهن فقد ذكر المؤرخون لها (١) .

انه رحمه الله تعالى ، بعد أن أجاب على سؤال ورد من حماء في مسائل العقيدة ، وذاع امرها بين الناس وقف بعض علماء الشام ، من ذلك : موقفاً غير حميد ، اذ اتصلوا بنائب السلطان في دمشق ، وحدثوه بسببها مستعظمين امرها ، حاكمين عليها بالزوغان ، ومخالفة ما عليها اجماع المسلمين ، فدهام شيخ الاسلام لعقد جلسة للمناقشة بحضور ( نائب السلطنة الاقدم . وظهره - رحمه الله - عليهم بالحجة والبرهان ورجوعهم الى قوله طائعين ومكرهين ) .

---

(١) اراجع ص ٤٣ وما بعدها ج ١٤ تاريخ ابن كثير .

وص ٧١ وما بعدها ج ١ فوات الوفيات .

وقد تبع هذا المجلس ، واستدعاه من قبل السلطان في مصر ، لوصول انباء الخلاف اليه وسار رحمه الله في صحبة قاضي الشافعية عقد له مجلس حين وصوله بحضور القضاة واكابر الدولة .

وفي هذا المجلس امتنع الشيخ من التحاكم الى زين الدين بن مخلوف قاضي المالكية ، والسبب في ذلك ، ان ابن مخلوف جمع بين الادعاء والقضاء في هذه القضية . فقال الشيخ :

« من الحاكم في ؟ فقليل له : القاضي المالكي ، فقال الشيخ : كيف تحكم في وانت خصمي ، فغضب غضباً شديداً وانزعج : وحبس الشيخ رحمه الله تعالى وال امره الى الحبس المعروف بالجلب وشاركه في حبسه اخواه شرف الدين وزين الدين » .

نزل الشيخ في الحبس في شهر رمضان سنة ٧٠٥ ومكث فيه سنة ونصف السنة ، وفي خلال هذه المدة ، حاول نائب السلطان في القاهرة ، ان يوفق بينه وبين المخالفين له ، لضغط الناس في الشام . الذين يعرفون للشيخ مكانته ومنزلته . ورجاه بحضور المجلس للمناقشة ، ولكن الشيخ امتنع ، وصحب بدله اخويه ، وانهقد المجلس للمناقشة واشتد فيه النقاش ، ولم يحصل الاتفاق ثم جاء الامير الشامي ، عيسى بن مهنا ، الى الشيخ في حبسه ، واقسم عليه ليخرجن وليذهبن معه الى دار نائب السلطان في القاهرة ، فخرج معه ، وانهقد المجلس وحصلت المناقشة مع الفقهاء ، وامتنع القضاة من الحضور ، وانتهى المجلس على خير ، فاوضح لهم معتقده ، مؤيداً ذلك من الكتاب والسنة حسب فهمه لهما .

بقي الشيخ في مصر ، معلماً ومرشداً ، وقد صفح عن كل من اذاه قائلاً :  
« لا احب أن ينتصر من احد بسبب كذبه عليّ ، او ظلمه او عدوانه ، فاني قد احللت كل مسلم ، وأنا احب الخير لكل المسلمين ، واريد لكل

مؤمن من الخير ما اريده لنفسه ، والذين كذبوا وظلموا هم في حل من جهتي )  
وبذلك انتهت هذه المحنة ، ولكن القضاء - قضاء الله تعالى - لا زال مخبئاً  
له مخناً أخرى ، وعليه ان يصبر ، لينال ثواب الصابرين ، وهكذا كان .

استمر الشيخ في دروسه وارشاده في القاهرة ، واستطاع أن يوجد له في  
هذه الإقامة المؤقتة ، انصاراً ومريدين يحاكون رأيه ومعتقداته ، وأخذ  
كعادته يبين رأيه في مسائل الكلام ، ومدى مخالفة بعضها لعقيدة السلف  
التي يعتنقها ، وانتقد الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى في بعض  
افكاره ، حتى ضج مخالفوه من اتباع ابن عربي ولم يتحملوا هذا النقد الفكري  
وحسبوا ذلك طعناً وتجريحاً للشيخ الاكبر ابن عربي ، فذهبوا يجمعوهم الى  
دار السلطنة يشكون منه ، فأمر السلطان لحل هذا النزاع ، بعقد مجلس  
للمناظرة ( بدار العدل ) .

فانعقد المجلس وحصلت المناقشة ، وخرج المخالفون منه لا يلوون على  
شيء ، بعد نصره الفقهاء له وسكوت القضاة عنه .

وليت الأمر انتهى بذلك ، ولكن استمرت ( المنازعات والمقاطعات )  
حتى ضاقت الدولة ذرعاً ، وضجر السلطان ولم تجد الدولة وسيلة لحسم هذه  
( المنازعات والمقاطعات ) إلا أن تتجه نحو شيخ الاسلام .

فخير بين ثلاث . إما أن يخرج من القاهرة ذاهباً الى الشام مسقط رأسه ،  
وإما الى الاسكندرية بشرط أن لا يشير مثل هذه المسائل ، ولا يتعرض بها  
بالنقد ، وإما العودة الى السجن ، فاختر السجين متمثلاً بقول الله تعالى  
حكاية عن قول يوسف الصديق عليه السلام : ( السجن أحب اليّ مما  
يدعوني اليه ) .

ولكن إلحاح طلابه ومريديه دفعه الى الرضا بالذهاب الى الشام وقبول  
الشرط . فركب خيل البريد في اليوم الثامن عشر من شوال سنة ٧٠٧ هـ ،

وما ان سار مرحلة ، حتى جاءه أمر السلطان بالعودة الى القاهرة ، وهناك بلغه قاضي القضاة ، بأمر الحبس ( قال بعضهم له : ما ترضى الدولة إلا بالحبس ، وقال : قاضي القضاة : وفيه مصلحة له ) .

وطلب من شمس الدين التونسي المالكي ، أن يحكم ، فقال : ما ثبت عليه شيء ، ثم طلب من نور الدين الزاوي المالكي ، فتوقف ولم يجر جواباً ، وهنا أنقذ الشيخ موقفهم ، وقال : أنا أمضي الى السجن ، واتبع المصلحة.. فأرسل الى حبس القضاة ، وأذن بأن يكون عنده من يخدمه ( .

فأي مصلحة هذه سواء أكانت للدين او للمسلمين ، أن يحبس عالم ، وهو غير متهم لا في أمر ديني او دنيوي ؟؟. هل العلماء وجدوا في هذه الدنيا ، من أجل حمل الاسلام ونشر علومه بين الناس ، أم في السجن يرقدون ؟

وبسجن القضاة مكث سنة ونصف السنة ايضاً . ولكن هذا الحبس كان بمثابة إقامة جبرية ، سمح للفقهاء والعلماء أن يزوروه فيه . كما سمح للطلاب أن يأخذوا عنه . ولاعيان الدولة أن يستفتوه ، وبقي على هذا الحال حتى خرج من سجنه هذا ، بقرار من مجلس القضاة والفقهاء ، عقد في المدرسة الصالحية ، وألزموا به الدولة ، وبهذا تظهر قوة العلماء انهم إن اجتمعوا - في كل حين - على شيء وقرروا فيه رأياً نفذ ، وخضعت له الدولة مجبرة ، وإن خالف رأيها .

وعاد الشيخ الى دروسه وتعليمه ، وفي ذلك الوقت عزل السلطان الناصر ابن قلاوون نفسه ، وتولى عنه الملك المظفر بيبرس الحاشنكير ، وكان هذا الملك مريداً للشيخ نصر المنجي ، وهو من اتباع الشيخ الاكبر محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى ، لذلك فقد استطاع ان ينفي شيخ الاسلام الى الاسكندرية ، ولكنه سمح له هناك بالتدريس والافتاء ، وبقي في نفيه هذا ، حتى عاد الناصر بن قلاوون بعد سبعة أشهر الى حكم الشام والقاهرة . وما

ان وصل الى القاهرة وجلس على دست الحكم في يوم مشهود ، هو يوم عيد  
الفطر المبارك ٧٠٩ هـ ، حتى فكر في أمر هذا الشيخ ، فاستدعاه في اليوم  
الثاني من العيد مكرماً معززاً ، ولم يكتف السلطان الناصر بهذا التكريم ،  
بل طلب منه الفتوى ، في من آذوه وأوردوه المهالك .

وهم بنفس الوقت قد مالوا خصمه في السلطان والحكم : مما أدى الى  
عزل نفسه .

وطلب منه أن يقول كلمته في القوم ، ومنهم ابن مخلوف المالكي الذي  
أمر بحبسه الاول ، فأصدر شيخ الاسلام هذه الفتوى في خصومه . ( بأن  
دماءهم حرام عليه وانه لا يحل انزال الأذى بهم . فقال له السلطان انهم قد  
آذوك وأرادوا قتلك مراراً . فقال الشيخ : من آذاني فهو في حل . ومن  
آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه وأنا لا انتصر لنفسي ) .

ولم يكتف الشيخ بهذا الحكم الذي ارضى الله ورسوله وجماعة المسلمين .  
بل شفع لهم طالباً العفو عنهم قائلاً للسلطان : « وإذا قتلت هؤلاء لا تجد  
بعدهم مثلهم » .

وحين سمع ابن مخلوف المالكي ما قاله الشيخ فيهم قال : ( ما رأينا مثل  
ابن قيمية حرضنا عليه فلم نقدر ، وقدر علينا ، فصفح وحاج عنا ) .

لله درك رحمك الله وأرضاك . ولا غرابة في ذلك فقد كنت العالم التقى  
الذي يبتغي بعمله وجه الله والدار الآخرة .

وبهذا انتهت هذه المحنة ، ولكن بقي لها ذبول ، ومن ذبولها : أنه في  
اليوم الرابع من شهر رجب ٧١١ هـ ( امتدت اليه أيدي أثيمة بالضرب ،  
فتجمع أهالي الحسينية سكان محلة سيدنا الحسين رضي الله عنه بالقاهرة - وفيها  
محل سكناء .. ) ليناروا للشيخ ، فردم ، فألحوا عليه فمنعهم قائلاً : ( إما



أن يكون الحق لي أو لكم أو لله ؟ فإن كان الحق لي فهم في حلّ مني . وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني ولم تستفتوني فافعلوا ما شئتم ؟؟ وإن كان لله فالله يأخذ حقه إن شاء )

وعاد الشيخ الى دمشق ، ولكن عودته لها ، لم تكن للراحة والاستجمام في مصايف بلودان ودمر ، بعد ما اصابه من شدة وبأس في مصر وإنما عاد اليها مجاهداً يحمل السيف وهو قد تجاوز الخمسين عاماً .

نعم عاد مجاهداً ، فقد صحبه السلطان الناصر وهو على رأس جيش المسلمين للاقاة التتار ، وفي الطريق وصلت أنباء هذا الجيش المظفر الى التتار ، فرجعوا خائبين لا يلوون على شيء .

قال ابن كثير ( ثم ان الشيخ بعد وصوله الى دمشق ، واستقراره بها ، لم يزل ملازماً للاشتغال في سائر العلوم ، ونشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطلوبة ، والاجتهاد في الاحكام الشرعية . ففي بعض الاحكام يفتي بما أدى اليه اجتهاده ، من موافقة أئمة المذاهب الاربعة ، وفي بعضها يخالفهم<sup>(١)</sup> او يخالف المشهور في مذاهبهم ، وله اختيارات كثيرة).

وكان من جملة مخالفته للقول المشهور من اصحاب المذاهب الاربعة ، مسألة الحلف بالطلاق ، فهو رحمه الله يراه لا يقع الطلاق به ، ولا تنفصم به عقد الزوجية . وله دليله الشرعي في ذلك ، ولما أفتى بها وطار خبرها ، استنكر ذلك فقهاء المذاهب ، فاجتمع به قاضي القضاة وأشار عليه بترك الافتاء بهذه المسألة فقبل الإشارة المتضمنة نصحه ، وما ان مرت الايام به ، حتى عاد الى الفتوى بها ووجد ان عموم البلوى يدفعه الى الجهر بها . ولما علم

---

(١) انه رحمه الله حين يخالفهم ، يعتذر عنهم باعذار مختلفة ، وهكذا شأن العالم الثبت ، يراجع في معرفة ذلك رسالته المسماة : ( رفع الملام عن الأئمة الاعلام ) .

السلطان الناصر ، ان ابن تيمية عاد الى فتواه هذه ، كتب اليه كتاباً في ١٩ رمضان ٧١٩ هـ يؤكد عليه اشارة قاضي القضاة ، ولكنه رحمه الله رفض هذه الاشارة ، رغم تأكيدات المنع واشارات القضاة ، عند ذاك قرر نائب السلطنة في دمشق حبسه في القلعة ، وبقي محبوساً فيها خمسة اشهر وثمانية عشر يوماً . ولما يش الجوع وامتناعه ، امر السلطان الناصر باطلاق سراحه ، وكان ذلك في ١٠ محرم الحرام ٧٢١ هـ ، وخرج من السجن ، متمسكاً بفتواه تلك .

وانتهت بهذا محنته هذه ، ولكن بقيت في انتظاره من اخرى ، كانت هي الاخيرة والتي مات فيها . الفقهاء والقضاة من ذوي الشأن ، لم يتحملوا نقده ، كما لم يطبقوا صبراً على فتاويه ، فهو يفتي بما يراه صواباً وان خالف من خالف من الفقهاء والعلماء ، لأنه ينظر الى الدليل الشرعي ، وقول الصحابة الكرام ، ويسوقه هذا النظر الى رأي معين يعتقد بصوابه فيعلنه بجرأة ، ولا يلزم الناس بما يقول من فتوى إذ ما كان قاضياً ، وانما كان مفتياً ، يسأله السائل فيجيب ، ولا يملك اي فقيه او مجتهد مهما بلغ في العلم ، ان يلزم الناس بأرائه الاجتهادية ما دام الرأي معتمداً على نص ظني الدلالة والثبوت ، وهو يحمل اكثر من رأي واحد ، وانما الالتزام يكون في الرأي الذي يعتمد على نص قطعي الدلالة والثبوت ، ولا موضع للاجتهاد فيه ، كما يكون الالتزام فيما تتبناه الدولة من آراء وأحكام . وسار الشيخ على هذا النهج ( ولم يزل كذلك الى ان ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال الى قبور الانبياء والصالحين ) (١) .

وكان قد اجاب به نحو عشرين سنة فشنعوا عليه بسبب ذلك .

---

(١) مات رحمه الله تعالى في سنة ( ٧٢٨ ) هـ وله من العمر ٦٧ سنة .

وكبرت القضية<sup>(١)</sup> وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ستة وعشرين ( وسبعمائة ) يجعله في القلعة ( محبوساً ) فأخليت له قاعة حسنة ، وأجري إليها الماء ، وأقام فيها ومعه اخوه يخدمه ، وأقبل في هذه المدة على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب ، والرد على المخالفين وكتب على تفسير القرآن ..

وظهر بعض ما كتبه واشتهر ، وآل الامر الى أن منع من الكتابة والمطالعة ، وأخرجوا ما عنده من الكتب ولم يتركوا له دواة ولا قلماً وكتب عقيب ذلك بفحم يقول : ان اخراج الكتب من عنده من اعظم النقم :

ويحسن بنا أن نختم محنته بل محنه ، بذكر بعض ما كتبه بالفحم وهي تصور نفسيته ، وتبرز شخصيته . معبرة عما يجول في خاطره في تلك المحنة التي كانت عليه من اعظم النقم ) ..

يقول رحمه الله : « كل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة ، ان ربي لطيف لما يشاء ، انه هو القوي العزيز العليم الحكيم ، ولا يدخل على احد ضرر إلا من ذنوبه ، ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك ، فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائماً على كل حال ، ويستغفر من ذنوبه ، فالشكر يوجب المزيد من النعم ، والاستغفار يدفع

---

(١) يرى شيخ الاسلام رحمه الله عدم جواز ذلك للحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم . حيث قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ( لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجدي هذا ) والذي عليه جمهرة الفقهاء وهو الذي نعتقده صواباً ان شد الرحال الى زيارة قبور الانبياء والصالحين الزيارة الشرعية جائزة ولا تدخل في نهى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام هذا وانما النهي منصب على شد الرحال الى غير هذه المساجد الثلاثة بقصد الصلاة فقط لان الصلاة في المساجد كلها سوى المساجد الثلاثة المذكورة — ذات اجر واحد لا فضل لمسجد على آخر كما ثبت ذلك في الاحاديث الصحيحة ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ( صلاة في مسجدي هذا افضل من الف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام . وصلاة في المسجد الحرام افضل من مائة الف صلاة في مسجدي ) رواه الامام احمد وبهذا المعنى روى البخاري ومسلم .

الانقم ، ولا يقضي الله للمرء من قضاء الا كان خيراً له ، ان اصابته سرء  
شكر ، وان اصابته ضراء صبر فكان خيراً له .

مكث شيخ الاسلام بسجنه هذا خمسة اشهر قاضياً ايامه الاخيرة ، في  
( التلاوة والعبادة والتهجد ) .

فلازمه المرض عشرين يوماً وفي اثنائها زاره وزير دمشق لعيادته ( فلما  
جلس أخذ يعتذر ويلتمس منه أن يحمله مما عساه يكون قد وقع منه في حقه  
من نقصير ، فأجابه : « اني قد لحلتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم اني على  
الحق واحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه اياي لكونه فعل ذلك  
مقلداً معذوراً ولم يفعله لحظ نفسه ، وقد احللت كل احد ما بيني وبينه إلا  
من كان عدواً لله ورسوله ﷺ » .

وبهذا الصلح الجميل ، وبذلك النفس الصابرة ، انتقل الى جوار ربه  
الكريم ، وقد روى عنه ابن القيم وهو رفيقه في الحبس ان آخر ما تلاه من  
القرآن العظيم وفاضت روحه : عند قوله تعالى : ( ان المتقين في جنات  
ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ) ..

### — محنة السرهندي —

... تولى حكم الهند سنة ٩٦٣ هـ رجل من ملوك المغول من احفاد تيمور ،  
يدعى جلال الدين اكبر ، وما أن تربع على كرسيه ، حتى سام مسلمي الهند  
سوء العذاب ، اضطهد علماءهم ، وآذى رجالهم ، وضيق على عامتهم قتلاً  
وتشريداً واعتقالاً ، وعاث في البلاد الفساد ؛ هذا حاله مع المسلمين ، اما مع  
الاسلام ، فقد اعلن الحرب عليه ، حرباً شعواء لا هوادة فيها ، مبتدئاً فسخ  
نبوءة سيدنا محمد ﷺ ، مدعياً بأن عصر النبوءة قد انتهى الى هذا الالف

من الاعوام : وبدأ عصر الالف الثاني ، بإمامته المظمى ، وانه صاحب الكلمة ، لا يعصى في امر ، ولا يرد له حكم ، حسب ( المحضر ) الموقع عليه من رجالات الهند، ومن العلماء الذين زلت بهم القدم في هذه (الفتنة الاكبرية) ومن خالف أمره ، وأعرض عن حكمه ، كان السجن المؤبد، او القتل الزؤام جزاءه وعقابه ، فحرم ذبح البقر وكتابة التاريخ الهجري ، كما حرم تسمية رجالات قصره وأعوان حكمه بأسماء النبي ﷺ ، وأباح ذلك لعبيده وخدمه ، تحقيراً وامتهاناً للنبي الكريم ﷺ .

وحلل الخمر والقمار والخنزير والزواج من بنات الهندوك الوثنيين ، ثم لم يكتف بهذا الكفر الصريح ، بل شرع ديانة جديدة ، وابتكر طقوساً وشعائر متعبداً وآمراً بها .

فكانت صلاته على طريقة براهما الهند، مولياً وجهه شطر الشمس، ومثل هذا الكفر والزبغ والاحاد كثير وكثير .. حتى وقعت الامة الاسلامية بهذا القطر العزيز ، بمحن ونكبات ومصائب جمة يتشقق منها القلب ويضيق عنها نطاق النطق، وألحقها من الاضطهاد ما لم تره البشرية في تاريخها ، إلا في عهد التتار والمغول .

في هذا الواقع الاليم ، الذي يعج بالكفر والاحاد والاضطهاد، عاش الشيخ احمد بن عبد الاحد الفاروقي السرهندي رحمه الله تعالى (١) .

ورأى تلك الحالة وهو في زهرة شبابه ، ولمس هذا الشر المستطير ، وهو في مرحلة طلبه للعلم .

وما ان تخرج عالماً ، اصبح في عداد المشائخ : الذين يتأثر الناس بكلامهم

---

(١) ولد رحمه الله سنة ٩٧١ هـ ، اقرأ ترجمته في نزهة الخواطر ، طبع دائرة المعارف ، حيدر اباد .

ويستمعون الى ارشادهم ، عرضت له اسنى المناصب في هذه الدولة ، فرفضها بأبواب وشمم ، لأنها خسة ومهانة . وما كان لمثله ان يشارك في تثبيت هذه الدولة الكافرة ، ويوطد اركان حكمها الفاسد ، وانما دعوته -- دعوة الاسلام -- بجرأة وشجاعة ، انه يريد تقويم حكام هذه الدولة ، والقضاء على الدولة وإزاحتها من الوجود ، لتحل محلها دولة الاسلام ، تحفظ الشرع ، وتقيم الحدود ، ويرعى ابناء الامة على اساسه ، لا يرضى بذلك بديلاً ، ولا يقبل عن الاسلام تحويلاً . ولقد تم له ما اراد - الحمد لله - وحقق ما عزم عليه ، مستلهماً التوفيق من الله وطالباً النصر منه : ( وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ) .

ولكن هل يحصل له ما يريد ؟ وهل يحقق ما عزم عليه ، دون محنة واضطهاد ؟ فلننتظر ..

استمر الشيخ رحمه الله تعالى ، بدعوته التي أوقف نفسه عليها ، وهكذا شأن العلماء الرجال ، فأخذ يجمع الناس على ما عزم عليه ، فاستجاب له خلق كثير ، فكثر اتباعه ومريدوه ، فازداد ، رحمة الله عليه ، همه ونشاطاً ، لا يعرف السأم والملل ، وفي تلك الاثناء ، هلك هذا الطاغية الجبار الملحد سنة ١٠١٤ هـ . وانتهت بهلاكه فكرة الإمامة العظمى المزعومة ، وخلفه ابنه جهان كير .

أما الشيخ فانتبه للأمر ، وأخذ له عدة ، واتخذ من اصلاح الحاكم الجديد ، نقطة ابتداء ، فبصلاح الحاكم وصلاح العلماء من امثال شيخنا الكريم ، تصلح البلاد ، ويصلح الناس ، وتلك نظرة مقرررة في الشرع ، ولذلك قال رحمه الله :

« ان الملك - الجديد - قد افسده المفسدون فثار على الدين وانحرف عن الجادة ، ولكن ليس هو الدولة كلها ، وليس هو الشعب كله ، وقد كتب عليه الموت ، وهو خاضع للسنن الإلهية ، فيموت ويخلفه غيره ، فلا بد ان

اؤدي رسالتي وأتصل ببلاطه وأركان دولته ، ولا موجب للقنوط من الفطرة  
الانسانية ، فالصلاح فيها اصيل ، والفساد عليها طارئ ، فلا جرب ولأحاول ،  
وإن الله ناصر من نصره ، وخاذل من خذله <sup>(١)</sup> .

بتلك الروح العالية وبهذا الفهم الصحيح ، اخذ يتصل ويكتب ( امراء  
الجيش ورؤساء الدوائر الحكومية ، ممن آنس فيهم رشداً ، ينبههم من نوم  
الغفلة ، ويلفت انظارهم الى ما اتت به الفتنة الكبرية ، من مصيبة وبلاء  
للدين الحق ، وما جرته من وبال على المسلمين <sup>(٢)</sup> ) .

ولنقرأ رسالته الى قائد ( من قواد الجيش الركن الأعظم للدولة في عهد  
جهان كير - خاينخان - .. ان ميدان البطولة الاسلامية لا يزال خالياً  
ينتظر فارساً من فرسان الاسلام . فهل تسبق الى هذه السعادة ، وتحرز قصب  
السبق ، وتنصر هذا الدين المظلوم ، وتغضب لهذا الحق المهضوم ، وتبلغ  
بجهادك الى حيث لا يبلغه المتعبدون الصائمون القائمون . فهلاً يا اهل الغيرة  
والفتوة ويا اهل الشهامة والمروءة <sup>(٣)</sup> ) .

وما ان سمع رجال حاشية الملك جهان كير ، بتلك الرسائل ، حتى  
اخذتهم العزة بالاثم ، ورأوا في وجود الشيخ رحمه الله خطراً عليهم وان  
اتصالاته المريبة يخشى منها على الدولة ، وعلى الملك نفسه ، فأوغروا  
صدر الملك عليه وهمسوا في اذنه ، خطر دعوة الشيخ واتصالاته ، وأشاروا  
عليه - كائدين - ان يطلبه الى البلاط ، ويمتنعنه بذلك تكون المحنة ...  
وبهذا يقضي عليه وعلى دعوته : تلك هي المكيدة . وهذه هي المؤامرة .

---

(١) مجلة المسلمون ص ٦٢٥ و ٦٢٧ . مقال للاستاذ ابن الحسن الندوي .

(٢) ص ٢٤ نظرة اجمالية في تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند والباكستان . للاستاذ  
مسعود الندوي .

(٣) مجلة المسلمون ص ٦٢٥ و ٦٢٧ . مقال للاستاذ ابن الحسن الندوي .



لأن رجال الحاشية الملكية ، وجلاوزة الملك ، يعرفون حقاً ، صلابة الشيخ في إيمانه وقوة عوده في يقينه ، وجراته في مخالفته لما عليه الملك في أحواله الخاصة والعامة ، فلا تلين له قناة ، ولا يجامل أحداً ، ملكاً كان أو مملوكاً ، راعياً أم رعية ، وسوف لا يسجد للملك عند المقابلة ، كما يقتضي العرف الديبلوماسي المقيت ، وإن سأله الملك ، فستكون أجوبته جريئة صريحة ، وإن ترضي الملك ، فتقع المهنة ، وبصيصه شررها من اضطهاد ونحوه .

وافق الملك على إشارة رجال حاشيته ، واستدعى الشيخ إلى قصره وبلاطه فاستجاب الشيخ ، ولكنه رحمه الله كما قال الكائدون ، عندما دخل قصره ، نبهه إلى السجود ، فامتنع : ودخل مسلماً بتحية الإسلام ، فاستشاط غيظاً وغضباً وقام هائجاً . وسأل منكرأ ما هذا ؟ أخرجوه ، وأمر باعتقاله في الحال . وأخذ مخفوراً ، وطرح في سجن حصن كواليار في قلب مدينة الهند .

لبث الشيخ في السجن بضع سنين يشتغل بالعبادة ويدعو المسجونين معه إلى الإسلام . فأسلم على يده كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية مئات المسجونين <sup>(١)</sup> .

( وصار الجناة من السارقين وقطاع الطريق ، يؤدون العبادة ويسجدون للحي القيوم سبحانه وتعالى ، وأصبحوا يأتمرون بأوامر الشيخ ، وظهرت عليهم الصفات الخلقية الكريمة . فتنبه لذلك مدير السجن ، وكتب إلى الملك رسالة خاصة يخبره فيها أن المحبوس الشيخ السرهندي ، ليس من شأنه أن يحبس ، وإنما هو ملك قلماً ينبج الدهر مثله ، فإن رأى الملك أطلقنا سراحه وأكرمناه بما يستحقه ، فندم الملك على ما ظهر منه من بؤادر الشدة في شأن الشيخ ، وأمر بإحضاره إلى مقر المملكة ، ولما بلغه خبر دنوه

---

(١) المصدر السابق للاستاذ ابن الحسن الندوي .

من العاصمة ، بعث الأمير ( خوم ) ولي عهد المملكة .. لاستقباله والترحيب بمقدمه<sup>(١)</sup> ..

كل ذلك فعل لأنه تحرى أخبار الشيخ بنفسه ودرس حياته ، فوجد به العالم العامل والشيخ الصادق ، فأخذ يكسب رده ، ويتقرب اليه .

عاد الشيخ منصوراً ، فقد أدى واجبه في السجن ، وما هو يؤدي واجبه الشرعي عند الملك .

دخل الشيخ عليه ، وأعاد التحية بالسلام : فرد الملك التحية وتلقاه بالترحاب .. والاعتذار ..

كان يوم هذه المقابلة في ليلة رمضان المبارك ، وأبى الملك إلا أن يضيف الشيخ عنده في هذا الشهر الكريم . ورجاه ان يسمعه ما يدور في خاطره ، وأن يحدثه عما يريد ، وان يخبره بحقيقة دعوته ، فاستجاب الشيخ مستبشراً بذلك ، فهذا يوم طالما تمناه ..

قضى الشيخ شهر رمضان في ضيافة الملك ، وفي بلاطه ، محدثاً إياه عن الاسلام وعدله ، شارحاً له واقع الخلفاء ، والصالحين الذين تولوا حكم المسلمين . وقد وهبه الله صدقاً في اللهجة وحسناً في التعبير ، وسلامة في العرض والملك ينصت له ، فبدأ الصلاة خلفه ، وأقام صلاة التراويح ، وأخذت أصداً آيات القرآن الكريم تجلجل في رحاب القصر ، وعاش الملك في جو روحي عبق ، حتى استطاع الشيخ بفضل الله وتوفيقه ان يغير قلب الملك وفكره . فأحب الاسلام واعتقد به ، وأعلن ذلك للأمة بمرسوم أصدره يحمل الأوامر التالية :

١ - تحريم السجود للملك .

٢ - الإذن بذبح البقر .

٣ - تعيين القضاة ورجال الحسبة في كل بلد .

---

(١) ص ٢٥ النظرة الاجالية للاستاذ مسعود الندوي .

٤ - إعادة بناء المساجد المهدمة .

٥ - إبطال القوانين المعارضة للشريعة الاسلامية (١) .

ومكذا أخذ الولد الصالح المؤمن ينقض ما أبرمه الوالد الكافر الفاسد ،  
حسب قول الشيخ وأمره ، ولقد صدق من قال :

ان الملوك لتحكم على الورى وعلى الملوك لتحكم العلماء

استأذن الشيخ الملك الصالح ، بالرجوع الى بلده فأذن له معززاً مكرماً ،  
فعاد الشيخ الى زاويته بسرهند ، مستمراً على النصيح والارشاد ، يعلم أتباعه  
ومريديه ، وليحملوا رسالته ، وليواصلوا من ارتقاء سلم الكمال بالدولة نحو  
الإسلام ، بعد ان تركها الشيخ في وضع حسن ، أمن المسلمون فيها على دينهم  
وزال عنهم ما أصابهم من هم وغم ، وبخن واضطهاد .

وقد حمل الشيخ أمانة الاسلام ، في حمل دعوته وتحكيم شرعه في أعناق  
خلفائه وأولاده الذين تولوا الامر بعده . مات الشيخ وعمره عمر نبيه ﷺ  
راضياً مرضياً وسيكون ان شاء الله معه في جنة الخلد : والذين جاهدوا فينا  
لنهديهم سبلنا وان الله لمع المتقين .

## خاتمة الفصل

لم تعقم الأمة الاسلامية ، وهي الودود الولود ، من إنجاب علماء عاملين ،  
او شخصيات اسلامية ، جمعوا بين العلم الغزير والرجولة الحققة ، بعد اولئك الذين  
امتحنوا في دينهم ، وعذبوا من اجل اسلامهم ، الذين أحبوا الموت في سبيل الله ، كما  
أحب غيرهم الحياة ، من علماء السلف الصالح رضوان الله عليهم ، بل لم يرض الله  
سبحانه وتعالى ، وهو الجواد الكريم ، على عباده المؤمنين ، بأن جعل منهم

---

(١) ص ٢٥ المصدر السابق .

مات رحمه الله سنة ١٠٣٤ ، وله من العمر ٦٣ عاماً .

صفوة طيبة ، من أهل العلم والمعرفة في كل حين ، تنذر وتبشر ، وترشد وتعلم ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، تمنع الظلم ، وتنصر المظلومين ، وتبين طريق الفلاح والنجاح ، طريق الاسلام المستقيم ، سالكة درب اولئك العلماء الرجال ، في طريق حمل الدعوة الاسلامية ، وتحكيم شرع الله في كل علاقات المجتمع ، علاقات الدولة ، وعلاقات الافراد والجماعات ، محاسبين الحكام فاصحين الرعاة ، واقفين بشجاعة بوجه الكافر المستعمر ، وعملائه واذنابه ، من حكام الظلم والسوء ، من الذين فرطوا في جنب الاسلام ، وساموا امته عذاب الهون .

واني حين ذكرت محن اولئك السادة العلماء ، من أئمة الدين ، ومشايخ الاسلام ، لم اقصد بذلك حصرها فيهم ، ووقوفها عند حدهم ، وانما قصدت الاستشهاد والتمثيل ، للعبرة والاتعاظ ... فقد تتابعت المحن تترى ، نازلة بالعلماء ، على اختلاف نوعية تلك المحن ، في كل عصر : وفي كل مصر ، من ارض الاسلام المباركة ، وستبقى المحن تنزل بالعلماء الرجال ، ما دام هناك حكام تركوا الحكم بما انزل الله . وتضييق صدورهم في المطالبة به ، وحمل الدعوة اليه ، وما دام هناك علماء يؤدون واجبهم الشرعي ، وينطبق عليهم وصف العلماء الذين يريدون الاسلام .

## العلماء في سجُون الحكم

رب السجن احب إلي مما يدعونني  
اليه .

— قرآن كريم —

... من سنّة الله تعالى في خلقه : ان يقع النزاع بين الفجور والتقوى ،  
وان تكون الغلبة للتقوى في نفس من هدى الله ، والخسران للفجور في نفس  
من أضل الله . ولذلك ومنذ القدم كان ولا يزال التنازع يقع بين الخير والشر  
والعدل والظلم والحق والباطل ، فمنذ ان عصى ابليس امر ربه في السجود  
لآدم ، بدأ الشر المتمثل بإبليس يتنازع مع الخير المتمثل في أمر الله تعالى ،  
ولكن مهما طال النزاع واشتد ، ومهما كسب الشر من نصر ، فالبقاء للخير  
لأنه الاصلح ، ولأن سنة الخالق العظيم قضت بذلك :

( وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً )<sup>(١)</sup> ( ولولا دفع  
الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض )<sup>(٢)</sup> ، اي فلولا رفع الله بعض  
الناس عن المنكرات والمعاصي بسبب البعض لفسدت الارض .

ولا ريب ان الدافعين هم العلماء والفقهاء القائمون بالأمر بالمعروف والنهي  
عن المنكر ، وان امر الله هو الحق والعدل والخير ، وان هوى ابليس هو  
الباطل والظلم والشر ، ومن اتبع هوى ابليس كان من جنده وأتصّاره  
وعبيده ، لذلك وقع النزاع بين العلماء والحكام : وقع النزاع بين من يحمل  
أمر الله وبين من يتركه وراء ظهره ، وكلما اشتد النزاع ثبت العلماء والسائرون

---

(١) آية ٨١ سورة الاسراء .

(٢) آية ٢٥١ سورة البقرة .

على هديهم ، وتفتن الحكام الظالمون في وسائل الكيد بهم ، لإخماد صوت الحق والخير والعدل وابتدعوا مختلف الوسائل لتحقيق ما يريدون ، ومن ذلك فرض الإقامة الجبرية أو سجنهم أو نفيهم أو الحكم عليهم بالموت .

وان استطاع الحكام ان يحبسوا أجسام العلماء فان قلوب تلك الاجسام وعقولها ، كانت منطلقة تعرج تارة وتحط اخرى في ساحات التفكير ومواطن التأمل ، ولم وان يستطيع الحكام ان يعرقلوا عروجها او ينكبوا سيرها ، مهما أوتوا من براعة وخبث في ثقل القيود والاصفاد .

اذن فلتكن السجون للعلماء ، ما داموا يحملون قلوبها خاشعة لرب العالمين ، وعقولا مفكرة في آلاء الله ونعمه . وأعظم تلك النعم على الاطلاق - الدين - الاسلام الشريعة ، التي يحملون رايتهما .

أما العلماء فقد كانوا يتلقون تلك الاوامر الجائرة بصدر راحب راضين بقضاء الله تعالى ، صابرين على هذه المحن وتلك الابتلاءات التي ترفع درجاتهم نحو الفردوس الاعلى ، او تمحروا لهم سيئاتهم :

( يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور ) (١) .

ان تلك السجون كانت للعلماء عملية صهر وسبك خرجوا كالكبريت الاحمر . ولنقرأ جميعاً قول سلطان العلماء العز بن عبد السلام وهو يتلقى امر الحكم ، حين بلغه به الوزير بالاقامة الجبرية في داره ، وان لا يفقي ولا يجتمع بأحد .

( يا غرز ان هذه الشروط من نعم الله الجزيلة عليّ ، الموجبة للشكر على الدوام ، اما الفتيا فقد كنت والله متبرماً بها وأكرمها ، واعتقد ان المفقي

---

(١) آية ١٧ سورة لقمان .

على شفيع جهنم ، ولولا اعتقادي ان الله اوجبها عليّ في هذا الزمان لما كنت  
تلوثت بها ، رالآن قد عذرتني الحق ، وسقط عني الوجوب ، وتخلصت ذمتي ،  
ولله الحمد والمنة ، واما ترك اجتماعي بالناس ولزومي البيت ، فما انا في بيتي  
الآن ، وانما انا في بستان ومن سعادتي لزوم بيتي ، وتفرغي لعبادة ربي ،  
والسعيد من لزم بيته ، وبكى على خطيئته ، واشتغل بطاعة الله تعالى ،  
وهذا تسليك من الحق وهدية من الله إلي ، اجراها على يد السلطان وهو  
غضبان ، وأنا بها فرحان ، والله يا غرز لو كانت عندي خلعة تصلح لك  
هذه الرسالة ، المتضمنة لهذه البشارة ، خلعت عليك ، ونحن على الفتوح ،  
خذ هذه السجادة وصلّ عليها فقبلها وقبلها ( ١ ) .

ثم لنقرأ ايضاً قول شيخ الاسلام ابن تيمية ، حين ورد الأمر بسجنه في  
قلعة دمشق ، بعد ان اظهر السرور ، ( اني كنت منتظراً ذلك ، وهذا فيه  
خير عظيم ، ما يصنع اعدائي بي أنا جنّتي ، وبستاني في صدري ، اين رحلت  
فهي معي لا تفارقني ، أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة واخراجي من بلدي  
سياحة ) ولما دخل القلعة متوجهاً الى السجن الخاص به . ورأى اسوارها ،  
قال مستشهداً ومتمثلاً بقول الله تعالى .

( ف ضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله  
العذاب ) ( ٢ ) .

تلك من اجوبة العلماء الرجال . حين يستلمون اوامر الحكام الظالمين ،  
وهي اجوبة يكفي ذكرها بدون تعليق : وهي تعبر عن نفسياتهم عند  
الشدائد والحن .

---

( ١ ) ص ٨٠ ج ٥ طبقات السبكي .

( ٢ ) ص ٣٦ حياة شيخ الاسلام للاستاذ البيطار نقلاً عن صاحب الكواكب الذرية .

ان هؤلاء السادة رحمهم الله تعالى: كانوا اذا حلوا ضيوفاً في قلاع السجون او جدران البيت جبراً عنهم ، فانهم يقضون ايامهم . وينهون مدة محكومياتهم بالعبادة والتأليف ، حيث ان معظم الحكام ، كانوا يقتصرون بمقوبة العلماء على حبس اجسامهم ، فيكون الفكر طليقاً والعقل حراً ، يقرأ ويؤلف ، إلا أن هناك حكماً كانوا لا يكتفون بحبس الاجساد ، بل يزيدون ظلماً واضطهاداً ، بالضرب المبرح والتعذيب الشديد كما حدث للامام احمد بن حنبل وامثاله .

فيحبس العقل مع الجسم ، وانما يكون التأليف والقراءة ، لأمثال هؤلاء ، وهم مكبلون بالحديد والسلاسل او يتقلبون تحت السياط ، او يعالجون الجروح !!

اننا نجد اولئك الذين حلوا في سجون الحكام ، كانوا يؤلفون ويكتبون بافق فكري عال ، وفي ارتقاء وسمو فجاءت مؤلفاتهم قيمة ، وكتاباتهم جليلة ، كما كانت نفسياتهم صافية عالية ، في الاتجاه الى الله تعالى . وحسن عبادته ، أما وعظ الذين معهم وارشادهم ، فقد كانت على درجة عظيمة من الاهتمام والرعاية .

ومن هنا كانت سجون الحكام للعلماء نعمة وخيراً كثيراً ، سبقت اليهم ، وان فاتهم هذا وذاك ، فانه لم يفتهم ذكر الله في نفوسهم تضرعاً وخفية ، حيث ان قلوبهم مستفرقة بالاتجاه الى العلي الاعلى ، لطلب عفوه ورضاه ، وذلك الخير العميم ، الذي لا يبلغ شأوه الكثيرون .

وها اني اذكر وقائع من احوال العلماء في سجون الحكام .

هذا فقيه جليل من فقهاء السادة الحنفية ، شمس الائمة السرخسي ( املى كتابه المبسوط في الفقه وهو المطبوع بثلاثين مجلداً وهو في السجن (باوزجند) اذ كان محبوساً في الحب بسبب كلمة نصح بها الخاقان وكان يملي من خاطره



من غير مطالعة في كتاب وهو في الحب وتلاميذه في اعلى الحب . وقال عند فراغه من شرح العبادات . هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات املاء المحبوس عن الجمع والجماعات .. وقال في آخر شرح الاقرار . انتهى شرح الاقرار المشتمل من المعاني على ما هو من الاسرار ، باملاء المحبوس في مجلس الاسرار ، وله كتاب في اصول الفقه وشرح السير الكبير املاء وهو في الحب ولما وصل الى باب الشروط حصل له الفرج ( ١ ) .

وهذا شيخ الاسلام ابن تيمية : فانه لما حل في سجن القلعة الذي مات فيه ( اقبل على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب والرد على المخالفين ، وكتب على تفسير القرآن العظيم جملة كبيرة ، تشتمل على نفائس جليلة ، وهو ما ظهر له من بعد في تفسير القرآن العظيم ، وظهر بعض ما كتبه واشتهر ، وآل الامر الى ان منع من الكتابة والمطالعة واخرجوا ما عنده من الكتب ، فصار يكتب بأعقاب الخشب التي صارت الى الفم ( ٢ ) .

قال ابن قيم الجوزية ، وهو الذي حبس مع شيخ الاسلام بسجن القلعة ، قال لي مرة - يعني شيخ الاسلام - المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسر هواه ، وسمعته يقول في سجوده وهو محبوس : اللهم أغنني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك . وهذا الامام الفقيه ابن رشد ، فإنه لم يمتنع عن التأليف حتى في اثناء نكباته التي عوقب فيها ، وهو في اقصى درجات الشيخوخة ألف في حبسه كتابه الشهير « المنطق » ( ٣ ) .

وهذا القاضي بكبار بن قتيبة ( لما اختلف مع اصحاب احمد بن طولون في ولاية العهد وأراد حبسه ، استأجر له داراً ، وحبسه فيها ، وكان فيها

---

( ١ ) ص ١٥٨ الفوائد البهية في تراجم الحنفية .

( ٢ ) تذكرة الحفاظ لابن عبد الهادي ذكر هذا البيطار من حياة شيخ الاسلام ص ٤١ .

( ٣ ) ص ٢٧٤ ابن القفطي .

طاق ( نافذة ) يجلس يتحدث فيها ، ويكتب عنه وهو في السجن ( <sup>(١)</sup> ) .

وهذا الامام الاعظم ابو حنيفة : عندما أدخل السجن بعد ان ضرب بالسياط بين أيدي أبي جعفر المنصور ، وابن هبيرة ، كانت أمه تزوره في السجن .

وفي يوم قالت له ( يا نعمان ان علما ما افادك غير الضرب والحبس لحقيق بك ان تنفر عنه - فأجابها - يا امه لو أردت الدنيا لوصلت اليها ، ولكني أردت ان يعلم الله اني صنت العلم ولم اعرض نفسي فيه للهلكة ( <sup>(٢)</sup> ) .

وهذا ابن نجيم ... وهذا ابن القيم ، وهذا وهذا فكلهم في سجون الحكم يقضون مدة محكومياتهم في التأليف والعبادة . تلك امثلة حية ، من احوال العلماء في سجون الحكم . وهي تعبر عن الروح القوي الذي يتقمصها السادة العلماء كما تصور العقلية الاسلامية السامية ، التي كانوا يتصفون بها ، وتبرز النفسية الاسلامية الرائعة التي كانوا يعيشون بها ، حتى كانوا شخصيات اسلامية ممتازة . يشار اليها بالبنان ويقتدي بها جميع المسلمين .

وبقيت هذه الاحوال وأمثالها واقعة على من بعدهم من العلماء في كل العصور والأمكنة . ولم يخل من ذلك عهد ولا حصر حتى اليوم ..

---

(١) ص ١٤٠ رفع الاصور وص ١٩١ ابو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الاسلام .

(٢) ص ١٨٥ المصدر السابق .

.. ارايت يا اخي كيف عد ابو حنيفة طلب الدنيا بالعلم انه هو التهلكة ، فتأمل .

## العلماء والجهاد

افضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله  
في سبيل الله .

— حديث شريف —

لقد فهم العلماء الجهاد ، بأنه الدعوة الى الاسلام ، والقتال في سبيل  
الله تعالى .

فكان الجهاد بذلك حرباً هجوماً على كل من يقف حجر عثرة في سبيل  
نشر الاسلام في العالم، وعلى كل من يحول دون سيادة الشرع الاسلامي الحنيف  
في الارض .

قال تعالى : ( وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فان انتهوا  
فلا عدوان إلا على الظالمين<sup>(١)</sup> ) .

وهنا يحسن بنا بيان معنى الآية الكريمة ، وتوضيح مفهوم الجهاد ،  
معتمدين على العلماء انفسهم في تفاسيرهم الجليلة .

حين امر الاسلام بقتال الأعداء ، ممن كانوا خارج دولته ، وليس بينهم  
وبين الدولة الاسلامية ، ميثاق ولا معاهدة بقوله تعالى ( وقاتلوهم ) فإنه  
امر ان يسبق هذا القتال ، دعوة هؤلاء الأعداء ، للدخول في دين الاسلام ،  
دعوة تعطيتهم فكرة عامة وواضحة عن هذا الدين ، وعن حياتهم التي  
سيعيشونها بظله وتحت رايته، فان هم استجابوا وصاروا مسلمين لهم ما للمسلمين  
وعليهم ما على المسلمين .

---

(١) الآية ١٩٣ البقرة .

وان لم يستجيبوا لدعوة الاسلام والدخول فيه ، دعوا الى اعطاء الجزية ، وهي ضريبة مالية تؤخذ من القادرين عليها ممن بلغوا الحلم من الرجال دون النساء ( وهي مقابل الزكاة التي تؤخذ من المسلمين ) مع ضمان حق القيام بعباداتهم ، وإجراء عليهم كل ما يتعلق بأحوالهم الخاصة ، من مطعومات ومشروبات ومن طلاق وزواج وميراث ، وهي التي تسمى اليوم ( بالأحوال الشخصية ) حسب دينهم ، ولا يكرهون على الدخول في دين الاسلام استجابة لأمر الله تعالى : ( لا اكراه في الدين ) (١) .

ولهم في هذه الحالة ، من حقوق إقامة العدل والانصاف والرعاية ، كالمسلمين ، لقوله تعالى : ( لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرؤوهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ) (٢) .

كل ذلك مقابل ان يرضوا بحكم الاسلام ، وان يستظلوا تحت رايته ، ويحملوا التبعية للدولة الاسلامية ، اما اذا لم يستجيبوا لهذه الدعوة ايضاً ، فأبوا الرضا بسلطان الاسلام وحكمه ، فان الله تعالى أمر بقتلهم ، قتلاً اشترط فيه ، ان لا يتخلله غدر ولا إفناء ، ولا تدمير او تخريب ، كما ليس فيه قتل لمن لم يقاتل من المدنيين ، ولا يدل له في تعويق نشر الاسلام وعرقلة سيادة الشرع ، كالنساء والاطفال والمعجزة ، مع إطعام اسراهم ، وعدم تعذيبهم ، فكان القصد من هذا القتال ( حتى لا تكون فتنة ) والفتنة لها معان متعددة منها التعذيب والاضطهاد ، ومنها الصد عن الدين والاعراض عن الاسلام ، ومنها الفساد والمنكر والإضلال والشرك ، ونحو ذلك ، وكل هذه المعاني ، لها سند من الكتاب الكريم والسنة المطهرة .

---

(١) الآية ٢٥٦ البقرة .

(٢) الآية ٨ المتحنة .

أما معنى الفتنة في هذه الآية الكريمة ، فإنها تعني الكفر والاشراك ، ويوضح هذا المعنى ، سياق الآية الكريمة ، فلنعد الى قراءتها ثانية : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان على الظالمين) .

وحين امر سبحانه وتعالى بقتال هؤلاء الكفار والمشركين حتى لا يكون كفر او اشراك ( فتنة ) في الارض فإنه أمر بقتال هؤلاء المقصد ثان وهو أن ( يكون الدين لله ) من اجل ان يسود الاسلام العالم وتعم كلمته الارض .

وبعبارة اخرى ، كما يقول الرازي في تفسيره ( وقاتلوهم حتى يزول الكفر ويثبت الاسلام... وهو نظير قوله تعالى ( استدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون )<sup>(١)</sup> .

اما قوله تعالى : ( فان انتهوا ) فالمعنى فان انتهوا عن الكفر فأصبحوا مسلمين او تمسكوا بدين غير دين الاسلام . واكنهم رضوا بسلطان الاسلام وخضعوا لدولته ، فلا يجوز قتالهم .

ومعنى الانتهاء هنا مثل قوله تعالى : ( قل الذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف<sup>(٢)</sup> ) اما قوله تعالى : ( فلا عدوان إلا على الظالمين ) .

فالمعنى ان انتهوا عن ذلك - كما مر - فلا قتال إلا على الذين لا ينتهون عن الكفر : ولا يقبلون بسلطان الاسلام ، وإصرارهم على هذا الامتناع وعدم الانتهاء هو الظلم لأنفسهم ، كما قال تعالى : ( ان اشرك لظلم عظيم ) .

وقد سمي الله تعالى هذا القتال - وهو قتال حق - عدونا لأنه كان جزاء العدوان ، فصح اطلاق اسم العدوان عليه ، وهو كقوله تعالى ( وجزاء سيئة

---

(١) الآية ١٠ الفتح .

(٢) الآية ٣٨ الانفال .

سنة مثلها <sup>(١)</sup> ) وقوله تعالى : ( فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم <sup>(٢)</sup> )

ويؤيد هذا المعنى لهذه الآية الكريمة : آيات الله تعالى العديدة ، وأحاديث الرسول الأعظم ﷺ المستفيضة ، التي دعت الى الجهاد وبينت غايته ومقصده السامي النبيل ، ويؤكداه ايضاً عمل الرسول الأعظم وعمل خلفائه ، الذين تولوا الحكم والسلطان بعده .

أما الآيات الكريمة ، فمنها قوله تعالى : ( قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون <sup>(٣)</sup> )

وقوله : ( انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ) <sup>(٤)</sup> . وقوله : ( يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ) <sup>(٥)</sup> .

أما الاحاديث النبوية فمنها قوله ﷺ : ( امرت ان اقاتل للناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ) . وقوله : ( امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فان قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله <sup>(٦)</sup> ) .

---

(١) الآية ٤٠ الشوري .

(٢) الآية ١٩٤ البقرة .

(٣) الآية ٢٩ التوبة .

(٤) الآية ٤١ التوبة .

(٥) الآية ١٠ الصف .

(٦) رواه البخاري ومسلم .

وأما عمله ﷺ فقد قضى حياته في المدينة المنورة ثلاث عشرة سنة مجاهداً ، يقاتل الكفار والمشركين . حتى تم له فتح الجزيرة العربية وما جاورها استجابة لأمر الله تعالى ( يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم ، وماؤاهم جهنم وبئس المصير<sup>(١)</sup> ) .

وأما عمل الخلفاء المسلمين ، أو نقول عمل الدولة الإسلامية التي تولى رئاستها الخلفاء ، فإن الجهاد والفتح للبلدان امتد الى ثلثي العالم .

وان جهادهم هذا ما كان الا تنفيذاً لما عليهم من واجب وهو تبليغ الاسلام للناس اجمعين ، على وجه يلفت الانظار ، وذلك بتطبيق احكام الاسلام على سكان البلدان المفتوحة ، ونشر أفكاره بين صفوف اهلها لأن عقيدة الاسلام عقيدة عالمية ، إذ هي عقيدة لكل انسان ، ولأن نظام الاسلام ، نظام عالمي ، وهو نظام لكل انسان ، بغض النظر عن القومية واللغة والبلاد . ( وما ارسلناك الا رحمة للعالمين<sup>(٢)</sup> ) .

وقال تعالى: ( وما ارسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً )<sup>(٣)</sup> . لذلك لم تكن الفتوحات الإسلامية ، القائمة على الجهاد ، من اجل استغلال الشعوب واستعمارها ، ولا من اجل نهب خيرات البلاد واستثمارها كما يصور الكافر المستعمر ، ويزعم المضبوعون بثقافته الاستعمارية الخبيثة .

وإنما كان الجهاد وفتوحاته من اجل شيء واحد وواحد فقط ، هو حمل الدعوة الإسلامية وإنقاذ شعوب العالم من حياة الشقاء والتعاسة . وإخراجهم من الظلم والظلمات التي يعيشونها بسبب فساد انظمتهم وضلال أفكارهم ، وخطأ عقيدتهم ، إخراجهم من ذلك كله ، الى نور الإسلام ، وضياء القرآن ،

---

(١) الآية ٧٣ التوبة .

(٢) الآية ١٠٧ الانبياء .

(٣) الآية ٢٨ سبأ .

وإلى العبادة الكاملة والطمانينة الحقة ، من تطبيق نظام الاسلام ، ونشر عقيدته الصافية النقية .

تلك آيات الله تعالى : وأحاديث رسوله ﷺ ، وعمله والخلفاء ، والذين جاءوا بعده ، بينت الغاية من الجهاد ، والقصد من الفتوحات ، من انها لإعلاء كلمة الله في الارض ، وحمل الدعوة الى الاسلام ، ورفع راية التوحيد في العالم خفاقة بالنصر المبين .

فلما فهم العلماء ذلك ، وأدركوه ، بل وعلموه ، وقاموا بهذا الجهاد المقدس وهم يعرفون انه فرض كفاية : اذا أتمه البعض سقط عن الباقي ، ومن أولى من العلماء في القيام بأفضل الاعمال ، وأجلّ القربات ، وأعظم الطاعات وأكرم العبادات وهو الجهاد في سبيل الله ؟ .

بل من أولى منهم لنوال الشهادة في الجهاد ، والشهيد كما يعلمون من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وله درجة تدنو من درجة الانبياء والمرسلين ، بل هو معهم في جنات النعيم .

أما اذا هاجم العدو بلاد المسلمين ، او احتل ارضهم ، فإن الجهاد يصبح فرص عين على كل مسلم ومسلمة ، من القادرين على حمل السلاح ومقاتلة العدو ، والعلماء في مقدمتهم يجاهدون بأموالهم وأنفسهم وألسنتهم . وتلك شواهد محسوسة ، من قيام العلماء بالجهاد المقدس ، بنوعيه العيني والكفائي ، ضاربين صفحاً عن ذكر علماء الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، لأنهم جميعاً يجاهدون ، وقد جاهدوا في سبيل الله بدون استثناء ، حتى وصل إلينا هذا الدين العظيم عن طريق جهادهم المبرور .

أما علماء التابعين وعلماء العصور التي تلتهم ، فنمسك عن ذكر اولئك الذين جاهدوا بأموالهم ، او الذين حرضوا على الجهاد بلسانهم ، فلمنا نريد شاهداً من ذلك .



وانما يقتصر على اولئك الذين حملوا السيف ، وخاضوا ميدان المعارك الحربية ، وهم بين الأسنة والرماح وتحت ظلال السيوف ، وبين سهيل الخيل وقمعة اللجم ، او مرابطين على الثغور في القيظ والرياح والبرد الشديد ، ساهرين على حماية ثغور المسلمين ، حارسين عليهما ، وقد جمعوا بين الأفضلين العلم والجهاد .. وهؤلاء بلغوا من الكثرة حداً لا يحصرهم العد ، ويكفيهم أن نذكر بعضهم ، لأننا لا نريد تسجيل فهرست بأسمائهم لأن ذلك يطول ، ولا يحصل المقصود ، ولذا يكفينا أن نضرب المثل لبعضهم : ( وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ) ..

### — عبد الله المبارك —

فهذا الامام الجليل كان يحج سنة ويجهد أخرى ، حتى انه مات بعد انصرافه من الجهاد فتوفي في هيت في رمضان سنة ١٨١ هـ .

قال الحسن بن الربيع : ( خرج فارس من المسلمين ملثم فقتل فارساً من العدو كان قد فعل بالمسلمين ، فكبر له المسلمون ، فدخل في غمار الناس ولم يعرفه أحد فتبعته حتى سأله بالله ان يرفع لثامه فعرفته . وقلت : أخفيت نفسك مع هذا الفتح العظيم ، الذي يسره الله على يدك ؟ . فقال : الذي فعلت له لا يخفى عليه <sup>(١)</sup> ) .

وخرج من الشرك فارس ، فانتدب له : فاذا وقعت الصلاة فسأله التنحي وصلى ركعتين <sup>(٢)</sup> . فلما ذهب اليه ، قال الفارس المشرك حتى أصلي أنا :

---

(١) ما اروع هذه الكلمة وما اعظمها وما اجدرها بالكتابة والتعليق . ليعلم اولئك الذين شغلهم حب الظهور وما دروا انه قاصم للظهور ..

(٢) لما كان الجهاد من السفر لذا فان الصلاة الرباعية فيه تصلى ركعتين . وهي الصلاة المعروفة بصلاة المسافر .

وجعل يصلي الى الشمس ، فلما خر ساجداً ، قال ابن المبارك هممت ان أغدر به فإذا قائل أسمع (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً) ، فتركت الغدر ، فلما قال لي - الفارس المشرك - لم تحركت ؟ قلت أردت الغدر بك ، قال فلم تركته ؟

قلت لاني امرت بتركه : قال : الذي امرك بترك الغدر امرني باليمان والتحق بصف المسلمين ( ١ ) .

يقول ابن خلكان عن هذا الامام الجليل . ( هو الحافظ شيخ الاسلام المجاهد . التاجر . صاحب التصانيف والرحلات . جمع الحديث والفقه والعربية وايام العرب والشجاعة والسخاء .. وله كتاب في الجهاد وهو اول من صنف فيه ) داعياً له بحماس لذلك يقول في الدعوة الى الجهاد :

يا عابد الحرمين لو ابصرتنا	لعلت انك في العبادة تلعب
او كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنايك والغبار الاطيب
ولقد انا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في	أنف أمرىء ودخان نار <del>الله</del>
هذا كتاب الله ينطق بينا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

— محمد بن ادريس الشافعي —

وهذا الامام الفقيه المجتهد العظيم ( لما قدم مصر سافر الى الاسكندرية ليرابط بثغرهما وبقي سبعة ايام ووجهه الى البحر في مراقبة الخطر ) ( ٢ ) .

---

( ١ ) النور السافر ذكره صاحب من اخلاق العلماء .

( ٢ ) ص ٢٤٥ من اخلاق العلماء .

وكيف لا يرباط في ثغور المسلمين هذا الامام الجليل وهو يعلم قول  
نبيه ﷺ .

( عينا لا تمسها النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في  
سبيل الله ) (١) . وقوله ( كل ميت يختم على عمله إلا المرباط في سبيل الله  
فانه ينمى له عمله الى يوم القيامة ويؤمن فتنه القبر ) (٢) .

### — اسماعيل بن محمد البخاري —

وهذا امام الحديث : يحدثنا عنه صاحبه في الثغر الحربي المسمى بـ ( فرير )  
( كان البخاري يقضي الليل في التيقظ لجمع الحديث واصلاة السحر . ثم  
قلت له يوماً : انك تحمل نفسك كل هذا ولا توقظني ؟ فأجابني : انت شاب  
فلا احب ان افسد عليك نومك .

وفي يوم كان البخاري قد تعب في تصنيف كتاب التفسير . فاستلقى على  
قفاه فقلت له : سمعتك تقول يوماً : اني ما اتيت شيئاً بغير علم قط منذ  
عقلت . فاي علم بهذا الاستلقاء . فأجابني : اتعبنا انفسنا في هذا اليوم .

وهذا ثغر من الثغور خشيت ان يحدث حدث من امر العدو ، فأحببت  
أن أستريح واخذ أهبة لذلك . فاداء عاصمنا العدو كان بنا حراك (٣) .

### — احمد بن تيمية —

وهذا شيخ الاسلام ابن تيمية . فان حوادث جهاده كثيرة . فقد كان  
العالم المجاهد الذي جمع بين السيف والقلم ومن حوادث جهاده :

---

(١) رواه الترمذي .

(٢) رواه احمد والترمذي .

(٣) ص ١٤ ج ٢ تاريخ بغداد .

ان التتار حين جاءوا يجمعوهم الى الشام سنة ٧٠٢ هـ ارجف المرجفون ،  
وخرجت القلوب من جنوبها ، حيث استعدت الجيوش من مصر والشام  
للاقاء تلك الجموع ، وقد اخذ دعاة الهزيمة والتردد ينشرون الفرع في القلوب ،  
اما ابن تيمية فكان يثبت القلوب ويعدم بالنصر والغلبة ، تالياً عليهم قول الله  
تعالى : ( ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ان الله  
لعفو غفور ) (١) .

حق انه كان يحلف بالله : انكم لمنصورون ، فيقول بعض الامراء له : قل  
ان شاء الله ، فيقول : اقولها تحقيقاً لا تعليقاً ، فاطمأنت القلوب وسكنت  
النفوس ، ولكن دعاة الهزيمة أتوا الناس من ناحية اخرى متذرعين بقولهم :  
كيف نقاتل المسلمين ؟؟ ان ذلك ليس بجائز شرعاً . يقولون هذا الزعم  
وكأنهم مهاجمون وليسوا مدافعين . عندئذ تقدم ابن تيمية مبيناً بجرأة الحقيقة  
الشرعية في هذا القتال والمقاتلين . فيقول : هؤلاء من جنس الخوارج الذين  
خرجوا على علي ومعاوية ، ورأوا انهم أحق بالأمر منها .

وهؤلاء يزعمون انهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين  
ما هم متلبسون به من المعاصي والمظالم ، وهم متلبسون بما هو اعظم منه  
بأضعاف مضاعفة .

ثم قال مصرحاً : ( اذا رأيتموني في ذلك الجانب - اي مع التتار -  
وعلى رأسي مصحف فاقتلونني ) (٢) ، فتحركت القلوب واثرت نخوتها الاسلامية ،

---

(١) سورة الحج .

(٢) هذا هو الفقه ولب المعرفة: فما يغني المصحف في الراس او على الراس اذ لم يمنع صاحبه عن  
محارم الله ولم يوقفه عند حدوده ويدفع جوارحه الى خدمة دينه .  
وقديماً حورب الخوارج وكانت قراءتهم للقرآن الكريم لها دوي كدوي النحل ولكن لم  
تتجاوز حناجرهم .

ثم امتطى ، رحمه الله تعالى ، صهوة جواده وخرج الى ميدان القتال محارباً ومعرضاً، فما كان لمثله ان يدعو الى الثبات في الجهاد، وهو ينكص على عقبيه، بل يتقدم الجموع لينال الشهادة في سبيل اعزاز كلمة الدين وراية الاسلام . وذهب الى ( مرج الصفر ) وهو قريب من دمشق وابتدأت الموقعة الحربية التي تسمت في التاريخ بموقعة ( مشقجيب ) وذلك في شهر رمضان سنة ٧٠٢ هـ وتلاقى الجمعان . ووقف العالم المجاهد موقف الموت ، مقاتلاً ، وهو يثبت القلوب من حوله بقتاله وفعاله، وقد اجتمع بالسلطان قبل الموقعة ، يحثه على الجهاد والقتال ورد المعتدين الآثمين ، حيث بلغه ان السلطان متردد في القتال فما كان من السلطان إلا ان تحمس وطلب منه ان يقف بجانبه في المعركة . فقال شيخ الاسلام : ( السنة ان يقف الرجل تحت راية قومه ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معه ) .

وقد حث الجند وأمرأهم على الافطار ليتقوا على القتال ، وكان يروي لهم قول النبي ﷺ للصحابه الكرام في غزوة الفتح : ( انكم ملائكة العدو والفتح اقوى لكم ) .

وكان رحمه الله يدور على الاجناد يأكل معهم من شيء معه ، ليبين أن افطارهم افضل ليقوا به على القتال .

ووقعت الواقعة واشتد القتال، واشترك فيه ابن تيمية ووقف هو وأخوه موقف الموت، وأبلوا بلاء حسناً ، وصدق اهل الشام وجند مصر ما عاهدوا الله عليه ، فاستمر القتال طوال اليوم الرابع من رمضان ، حتى اذا جاء العصر أذن الله تعالى بالنصر، فظهر جند مصر والشام ، وانحسر جند التتار، فلبأوا الى اقتحام الجبال والتلال ، وجند السلطان الناصر ، او بالأحرى جند ابن تيمية ، وراهم يضربون أقفيتهم ، ويرمونهم عن قوس واحدة حتى انبلج الفجر ، ونادى المنادي: الله اكبر، حي على الصلاة . وبذلك الاعلان ، انكشفت الغمة ، وزال خطر التتار ، فكانت هزيمة منكرة ، منوا فيها

بالخسران المبين، ولم تقم لهم بعدها قائمة ، فأمن الشرق والغرب عاديتهم<sup>(١)</sup> .

### — القاضي اسد بن الفرات —

وهذا القاضي الشيخ اسد بن الفرات . قـاد جيشاً عظيماً لفتح صقلية . فخرج على رأس الجيش في ربيع ٢١٢ هـ وكان يوماً مشهوداً . حيث خرج وجوه اهل البلد يشيعونه . لم يبقَ احد من رجال الدولة إلا شيعة .

ولما ركب هذا العالم المجاهد . وسار في حفل عظيم من الناس . تحفه حملة الاعلام والسيوف . قال وهو في هذا الموضع منوهاً بفضل العلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . والله يا معشر الناس ، ما ولي لي اب ولا جد ولاية قط ، وما رأيت ما ترون إلا بالاقلام ، فاجهدوا انفسكم واتعبوا ابدانكم في طلب العلم وقديونه ، وكابروا عليه . واصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة .

ثم ركب البحر سنة ٢١٢ هـ ونزل في مدينة ( فأزر ) من بلاد صقلية ، والتقى الجمعان ، فحمل المسلمون على اعدائهم : حملة شعواء . وهو على رأس النفیضة ، يحرض المؤمنين على القتال قولاً وفعلًا ، فدارت الدائرة على جيش الروم . ودك حصوناً واستولى عليها : وحاصر ( سر كوسة ) وفي اثناء الحصار . اصيب بجراحات بالغة سال منها الدم على اللواء الذي يحمله حتى فاضت روحه الى ربها راضية مرضية .

وحين رأى الجنود استشهاده قائدهم استبسلوا مجاهدين الروم . حتى ارغمهم على الهروب لا يلوون على شيء ، وكتب زيادة الله والي افريقية الى الخليفة المأمون : بأن الله تعالى اتم فتح صقلية على يد القاضي اسد بن الفرات .

---

(١) اعتمدنا في هذه الاخبار كلها البداية والنهاية لابن كثير ج ١٤ ص ١٥ وكتاب ابن تيمية لابي زهرة او ابن تيمية للشيخ عبد العزيز المراغي ص ٨ .

## — احمد بن عرفان<sup>(١)</sup> —

تتابعت الاخبار من مقاطعة ( بنجاب ) في الهند . بان السيک اضطهدوا المسلمين شر اضطهاد وتفننوا في تضيق الحياة على اتباع الاسلام ، فتجاسروا على هتك اعراضهم ، وقتل الابرياء منهم ، والفتك بالشيوخ والعجزة . وتجروا على تعطيل الشعائر الدينية ، فاغلقوا المساجد . كل ذلك حدث لضعف الحكومة المغولية واشتداد وطأة السيک حيث تولوا الامر في ( بنجاب ) وما جاورها .

وصلت اخبار الاضطهاد الى مسامع السيد احمد بن عرفان : فاستشاط غيظاً . وأبدى المأ وحرناً . فجمع اصحابه واتباعه ومريديه . فحدثهم بتملك الاخبار المؤلمة التي اصابته اخوانهم المسلمين في ( بنجاب ) ودعاهم الى الجهاد ، فاستجابوا لدعوته . واعلن الزحف نحو البنجاب . فتحرك المجاهدون زرافات ووحداً الى الحدود الشمالية الغربية حتى استقروا هناك ، حيث جعلوها قاعاً حربية لهم ، ومركزاً لدعوتهم . وهناك بايع العلماء وفيهم الشيخ عبد الحي ختن الشاه عبد العزيز والشيخ اسماعيل بن عبد الغني ابن ولي الله بايعوا السيد احمد بالامارة وتبعهم المجاهدون . ( وكان ذلك في جمادى الآخرة يوم ١٢ من سنة ١٢٤٢ هـ وبدأت المناوشات ونشبت المعارك . واضطربت نيران الحرب ، وتتابعت زهاء اربع سنوات ، كان النصر فيها حليف المجاهدين بقيادة السيد احمد على قلة عددهم وعددهم . حتى استولوا على مدينة بشاور العظيمة فاعلموا فيها حكم الاسلام . وطبقوا الشريعة السمحة عليها وعلى القرى المجاورة لها .

وقد ازداد المجاهدون مهابة واجلالاً في عيون الاعداء ، وفرح المسلمون

---

اعتمدنا في كتابة هذا الموقف على مجلة الجزيرة السعودية .

(١) ولد الامام احمد بن عرفان في الهند سنة ١٢٠١ هـ وتربى في بيت من بيوت العلم .

وعظم رجاؤهم بهذا النصر العظيم حيث سيكون فاتحة أمل بعود الاسلام  
ثانية الى ربوع الهند .

ولكن مما يتألم القلب لسماعه .. ما كان من مقاومة علماء السوء وغدر  
رؤساء العشائر وفتكهم بالابرياء وتوددهم الى اعداء الاسلام - عند ذاك -  
غادر السيد - احمد - ومن معه من المجاهدين الى الحدود الشمالية الغربية ،  
وقصدوا بلاد (كشمير) وأرادوا اللجوء الى جبالها وكهوفها، الى ان استمرت  
معركة شديدة ، بين الفريقين في طريقهم اليها في (بالاكوت) - موضع بين  
كشمير والحدود الشمالية الغربية - استشهد فيها الامامان المجاهدان، السيد احمد  
ابن عرفان والشيخ اسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله ، وذلك في يوم الجمعة  
٢٤ من ذي القعدة سنة ١٢٤٦ هـ رحمهما الله تعالى ) .

### — عز الدين القسام —

كان الشيخ القسام رحمه الله تعالى ، إماماً وخطيباً لجامع الاستقلال في  
مدينة حيفا بفلسطين . وقد عرف رحمه الله بشجاعته وصلابته في الحق  
وتفانيه في خدمة الاسلام ، وحين رأى حالة المسلمين في بلاده ، وسيطرة  
الكفار المستعمرين الانكليز عليهم ، وهم الذين يوالون اليهود ويمدونهم بالسلاح  
والعتاد ، اختار جماعة من اخوانه المؤمنين ، وأخذ يدرهم سرّاً على حمل  
السلاح ، وينفث فيهم روح المصابرة على جهاد الاعداء ، حتى استطاع رحمه  
الله ان يكوّن منهم كتيبة .

( ولما رأى وعلم حاكم لواء حيفا وهو عن الانكليز بما يفعله الشيخ ،  
أرسل اليه وقال له : يا شيخ انك متحرك وذو نشاط مناوئ لنا ، فرد  
عليه قائلاً ، بعد ان اخرج المصحف الشريف من جيب جيبته ، هذا الكتاب  
العظيم يأمرنا بالجهاد ولا نخالفه ، ثم ان الشيخ اعلن الجهاد عن طريق الفتك



بالانكليز ، فخرج هو يقود كتيبته يترصدون العدو ، فقتل افراداً منهم في مدينة بيسان . ثم سار بمن نجا حتى وصل احراش يعبد بالقرب من مدينة جنين . فاتخذها مقراً له ، وفي ١٩ تشرين الثاني ١٩٣٥ م استشهد احد افراد الكتيبة عندما كان يراقب الطريق ، وفي فجر اليوم التالي طوقت قوات بريطانية ضخمة ، تلك الاحراش تساعدها طائرات استكشافية وبعد قتال استمر حتى العاشرة صباحاً انتهت المعركة باستشهاد الشيخ القسام وأربعة من كتيبته وأمر الباقون . وقد قتل جندي بريطاني وجرح اثنان جراحاً بالغة<sup>(١)</sup> . ( فأصدرت السلطة بلاغاً بالحادثة نعتت به الشيخ القسام وصحبه بالاشقياء . ورغم خطورة الموقف وارهاب الانكليز استطاع المسلمون ان يشيعوا المجاهدين الشهداء باحتفال عظيم ، جرت في اثنائه مع قوة بريطانية مناوشة ، ادت الى ارتدادها وتحطيم نوافذ دائرة البوليس وأبوابها . وقد هز هذا الحادث البلاد هزاً عنيفاً فيصح اعتباره مقدمة لثورة ١٩٣٦ م<sup>(٢)</sup> .

استمر الجهاد بعده ... ودخلت الجيوش ... الثانية المعروفة . ولم يترك بعض العلماء الجهاد<sup>(٣)</sup> ، ولكن كانت النتيجة الخزية ... بإنشاء دولة اسرائيل لتكون رأس جسر للاستعمار ، ثم حولت قضية هذا الوطن المقدس ، من قضية اسلامية بين المسلمين جميعاً ، وبين اليهود ومعهم الكافر المستعمر الى قضية محلية بين العرب واليهود ، ثم انتقلت من قضية سياسية عسكرية الى قضية لاجئين وحدود وتعويضات .

مع ان هذه القضية في الحقيقة والواقع ، قضية المسلمين اجمع والنزاع فيها

---

(١) موجز ما حدثني به الاخ الشيخ علي محمد الحانوتي من علماء فلسطين ونزيل بغداد اليوم . اعاده الله واخوانه اليها في تمام النصر وكمال الغلبة .

(٢) (٩٧) (٩٨) القضية الفلسطينية اكرم زعير .

(٣) منهم الشهيد الشيخ حسن البنا والشهيد الشيخ محمد فرغلي وغيرهما من حملة الاسلام وحاملي لواء الشريعة الغراء راجع - المقاومة السرية لكامل الشريف .

نزاع بين حق المسلمين وباطل اليهود ومعهم الاستعمار ، وفي مقدمته امريكا وبريطانيا ، وانها قضية سياسية عسكرية ، وليس لها الا حل واحد . هو النزول للبعولة الثانية ، والعودة الى مواصلة القتال ولو كلف تحرير هذا الوطن المقدس من رجس الكفار والمستعمرين ، استشهاد ملايين المسلمين . لأن هذا جهاد في سبيل الله ، وهو فرض على جميع المسلمين .

### — عبد القادر الجزائري —

تبوأ الشيخ عبد القادر بن الشيخ محي الدين الحسني اكبر مركز بين العلماء في المغرب ، فقد كان رحمه الله فقيهاً ذا عبقرية اسلامية فذة .

.. وفي السنة الثانية من احتلال الكفار المستعمرين الفرنسيين لأرض الجزائر سنة ١٣٤٨ هـ اجتمع علماء الجزائر وأصحاب الكلمة فيها . وأبدوا الرأي في مسجد مدينة مسكر . وبايعوا الشيخ عبد القادر على الامارة والجهاد لتحرير ارض الجزائر من الغاصبين المغتدين ، وإقامة الشرع الاسلامي الحنيف في البلاد ، فأنشأ رحمه الله حكومة اسلامية ، برئاسته ، لتحقيق هذه الغاية .

وحين علم الكافر المستعمر الفرنسي ، بظهور الشيخ عبد القادر وحكومته الاسلامية ، تملكه الفزع والهلع . فشن حرباً هجومية مسعورة ، للقضاء على كل استعداد عسكري لها . ولإبادة المجاهدين وحكومتهم ، إلا ان الشيخ عبد القادر ، رد هذا الهجوم ، بشكل عنيف جداً ، بما أرغمهم على بقاءه ، معتصماً في داخل الحصون والقلاع .

ولما عجز الجنرال ( دي ميشال ) ( ولم يتمكن من فك الحصار المضروب حول رجاله في وهران وستغانم ، وكادت الجيوش المجاهدة ، تسمع القوات الاستعمارية داخل الحصون ، لو لم يمل القسائد الفرنسي الى المراوغة ، فأرسل

الى الامير الشيخ عبد القادر ، يطلب منه التماس الصلح من فرنسا ودس بين  
سطور رسالته عبارات التهديد والتخويف ، بقوة فرنسا الهائلة التي تعد اكبر  
قوة في العالم ( ١ ) .

ولكن الشيخ عبد القادر أجابه إجابة القائد المؤمن ، الواصل بنصر الله ،  
الفهم للاسلام العالم بأحكام الشرع المتعلقة بالجهاد ومقاتلة الكفار .

فقال رحمه الله تعالى : ( ان ديننا يمنعنا من طلب الصلح ابتداء ، ويسمح  
لنا بقبوله اذا عرض علينا .. وإن المفاوضة التي تطلبونها يجب ان تكون  
مبنية على شروط محترمة منا ومنكم .. ) .

والشيخ بقوله هذا يشير الى قوله تعالى : ( وإن جنحوا للسلم فاجنح لها  
وتوكل على الله ) ، ثم استطرد الامير الشيخ قائلا في جوابه : ( كيف  
تفاخرون بقوة فرنسا ولا تقدرון القوة الاسلامية ، مع ان القرون الماضية  
أعدل شاهد على قوة المسلمين وانتصاراتهم على اعدائهم . ونحن وإن كنا  
ضعفاء على زعمكم ، فقوتنا بالله الذي لا إله إلا هو لا شريك له . ولا ندعي  
بأن الظفر مكتوب لنا دائما ، بل نعلم ان الحرب سجل يوم لنا ويوم علينا .  
غير ان الموت سر لنا وليس لنا ثقة إلا بالله وحده لا شريك له . لا بعدد  
ولا بعدد وان دوي الرصاص وصهيل الخيل في الحرب لا ذانتنا خير من  
الصوت الرخيم ( ٢ ) . ثم يتحدى الجنرال دي ميشال وقواته قائلا ( متى خرجتم  
من وهران مسافة يوم او يومين يظهر للعيان من يستحق الفخر بنا ) ( ٣ ) .

تلك إجابة العالم المجاهد ؟ فكان جوابه كالصاعقة التي أذهلت هذا القائد  
الكافر الغر النزق ..

---

( ١ ) ص ٥٥ و ٥٦ الثورة الجزائرية للاستاذ احمد الخطيب .

( ٢ ) ص ١٠٩ وما بعدها . الاسلام في القرن التاسع عشر - كارل بروكلمان - ترجمة نبيه  
امين فارس ومنير البعلبكي .

إن هذا العالم الرجل ، ليس من أولئك الرؤساء الذين تخور أعصابهم للتهديد والوعيد . كما لم يكن من أولئك الذين يتربعون على كراسي الحكم شهوة للحكم . فاذا هددوا وأنذروا ركعوا وخروا ساجدين .. متمرغين على الأعتاب ، بل على الأقدام ، في سبيل المحافظة على قلمك الكراسي الزائفة والزائلة . عند ذاك ، أعلن الشيخ الجهاد ، فاستجاب لندائه الأبرار من جند الرحمن وأنصار الاسلام ، وحزب الله ، على جند الكفر وأنصار الاستعمار وحزب الشيطان ، فدام جهاده المبارك هذا سبعة عشر عاماً ، وكان هذا الاعلان الخالد أول شرارة لاشعال نار الحرب المقدسة ضد الباغين المعتدين ، فدخل المعارك الحربية ، وكانت سجالات بين الفئتين يوم لنا ويوم علينا ، ثم استمر العلماء المجاهدون من اهل الجزائر ، كلما استشهد عالم قام آخر وأخذ العلماء يتولون القيادة في الجهاد ، من الشيخ بومعزي الى الشيخ بوبغلة الى الشيخ الحداد الى الشيخ محمد المقراني الى الشيخ ابي عمامة ، وهكذا حتى استلم راية الجهاد قادة جبهة التحرير الجزائري ، وكانت نهاية هذا الجهاد على الشكل القائم اليوم في ارض الجزائر المسلمة .

### — الشيخ محمد المهدي —

... أقرت بلاد السودان الدعوة الاسلامية التي يقود لواءها الشيخ محمد ابن عبد الله المهدي ، وهو الفقيه بأحكام الاسلام ، الشيخ المربي في الطريقة السمانية<sup>(١)</sup> المنتشرة يومئذ في القطر السوداني حيث اخذت هذه الدعوة تسري بين الناس ، وقد انضوى تحت لواء دعوته جمهرة كبيرة من المسلمين .

---

(١) الطرق الصوفية حقيقتها مدارس اسلامية لتربية المريدين تربية شرعية عملية ، يقوم بها فقهاء عالمون يعلمون بما علموا ، يدل على ذلك قول شيخ الطائفة الجنيد رحمه الله .  
( طريقتنا مقيده بالكتاب والسنة ) فكانت تجمع بين الفقه والعمل ، وعلى تربية الروحية والفقه بأحكام الاسلام .

ان الشيخ رحمه الله تعالى حين رأى تسلط الكفار المستعمرين الانكليز على مصر والسودان ، اصدر فتواه المشهورة باعلان الجهاد ضدهم ، وكان ذلك سنة ١٨٨١ م ، اما الانكليز فقد سيروا جيشاً عظيماً تعداداه عشرة آلاف مقاتل ( بقيادة هيكس باشا الى السودان ، فاشتبك مع قوات المهدي في البركة الواقعة على نحو سبعة وثلاثين ميلاً من جنوب شرقي الابيض .

وكان النصر في هذه المعركة للشيخ المهدي ، اذ استطاع ان يبيد هذه القوات عن بكرة ابيها . واستمرت انتصارات الشيخ في مقاتلة القوات البريطانية ، مما جعل السودان كله يخضع لسلطان الشيخ ، وقد اضطرت بريطانيا العظمى ان تسلم بعد تلك الحروب .

وكانت الحكومة البريطانية قد استعدت للتنازل نهائياً عن السودان وبعثت بالجنرال غوردن قاصع ثورة ( ثاينج ) في الصين ، الى الخرطوم لكي ينقذ الاوربيين الذين ما انفكوا يعيشون هناك ويعود بهم الى مصر .

وفي الحال بعث هذا القائد بكتاب الى المهدي ، ليبيد فيه استعداداه للاعتراف به سلطاناً على كردفان ... فأجابه المهدي طالباً اليه الاستسلام .

وبعد ذلك اي في سنة ١٨٨٤ م ، تقدم جيش بريطاني في النيل وهزم قوات المهدي المعسكرة في المراكز الامامية عند المتعة ، ولكن ام درمان استسلمت في ١٥ كانون الثاني ١٨٨٥ م ، وفي ليل ٢٥ - ٢٦ كانون الثاني شن المهدي على رأس اتباعه هجوماً عنيفاً على المدينة وقتل غوردن في قصره .

انتقل المهدي وحكومته الى الخرطوم بعد ان خضعت السودان له ، وبذلك حرر هذا العالم المجاهد بلاده من رجز الكفر والاستعمار حتى توفاه الله تعالى على أثر مرض في سنة ١٨٨٥ م .

رحم الله المهدي واجزل ثوابه وأنعم عليه برضوانه .

## — السيد احمد الشريف السنوسي —

الامام احمد بن السيد محمد السنوسي من المشايخ الاربعة الكبار للطريقة السنوسية الذين تولوا امرها بالتعاقب ، ونشروا تعاليمها القائمة على الكتاب والسنة .

فكانت مدرسة تعلم المسلمين الجهاد ، والتجرد لله سبحانه وتعالى ، وعدم الركون الى الدنيا والشجاعة في الحق وقد اندفع اتباعها بتوجيه من مشايخها ، يجاهدون الكفرة المستعمرين بقلوب امتلأت ايماناً ، وبجراحة قل نظيرها ، وبنظام دقيق وهو بعض ما تعلموه في زواياهم المبتوثة هنا وهناك .

والسيد احمد كما يقول شقيب ارسلان . ( حبر جليل وسيد غزير واستاذ كبير ، من انبل الناس جلالة اقدار وسراوة حال ، ورجاحة عقل قاتل الايطاليين اذ انضم الى الدولة العثمانية فحمل لواء الجهاد وحده وسارت برقة وطرابلس تحت لوائه <sup>(١)</sup> .

وهو من قادة المجاهدين والعلماء العاملين ، قد أوقف نفسه لنشر الاسلام ولعادة مجده وسلطانه . ووقف في وجه الكافر المستعمر الفرنسي احدى عشرة سنة من ١٩٠٢ م الى ١٩١٣ م والكافر المستعمر الايطالي ما يزيد على السبع سنين .

لقد عرف عن السيد المجاهد ، المصابرة على الجهاد ، والاستماتة في مقاتلة الاعداء ، فهو في الوقت الذي كان يجمع الجموع للجهاد ويحرضهم على القتال مبيناً فضله وعظيم اجره وجزيل ثوابه ، كان يقود المجاهدين في ساحات الوغى . ومن ذلك :

---

(١) ص ١٣٢ ج ١ الاعلام للزركلي .

قائد السيد الجليل رحمه الله المجاهدين في الموقعة المعروفة يوم الجمعة التي حدثت من يوم ١٦ ايار ١٩١٣ م قرب درنة ، فأبلى السيد والمجاهدون بلاء حسناً ، وكانت الدولة والنصرة من نصيب السيد المجاهد المصابر ( بحيث اعتقد الكثيرون أن النصر جاء كرامة لوجود السيد ) (١) .

نصرهم الله تعالى في هذه الموقعة والمواقع الاخرى ، في الوقت الذي كان سلاحهم السيف وامثاله وهو المعروف بالسلاح الابيض . اما سلاح الاعداء فالمدافع والرصاص مع تفاوت كبير في العدد والعدد بين الفئتين ، ولكن صدق الله تعالى حيث يقول ( كم فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله والله مع الصابرين ) (٢)

## — عمر المختار —

... ومن التلاميذ النجباء والمريدين الصادقين للامام احمد السنوسي ، الشيخ عمر المختار الذي سطع نوره ولمع نجمه في الانتصار الساحق الذي حققه الله تعالى على يده ، في معاركه ضد اعداء الله الايطاليين ، بعد ان تولى قيادة المجاهدين في برقة على أثر انسحاب القائد عزيز المصري ، ( فشكل جيشاً وطنياً جعل من خطته الدفاع والتربص بالعدو حتى اذا خرج الطليان من مراكزهم انقض المجاهدون عليهم فأوقعوا بهم شر مقتلة وغنموا منهم اسلاباً كثيرة امدتهم في الحقيقة بأكثر الأسلحة والعتاد ودواب النقل مما كانوا في حاجة ملحة اليه جميعه ، وظل الحال على هذا المنوال حتى نشبت الحرب

---

(١) ٨٥ من تاريخ ليبيا للدكتور نقولا زيادة .

(٢) الآية ٢٤٩ البقرة .

يراجع كتاب السنوسية دين ودولة للدكتور محمد فؤاد شكري .

« العظمى » العالمية الاولى في اغسطس ١٩١٤ م<sup>(١)</sup> .

واستمرت المعارك بعد ذلك بينه رحمه الله وبين الاعداء وكتب الله تعالى له النصر والظفر كلما دخل معركة ( حتى ادخل تغييراً على الموقف في برقة وأحى آمال السنوسيين في القدرة على مواصلة الكفاح بنجاح ضد ايطاليا<sup>(٢)</sup> ) .

وفي يوم ١١ سبتمبر ١٩٣١ وقع اسيراً بيد الاعداء بعد ان جرح واستشهد من معه من المجاهدين .

وقال كلمته التي خاطب بها الاعداء :

« إن القبض عليّ ووقوعي في قبضة الطليان انما حدث تنفيذاً لارادة المولى عز وجل وانه وقد اصبحت الآن اسيراً بأيدي الحكومة فالحمد لله سبحانه وتعالى وحده يتولى امري . وأما انتم فلکم الآن وقد اخذتموني ان تفعلوا بي ما تشاؤون وليكن معلوماً اني ما كنت في يوم من الايام لأسلم لكم طوعاً<sup>(٣)</sup> ! » .

له در هذه الروح الايمانية العالية التي لم تعرف الخور ولا الجبن وأنى للخور والجبن ان يدخلوا في ذلك القلب الطاهر الذي يشهد الله في كل حالة ومقالة .

ثم حوكم على طريقة الكافر المستعمر ونصبت المشنقة قبل المحاكمة وأمام الجموع الغفيرة التي اجبرت على الحضور، نفذ حكم الاعداء ولسانه وقلبه وحاله يردد اشهد ان لا إله الا الله وأشهد ان محمداً رسول الله<sup>(٤)</sup> .

---

(١) ص ٤٦ عمر المختار للسيد محمود شلي .

(٢) ص ٤٧ عمر المختار للسيد محمود شلي .

(٣) ص ٨٨ و ٨٩ عمر المختار للسيد محمود شلي .

(٤) نفذ حكم الاعداء شنقاً بالسيد المجاهد في الساعة التاسعة من صباح يوم الاربعاء ١١ سبتمبر ١٩٣١ م في مدينة « سلوق » وله من العمر ٦٩ عاماً .



## علماء العراق في ثورة العشرين

لما أعلن الحسين بن علي شريف مكة المكرمة ، ثورته بعصيانه وتمرده على الدولة الاسلامية ( الدولة العثمانية ) في قسمة شعبان المشؤوم ١٣٣٤ هـ ١٠ حزيران ١٩١٦ م . عمل الانكليز على دعم ثورته - عصيانه - كثيراً . فقد امدوه بالمال والسلاح والعتاد . ومهدوا للأسرى العرب الذين كانوا يقاتلونهم في صفوف الجيش العثماني للانتحاق بالثورة المذكورة (١) .

ثم ان الكافر المستعمر الانكليزي . -خائن العهود - وهو خوان العهد دائماً - التي قطعها للحسين بن علي .. واحتل بغداد على يد رأس من رؤوس الكفر والاستعمار الجنرال مود في صبيحة ١١ آذار ١٩١٧ م واخذ يفرض سطوته وجبروته واستعماره على العراق . واحتل البلاد العراقية شيئاً فشيئاً فنجم عن ذلك ( تفسخ في الاخلاق واضطراب في الاحكام وامتهان لكرامات وأفات في الصدور بحيث اصبح سوء الادارة عاماً قوياً من العوامل التي ادت الى نشوب نار الثورة ) (١) .

وقد شهد جميع المؤرخين بلا استثناء سواء اكانوا من المسلمين ام غيرهم : ان فتاوى العلماء والاعلام في النجف وكربلاء وبغداد وسامراء والكاظمية ، وغيرها ، التي اعلنت الجهاد ومقاولة الانكليز : لأن الجهاد اصبح فرضاً على كل مسلم ومسلمة اذا لاحتل العدو بلاد المسلمين .

نعم كانت هذه الفتاوى هي التي دفعت العشائر العراقية الى القتال لتحرير ارض العراق من رجس الكفر والاستعمار ولم يكتف بعض العلماء بفتواهم هذه . وانما حملوا السلاح واشتركوا في الحرب . فقادوا المجاهدين

---

(١) ص ٧٢ الثورة العراقية للسيد عبد الرزاق الحسيني .

في بعض المعارك . وكان منهم السيد محمد سعيد الحبوبي حيث قاد المجاهدين في واقعة ( الشعبية والبرجسية ) وابلى بلاء حسناً . ( حيث بقي في مقدمة المحاربين وعلى رأس المجاهدين في الشعبية حتى عاد الجميع فعاد معهم <sup>(١)</sup> ) ومنهم الامام الشيخ مهدي الخالصي حيث جمع الجموع وشكل كتائب الجند في مدرسته بالكاظمية وقاد المجاهدين ودخل المعارك الحربية ، ومات بالسم <sup>(٢)</sup> كما حدثني ولده الشيخ محمد الذي اشترك معه بعد ان ابعده عن العراق في ايران حين استقام الامر للانكليز وتشكل الحكم الوطني ) .

الحمد لله أولاً وآخرأ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه ومن دعا بدعوة الاسلام الى يوم القيامة .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) توفي سنة ١٣٤٣ هـ وعمره ٦٧ عاماً .



## الفهرست

صفحة	
•	الإهداء
٧	المقدمة
١٥	العلماء والحكام في العصر الاسلامي
٢٥	سياسة العلماء والحكام
٣٦	العلماء
٣٩	الحكام وآيات الحكم
٤٣	الحكام
٥٤	صلاح الصنفين من الناس
٦١	العلماء والاصطلاحات الحديثة
٦٤	العلماء وآية التهلكة
٦٨	العلماء يحاكمون الحكام
٨٠	الحكام يسألون العلماء
١٠٤	العلماء ينصحون الحكام
١١٥	العلماء ومواجهة الحكام
١٢٢	العلماء ومنح الحكام
١٢٩	العلماء ومحن الحكام
١٣٣	محنة سعيد بن المسيب
١٣٨	محنة سعيد بن جبير
١٤٤	محنة جعفر الصادق
١٤٩	محنة ابي حنيفة النعمان
١٥٥	محنة مالك بن انس
١٥٩	محنة احمد بن حنبل

١٨٢	محنة محمد الشافعي
١٨٦	محنة البخاري
١٩٠	محنة العز بن عبد السلام
١٩٨	محنة احمد بن تيمية
٢٠٨	محنة احمد السرهندي
٢١٤	خاتمة الفصل
٢١٦	العلماء في سجون الحكام
٢٢٢	العلماء والجهاد
٢٢٨	— عبدالله المبارك
٢٢٩	— الامام الشافعي
٢٣٠	— الامام البخاري
٢٣٠	— الامام ابن تيمية
٢٣٣	— اسد بن الفرات
٢٣٤	— احمد بن عرفان الهندي
٢٣٥	— عز الدين القسام الفلسطيني
٢٣٧	— عبد القادر الجزائري
٢٣٩	— محمد بن عبدالله المبدعي، السهم داني
٢٤١	— احمد الشريف السنوسي في ليبيا
٢٤٢	— عمر المختار
٢٤٤	— علماء العراق في ثورة العشرين

# مصادر الكتاب

فهرست بمصادر الكتاب كما جاءت في حواشيه

- ١ - القرآن الكريم : طبعة مطبعة حنفي بمصر
- ٢ - الأحاديث النبوية : البخاري ، مسلم ، والترمذي ، أبو داود ، ابن ماجة والبيهقي ، البغوي ، الطبراني ، أبو نعيم الحاكم أحمد .
- ٣ - سراج الملوك : للطرطوسي
- ٤ - تاريخ الطبري
- ٥ - الكامل لابن الاثير
- ٦ - تفسير الرازي
- ٧ - تفسير البيضاوي
- ٨ - نهج البلاغة : شرح محمد عبده
- ٩ - نهاية الأرب : للنويري
- ١٠ - العقد الفريد لعبد ربه
- ١١ - البيان والتبيين : للجاحظ
- ١٢ - الاحياء : للامام الغزالي
- ١٣ - العدالة الاجتماعية : لسيد قطب
- ١٤ - المسند : تحقيق احمد محمد شاكر
- ١٥ - من اخلاق العلماء : للشيخ سليمان
- ١٦ - فرائد الجواهر : للشيخ أبي بحر التادفي
- ١٧ - طبقات : للسبكي
- ١٨ - السلوك : للمقرئزي
- ١٩ - مختصر منهاج السنة : للذهبي

- ٢٠ - تذكرة الحفاظ : للذهبي  
٢١ - الفتوحات المكية : لابن عربي  
٢٢ - المخزون  
٢٣ - المناقب : لابن الجوزي  
٢٤ - ضحى الاسلام : احمد امين  
٢٥ - مالك : لابي زهرة  
٢٦ - ابو حنيفة : لابي زهرة  
٢٧ - احمد بن حنبل  
٢٨ - الشافعي  
٢٩ - ابن تيمية  
٣٠ - الصادق  
٣١ - الخراج : لابي يوسف  
٣٢ - بحار الانوار : للشيخ عباس القمي  
٣٣ - الامام الصادق : للشيخ المظفري  
٣٤ - رجال الدعوة في الاسلام : للندوي  
٣٥ - قوات الوفيات : للكتبي  
٣٦ - المحاسن والمساوي : للبيهقي  
٣٧ - تلبيس ابليس : لابن الجوزي  
٣٨ - المدارك  
٣٩ - الرحمة الغنية  
٤٠ - ابو حنيفة بطل الحرية والتسامح : للجندي  
٤١ - حلية الاولياء : لابي نعيم  
٤٢ - طبقات : لابن سعد  
٤٣ - وفيات الاعيان : لابن خلكان  
٤٤ - تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي

- ٤٥ - المناقب : لابي طالب المكي
- ٤٦ - المناقب : لأبي البزازي
- ٤٧ - تاريخ ابن كثير
- ٤٨ - الانتقاء - لابن عبد البر
- ٤٩ - الامامة والسياسة : لأبي قتيبة
- ٥٠ - المفقى للمقرئزي
- ٥١ - طبقات الشافعية
- ٥٢ - تاريخ الذهبي
- ٥٣ - تاريخ اليعقوبي
- ٥٤ - تاريخ ابي الفداء
- ٥٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطي
- ٥٦ - التنبيه والاشراف للمعزدي
- ٥٧ - النجوم الزاهرة : للأتابكي
- ٥٨ - الحديث والمتحدثون : لأبي زهو
- ٥٩ - فتح الباري : للعسقلاني
- ٦٠ - مفتاح السنة : للبغوي
- ٦١ - شذرات الذهب : لابن العماد الحنبلي
- ٦٢ - سير اعلام النبلاء لاحمد بن عثمان الذهبي
- ٦٣ - واسلاماه لابا كثير
- ٦٤ - حياة ابن تيمية للبيطار
- ٦٥ - نزهة الخواطر
- ٦٦ - نظرة اجمالية في تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند والباكستان للندوي
- ٦٧ - الفوائد البهية في تراجم الحنفية
- ٦٨ - رفع الاسر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلاني
- ٦٩ - الفخري في الآداب السلطانية لابن الطغطقي



- ٧٠ - النور السافر في اخبار واعيان القرن العاشر للشيخ المعيدرومي
- ٧١ - ابن تيمية للشيخ المراغي
- ٧٢ - القضية الفلسطينية اكرم زعير
- ٧٣ - الاسلام في القرن التاسع عشر - كارل بروكلمان ترجمة نبينه امين فارس
- ٧٤ - الثورة الجزائرية لاحمد الخطيب
- ٧٥ - الاعلام للزركلي
- ٧٦ - من تاريخ ليبيا نقولا زيادة
- ٧٧ - منهاج الاسلام في الحكم ل محمد اسد
- ٧٨ - عمر المختار ضحية الاستعمار الوحشي لمحمود شلبي
- ٧٩ - السنوسية دين ودولة للدكتور محمد فؤاد شكرى
- ٨٠ - محاضرات تاريخ الامم الاسلامية للغضري
- ٨١ - المقاومة السرية لكامل الشريف



## آثار المؤلف

- ١ - الاسلام ضامن للحاجات الاساسية .
- ٢ - حكم الاسلام في الاشتراكية .
- ٣ - الاسلام بين العلماء والحكام .
- ٤ - الاسلام حرب على الاشتراكية والرأسمالية ( في طريق الطبع ) .
- ٥ - كتاب الله الخالد - القرآن الكريم - ( في طريق الطبع ) .



## منشورات المكتبة العلمية بالمدينة المنورة

٢-١	للعافظ بن حجر العسقلاني	تقريب التهذيب
١	للعافظ جلال الدين السيوطي	تدريب الراوي شرح تقريب النوادي
٤-١	للسيد السهموري	وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى
١	للعامة المراغي	تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة
١	للاستاذ عبد القدوس الانصاري	آثار المدينة المنورة
١	للعافظ محرر بن محمد المنبجي	تسليية اهل المصائب
١	للشيخ عبد الغني النابلسي	شرح اهل احكام الاسلام
١	للعافظ السخاوي	القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفييع
١	للعز بن عبد السلام	الاشارة الى الایجاز ( انواع المجاز )
١	للعافظ المقدسي	فضائل الاعمال
١	للشيخ حسن المشاط	التعفة السنية
١	لشيخ الاسلام ابن تيمية	السياسة الشرعية
١	للسيد صديق حسن خان	الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة
١	لشيخ الاسلام ابن تيمية	معارج الوصول الى ان اصول الدين وفروعه قد بينتها الرسول لشيخ الاسلام ابن تيمية
١	لشيخ الاسلام ابن تيمية	الحسبة في الاسلام
١	لشيخ الاسلام ابن تيمية	رفع الملام عن أئمة الاسلام
١	للسيد ابي الحسن الندوي	الطريق الى المدينة
١	للشيخ السيد ابي بكر الشطا	رسالة في حكم اوراق النقود
	والشيخ الفا هاشم	

